بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الحادي والعشرون

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة الفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وأصوله في جامعة دمشق

الجزء الحادي والعشرون

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

طريقة إرشاد أهل الكتاب

﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَلا تُجادِلُوا﴾ المجادلة والجدل : الحجاج والمناظرة والمناقشة ﴿أَهْلَ الْكِتابِ﴾ اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، يؤمنون بوجود الله واليوم الآخر وبالتوراة والإنجيل ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم وضبط النفس ، والمشاغبة بالنصح ، والتنبيه إلى آيات الله وحججه ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي لكن الظالمون منهم بالإفراط في الاعتداء والعناد والمحاربة ، فجادلوهم وعاملوهم بالمثل ﴿وَقُولُوا﴾ لمن سالمكم وأذعن للحق أو قبل المعاهدة السلمية معكم إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي صدّقنا بما أنزله الله إلينا وهو القرآن ، وما أنزله إليكم في أصوله الصحيحة من التوراة والإنجيل ، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم في ذلك ، فهذا من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ فيما يأتي تخريجه : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وملائكته وبكتبه ورسله ، فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم ، وإن قالوا حقا لم تكذبوهم».

﴿وَإِلٰهُنا وَإِلٰهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ خاضعون مطيعون له خاصة ، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى.

﴿وَكَذلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ﴾ أي القرآن ، كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها ، وكان القرآن وحيا مصدقا لسائر الكتب الإلهية ﴿فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمِنْ هؤُلاءِ﴾ أهل مكة أو العرب أو الكتابيين الموجودين في عهد الرسول ﷺ ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها ، والجحد : إنكار الشيء بعد معرفته والعلم به ﴿إِلَّا الْكافِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر ، وهم المشركون وغير المسلمين الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن والنبي محمد ﷺ ، بعد أن ظهر لهم أن القرآن حق ، ومحمد ﷺ حق ، ثم جحدوا ذلك.

﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي إنك أمي لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل نزول القرآن ، فإن هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الذي نزل على أمي لم يعرف القراءة والتعلم أمر خارق للعادة ﴿إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت قارئا كاتبا لشك أهل الباطل كاليهود فيك. وإنما سماهم مبطلين لكفرهم وكونهم غير محقين فيما ذهبوا إليه من التنكر لرسالة الإسلام.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن الذي جئت به ﴿آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي هو آيات واضحات الدلالة على الحق في قلوب أهل العلم وهم المؤمنون فيحفظونه من كل تحريف ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي وما ينكر آيات الله إلا الظالمي أنفسهم الذين جحدوا وجه الحق ، بعد وضوح دلائل إعجاز تلك الآيات.

المناسبة :

بعد بيان الله تعالى طريقة إرشاد المشركين عبدة الأصنام أو غيرها ، أبان الله تعالى طريقة إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنكري نبوة محمد ﷺ ، والقائلين ببقاء شريعتهم وأنها لم تنسخ بشريعة أخرى ، مبتدئا بأمر الرسول ﷺ والمؤمنين به أن يعلنوا إيمانهم بالقرآن وبما تقدمه من التوراة والإنجيل ، وبإطاعة الإله الواحد ، ثم مبينا إيمان بعض أهل الكتاب وبعض المشركين من أهل مكة بالقرآن ، ثم موضحا دليل الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ ، وهو كونه أميا لم يقرأ ولم يكتب ، وكون القرآن مشتملا على علوم نافعة فريدة.

التفسير والبيان :

﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي ولا تحاججوا ، ولا تناقشوا اليهود والنصارى إلا بالطريقة الحسنة وبالأسلوب الهادىء اللطيف ، إلا الذين ظلموا أنفسهم ، وحادوا عن سبيل الحق ، وعموا عن واضح الحجة ، وعاندوا وكابروا ، ولم ينفع معهم أسلوب المنطق والإقناع العقلي ، فهؤلاء يعاملون بالمثل ، ويرد على عدوانهم ومكابرتهم بطريقتهم نفسها ، فيقاتلون ويردعون بالحرب ، وهؤلاء ـ كما قال مجاهد وسعيد بن جبير ـ هم الذين نصبوا للمؤمنين الحرب ، فجداهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وهذا هو العلاج الحاسم كما قال الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف للعلا مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

أما القسم الأول من الآية ، فقال قتادة وآخرون : هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. واحتجوا بأن الآية مكية. والحق كما قال مجاهد وآخرون أن هذه الآية باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم ـ من أهل الكتاب ـ في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ، ويدعى إلى الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له ، وينبه على حججه وآياته ، رجاء إجابته إلى الإيمان ، بغير إغلاظ ولا مخاشنة ، كما قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥] وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٤٤]. واختار هذا القول ابن جرير الطبري.

وأما القسم الثاني من الآية فلا خوف في محاربته لعدوانه ، فيقاتل بما يمنعه ويردعه ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ ، وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ، وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٥٧ / ٢٥].

أسلوب الجدال :

١ . ﴿**وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ أي إذا دعوتم أيها الرسول وأتباعه أهل الكتاب إلى الإيمان برسالة الإسلام ، وأخبروكم عما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فلا تصدقوهم ؛ لأنه قد يكون كذبا أو باطلا ، ولا تكذبوهم لأنه قد يكون حقا أو صحيحا ، وإنما قولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وإليكم وإلى البشر كافة ، وآمنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم أي نؤمن بالمنزّل فعلا على موسى وعيسى عليهما السلام ، غير المبدّل ولا المؤول ، ومعبودنا ومعبودكم الحق واحد لا شريك له ، ونحن له خاضعون مطيعون أمره ونهيه.

أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا ، وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون».

وأخرج الإمام أحمد أن أبا نملة الأنصاري [١] أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم ، قال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : «إذا حدثكم أهل الكتاب ، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم».

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم يهدوكم وقد ضلّوا ، إما أن تكذّبوا بحق ، وإما أن تصدقوا بباطل».

---

(١) أبو نملة : هو عمارة ، أو عمار ، أو عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصاري رضي الله عنه .

وأخرج البخاري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : «إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك ، لنبلو عليه الكذب».

٢ . ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ﴾ أي كما أنزلنا الكتب على من قبلك من الرسل أيها الرسول ، أنزلنا إليك هذا الكتاب (القرآن) فالذين آتيناهم الكتاب السابق من اليهود والنصارى ، إذا أخذوا هذا القرآن ، فتلوه حق تلاوته ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما آمنوا وصدقوا بنزوله من عند الله ، وكذلك بعض كفار قريش وغيرهم يؤمنون به ؛ لأنه ـ كما عرفوا من لغة البيان ـ ليس من كلام البشر ، وإنما هو من كلام الله الموحى به إلى نبيه.

وما يكذّب بآياتنا ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويطمس معالم الهداية والنور ، ويعاند في كفره ويستكبر ، فلا يؤمن بالله وحده ، ولا يشكر نعمة الله عليه. وهذا تنفير عما هم عليه من الشرك والباطل.

٣ . ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي وما كنت أيها الرسول في تاريخك مع قومك تقرأ من قبل نزول القرآن من كتاب آخر ، ولا تعرف الكتابة ولا تستطيع أن تخط شيئا من الكتاب ؛ إذ لو كنت قارئا وكاتبا لشك المشركون الجهلة فيما نزل إليك ، وقالوا : لعل ذلك مأخوذ من كتب سابقة ، ولما لم يكن كاتبا ولا قارئا فلا وجه لارتيابهم. قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخطّ ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية. وقال النحاس : الدليل على نبوة محمد ﷺ لقريش أنه لا يقرأ

ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ، ولم يكن بمكة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك.

وقوله : ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ﴾ لتأكيد النفي ، وكذلك قوله : ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضا ، وذكر اليمين خرج مخرج الغالب ، كقوله تعالى : ﴿وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ﴾ [الأنعام ٦ / ٣٨].

والخلاصة : أن صفة النبي محمد ﷺ في الكتب المتقدمة وتاريخه المعروف بين قومه : أنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٧].

فلا وجه أصلا للشك في أن هذا القرآن نزل من عند الله ، لا بإيحاء بشر ولا ملك ولا جانّ ، وبالرغم من نصاعة هذه الحقيقة ، ومع علم قريش بأن محمدا ﷺ أمي لا يحسن الكتابة ، اتهموه بأخذه عن الكتب المتقدمة ، كما حكى تعالى عنهم : ﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥].

وتأكيدا لما سبق أن القرآن منزل من عند الله ، قال تعالى :

﴿بَلْ ، هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي بل إن هذا القرآن آيات واضحة الدلالة على الحق ، وذلك أمر مستقر في قلوب العلماء من أهل الكتاب وغيرهم ، ولكن ما ينكر وما يكذب بآيات الله النيّرة ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٦ - ٩٧].

والخلاصة : أن هذا القرآن العظيم ليس من مخترعات البشر ، بل هو آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يفهمه العلماء ويحفظونه ، وقد يسر الله عليهم حفظه وتلاوته وتفسيره ، كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ١٧]. وروى البخاري في صحيحة أن النبي ﷺ قال : «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ فضيلة الجدال والنقاش بالأسلوب الحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة ، فذلك أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة ، والوصول إلى الإيمان ، وتحقيق الهدف المقصود.

٢ ـ إن المعاملة بالمثل واللجوء إلى القتال والعنف واستخدام القوة هو السبيل المتعين في الرد على أهل العصبية والعناد والإصرار على الكفر.

٣ ـ إن هذه الآية الآمرة بالجدال بالتي هي أحسن والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالحجة والمنطق والبرهان آية محكمة ، كما قرر أثبات العلماء والمفسرين مثل مجاهد التابعي وغيره ، قال القرطبي : وقول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عَزَّوَجَلَّ لا يقال فيها : إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول [1]. وهذا اختيار ابن جرير الطبري وابن العربي. قال ابن العربي : الآية ليست منسوخة ، وإنما هي مخصوصة ، لأن النبي ﷺ بعث باللسان يقاتل به في الله ، ثم أمره الله بالسيف واللسان ، فمن قاتل قتل ، ومن سالم بقي الجدال في حقه ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٣٥٠

ولكن بما يحسن من الأدلة ، ويجمل من الكلام ، ولين الخطاب [١].

٤ ـ بعض أهل الكتاب معتدلون في آرائهم ومعتقداتهم ، بعيدون عن الشرك وإثبات الولد والتثليث ، وهؤلاء ينفع معهم الجدال والنقاش ، فهم يؤمنون بالله وبكتابهم وباليوم الآخر ، ولم يبق إلا الإيمان بمحمد ﷺ ، كالإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام .

وبعض أهل الكتاب متعصبون حاقدون خلطوا بين التوحيد والتثليث ، وحرفوا في الكتاب وغيروا ، ونسبوا لله ولدا أو شريكا ، ثم صيروه هو الإله ، وهؤلاء يصعب معهم الجدال وقد لا ينفع معهم النقاش ، ومع ذلك ندعوهم إلى الإيمان بالتي هي أحسن ، لأنه لا إكراه في الدين ، والإسلام يقر بحرية الرأي والتعبير والاعتقاد ، بعد التبليغ والإنذار ، والترغيب والترهيب.

أما المشركون عبدة الأوثان ففي جزيرة العرب لا مجال لإقرارهم على وثنيتهم ، وأما في غير جزيرة العرب ، فكذلك ندعوهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥ ـ النبي محمد ﷺ قبل نزول القرآن كان أميا لا يقرأ ولا يكتب بشهادة الكتب السماوية المتقدمة ، وبمعرفة قومه الذين عايشوه في مكة مدة أربعين عاما.

وأمّية النبي ﷺ دليل قاطع واضح على أن القرآن كلام الله العزيز الحكيم.

ثم ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : ما مات النبي ﷺ حتى كتب ، وقرأ. وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي في صلح

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٤٧٥ بتصرف.

الحديبية كتب بيده : محمد بن عبد الله ، ومحا كلمة رسول الله ، حينما أصر المشركون على عدم كتابتها.

قال القرطبي : الصحيح أنه ﷺ ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى. وقال : «إنا أمة أمّية لا نكتب ولا نحسب» رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عمر.

٦ ـ آيات القرآن آيات بيّنات واضحات ، وليس هذا القرآن كما يقول المبطلون : إنه سحر أو شعر ، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وتلك الآيات يحفظها علماء الأمة ويقرءونها ، وقد وصف الله المؤمنين بالعلم ، لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين ، قال كعب الأحبار في صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء ، وهم في الفقه أنبياء.

٧ ـ لا ينكر كون القرآن منزلا حقا من عند الله إلا القوم المبطلون الجاهلون وهم المشركون ، وإلا الكفار الظالمون الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ وما جاء به.

٨ ـ ليس القرآن من مخترعات أحد من الملائكة أو الإنس أو الجن ، إذ لا يستطيع الكل على الإتيان بمثله أو بمثل عشر آيات أو بمثل سورة من أقصر سوره. وهذا الإعجاز المتحدي به دليل قاطع على كونه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ.

بعض مطالب المشركين التعجيزية

الإتيان بمعجزات حسية واستعجال بالعذاب

﴿وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)﴾

البلاغة :

﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ تحضيض.

﴿آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ﴾ طباق.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ لإفادة القصر عليهم لا غيرهم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ﴾ إطناب بذكر العذاب مرات بقصد الإرهاب والتشنيع على المشركين.

﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ أي بهم ، بوضع الظاهر موضع المضمر.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي قال كفار مكة : هلا أنزل على محمد ﴿آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى. ﴿قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ﴾ قل يا محمد لهم : إنما الآيات ينزلها الله كيف يشاء ، ولست أملكها ، فآتيكم بما تقترحونه. ﴿وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ليس من شأني إلا إنذار أهل المعصية بالنار بما أعطيت من الآيات.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية لما طلبوا أو اقترحوا. ﴿الْكِتابَ﴾ القرآن. ﴿يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم ، فهو آية ثابتة مستمرة لا انقضاء لها ، يتحداهم ، بخلاف سائر الآيات. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة. ﴿وَذِكْرى﴾ عظة وتذكرة. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن همهم الإيمان دون التعنت.

﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ يشهد بصدقي. ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ويعلم حالي وحالكم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ﴾ وهو ما يعبد من دون الله. ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ﴾ بقولهم : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢]. ﴿وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ معلوم محدد لكل عذاب أو قوم. ﴿لَجاءَهُمُ الْعَذابُ﴾ عاجلا. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة ، في الدنيا كوقعة بدر ، وفي الآخرة عند نزول الموت بهم. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانه. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب. ﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ﴾ ظرف لكلمة (محيطة) و ﴿يَغْشاهُمُ﴾ يصيبهم. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ الله أو الملك الموكل بالعذاب. ﴿ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه ، فلا تفوتونا.

سبب النزول : نزول الآية (٥١):

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب كتبوها ، فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : «كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» ، فنزلت : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾.

وأخرج البخاري عند تفسير الآية قوله ﷺ : «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن» أي يستغني به عن غيره.

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة ، فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله قط ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيّا ، فسرّي عن رسول الله ﷺ وقال : «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم».

المناسبة :

بعد بيان كون القرآن منزلا من عند الله ، وليس من عند محمد ﷺ ، ذكر الله تعالى شبهة للمشركين وهي أنهم قالوا للنبي ﷺ : إنك تقول : إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، أفلا تأتينا بآية أو معجزة مادية محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى؟ فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿**إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ**﴾ أي ليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، والله إن أراد ينزلها ، وإن لم يرد لا ينزلها ، وكفى بالقرآن آية فهو معجزة ظاهرة باقية ، والله شهيد عليم يحكم بين عباده.

وبعد بيان الطريقين في إرشاد الفريقين : المشركين وأهل الكتاب ، أعلن الله تعالى الإنذار الشامل العام بقوله : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**﴾ ولما أنذروا بالخسران أوضح تعالى أن العذاب لا يأتيهم بسؤالهم أو استعجالهم ، وإنما له أجل مسمى اقتضته حكمته وارتضته رحمته.

التفسير والبيان :

﴿وَقالُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي وقال المشركون تعنتا وتعجيزا وعنادا : هلا أنزل على محمد آية حسية مادية ، مثل الآيات التي أنزلت على الأنبياء المتقدمين ، كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى ، تكون دليلا على صدقه ، ومعجزة تثبت أنه رسول من عند الله!!

فأجابهم الله تعالى بقوله :

﴿قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي قل يا محمد لهم : إنما أمر إنزال الآيات وإرسال المعجزات إلى الله تعالى ، فلو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه سبحانه يعلم أنكم قصدتم بطلبكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى مطلبكم ، كما قال : ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ، فَظَلَمُوا بِها﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٩].

وإنما بعثت نذيرا لكم بيّن الإنذار من عذاب شديد إذا بقيتم على كفركم ، لا الإتيان بما تقترحون ، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى ، وليس علي هداكم ، إنما الهدى على الله الذي قال : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٧] وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٢].

ثم أبان الله تعالى كثرة جهلهم وسخافة عقولهم ، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، مع إنزال القرآن عليه ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ﴾ أي أما يكفيهم دليلا على صدقك أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا

من أهل الكتاب ، وقد جئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ، وأبنت الصواب فيما اختلفوا فيه ، كما قال : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ [طه ٢٠ / ١٣٣].

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ أي قل يا محمد لهم : كفى الله عالما وحكما عدلا بيني وبينكم ، فهو أعلم بما صدر منكم من التكذيب ، وبما أقول لكم وأبلغكم به من أوامر وإنذارات وبما أرسلني به إليكم ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم مني ، كما قال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٤٤ ـ ٤٧] وإنما أنا صادق فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات.

﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية ، يعلم جميع ما هو كائن ويكون في السموات والأرض ، ومن جملة علمه : أنه يعلم حالي وحالكم ، من صدقي وتكذيبكم وإنكاركم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ أي والذين صدقوا بما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام ونحوها ، وجحدوا بوجود الله أو توحيده ، مع توافر الأدلة على الإيمان به ، أولئك هم الخاسرون في صفقتهم ، حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، وسيجزيهم الله يوم القيامة على ما فعلوا ، ويعاقبهم على ما صنعوا من تكذيب برسل الله ، مع قيام الأدلة على صدقهم ، وإنكار للحق ، واتباع للباطل من الإيمان بالطواغيت والأوثان بلا دليل.

وقوله : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ يقتضي الحصر ، أي من أتى بالإيمان الباطل والكفر بالله ، فهو خاسر ، وكل من آمن بالباطل ، فقد كفر بالله.

ثم أخبر الله تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب الله بهم ، فقال :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي ويتعجل كفار قريش نزول العذاب بهم ، كما حكى تعالى عنهم : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

ولو لا كون العذاب محددا بوقت معلوم ، ولو لا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه ، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة ، وهم لا يحسون بمجيئه ، بل يكونون في غفلة عنه.

ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله :

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ أي يطلبون منك حدوث العذاب ، وهو واقع بهم لا محالة ، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب.

ثم وصف تعالى كيفية إحاطة العذاب بقوله :

﴿يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يوم يعمهم العذاب من كل الجوانب ، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من كفر ومعاصي ، كما قال تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف ٧ / ٤١] وقال سبحانه : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٦]

وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٩] وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ طلب المشركون من النبي ﷺ معجزة مادية محسوسة ، مثل عصا موسى وناقة صالح ومائدة عيسى ، على سبيل العناد والمكابرة ، لا على سبيل التوصل بحسن نية إلى الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده.

٢ ـ كان الرد القرآني المفحم عليهم أنه : ألا يكفيهم هذا الكتاب المعجز الذي قد تحداهم الله بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، فعجزوا. ولو أتاهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ، والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وليس من شرط الرسالة وجود المعجزة ، فقد علمنا وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ، ولم تعلم لهم معجزة.

٣ ـ والقرآن رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة ، وفي الآخرة بصرفهم عن النار ، وهو أيضا ذكرى في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ، ومعجزة باقية يتذكر بها كل إنسان على ممر الزمان. فيكون القرآن أتم من كل معجزة ، لأنه باقي الأثر ، والمعجزات المادية لم يبق لها أثر ، ولأنه بلغ خبره المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، والمعجزات المادية محصورة في مكان واحد.

٤ ـ يقال للمكذبين : كفى بالله شهيدا يشهد للنبي ﷺ بالصدق في ادعائه أنه رسول ، وأن هذا القرآن كتابه. وهذا إنذار وتهديد يفيد تقريرا وتأكيدا.

٥ ـ قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء :

احتجاج على المكذبين في صحة شهادة النبي ﷺ عليهم ، لأنهم أقروا بعلم الله الشامل ، فلزمهم أن يقرّوا بشهادته.

٦ ـ إن المشركين أو الكفار الذين يؤمنون بالباطل وهو إبليس أو بعبادة الأوثان والأصنام ، ويكفرون بالله لتكذيبهم برسله ، وجحدهم لكتابه ، وإشراكهم به الأوثان ، وإضافة الأولاد والأضداد إليه ، هم الخاسرون أنفسهم وأعمالهم في الآخرة. وهذا يشمل أهل الكتاب ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولا بأن القرآن منزل من عند الله تعالى ، فدل ذلك على أن الآية إنذار عام شامل.

٧ ـ قال المشركون لفرط الإنكار والإمعان في الكفر : عجل لنا هذا العذاب الذي توعدنا به ، كما قال النضر بن الحارث وأبو جهل فيما أخبر القرآن : ﴿**اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ**﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢] وقالا : ﴿**رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ**﴾ [ص ٣٨ / ١٦].

٨ ـ اقتضت الحكمة الإلهية رحمة بالناس وإعطائهم فرصة كافية للإصلاح والتوبة تأخير العذاب إلى أجل محدد ووقت معين وهو يوم القيامة ، فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ**﴾ [الأنعام ٦ / ٦٧]. وسيأتي العذاب الذي استعجلوه حتما فجأة ، وهم لا يعلمون بنزوله.

٩ ـ إن كفار قريش وأمثالهم يستعجلون نزول العذاب ، وقد أعد الله لهم جهنم ، وأنها ستحيط بهم لا محالة ، فما معنى الاستعجال؟ وإن ذلك العذاب يصيبهم يوم القيامة من جميع جوانبهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم ، ويقال لهم من قبل الملك بأمر الله : ذوقوا ما كنتم تعملون.

الأمر بالهجرة عند تعذر إقامة الشعائر الدينية

﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾

الإعراب :

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً ..﴾ : ﴿غُرَفاً﴾ مفعول به ثان ل ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، أما قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج ٢٢ / ٢٦] فاللام زائدة في ﴿لِإِبْراهِيمَ﴾ و ﴿مَكانَ الْبَيْتِ﴾ : مفعول ثان.

﴿خالِدِينَ فِيها﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ : ﴿كَأَيِّنْ﴾ : في موضع رفع مبتدأ ، بمنزلة (كم) و ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ : تبيين له. و ﴿لا تَحْمِلُ﴾ : في موضع جر ؛ لأنها صفة ﴿دَابَّةٍ﴾.

﴿اللهُ يَرْزُقُها اللهُ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿يَرْزُقُها﴾ خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع ، لأنه خبر ﴿كَأَيِّنْ﴾.

البلاغة :

﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتيسر لكم العبادة في بلدة أو إقامة شعائر الدين ، فهاجروا إلى أي أرض أخرى تتيسر فيها العبادة ، قال ﷺ : «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ، ولو كان شبرا ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام ».

والفاء في قوله :

﴿فَإِيَّايَ﴾ في جواب شرط محذوف ، إذ المعنى : إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض ، فأخلصوها في غيرها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي تناله لا محالة. ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ، ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد لذلك الجزاء. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم ، وقرئ : (لنثوينهم) أي لنقيمنهم ، من الثواء ، أي الإقامة ، وتعدية هذا الفعل إلى كلمة ﴿غُرَفاً﴾ : بحذف ﴿مِنَ﴾ أي تكون منصوبة بنزع الخافض ، أو لأنه أجري مجرى (لننزلنهم).

﴿خالِدِينَ فِيها﴾ ماكثين فيها على الدوام. ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ وقرئ : «فنعم» والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله ، أي نعم هذا الأجر. ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي هم الصابرون على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين وغير ذلك من المحن والمشاق. ﴿وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي ولا يتوكلون إلا على الله ، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون ، لأن الرازق هو الله الذي يهيئ الأسباب للرزق وحده ، فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة.

﴿وَكَأَيِّنْ﴾ أي كم. ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تطيق حمله لضعفها. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٦):

﴿يا عِبادِيَ﴾ : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها. قال مقاتل والكلبي : هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، أي في قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة.

نزول الآية (٦٠):

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ : عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ، ولا من يسقينا ، فنزلت الآية : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة.

المناسبة :

بعد إنذار المشركين وأهل الكتاب بالخسران وجعلهم من أهل النار ، اشتد عنادهم وزاد فسادهم ، وكثر أذاهم للمؤمنين ، ومنعوهم من العبادة ، فأمرهم الله تعالى بالهجرة إلى بلاد أخرى ، إن تعذرت عليهم العبادة في بلادهم ، مما يدل على أن المقام في دار الحرب حرام ، والخروج منها واجب. وأبان تعالى أن توقع المكروه لا يمنع من الهجرة ، فالمكروه إن لم يحدث بالهجرة ، وقع بالموت في أي مكان ، كما أبان أنه سبحانه تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته حيثما كانوا.

التفسير والبيان :

﴿**يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ ، فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ أي أيها العباد المصدقون بي وبرسولي محمد ﷺ ، إن أرضي واسعة غير ضيقة ، يمكنكم المقام فيها في أي موضع ، فإذا تعذرت عليكم العبادة وإقامة شعائر الدين بسبب منع الكفار وأذاهم ، فهاجروا إلى المكان الذي تتمكنون فيه من إقامة الشعائر الدينية. وبالرغم من أن كلمة ﴿**عِبادِيَ**﴾ لا تتناول إلا المؤمنين ، فقد أتبعت بوصف ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ لا للتمييز ، بل لمجرد بيان اشتمالهم على هذا الوصف.

فهذا أمر للمؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ، وهو حثّ على إخلاص العبادة لله تعالى.

والمقصود من الهجرة : إعداد المؤمن الكامل المخلص الذي يبيع نفسه وماله ووطنه في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة قبل الفتح ، ثم زال وجوبها.

أخرج الإمام أحمد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيرا فأقم».

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم فيها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين لدى أصحمة النجاشي ملك الحبشة ﵀ تعالى ، فآواهم وأيدهم بنصره ، ثم هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة المنورة.

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بالحرص على العبادة والإخلاص فيها وصدق الاهتمام بها ، أبان أن الدنيا ليست بدار بقاء ، وأمر بالاستعداد إلى دار الجزاء ، فقال :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ أي إن الموت كائن لا محالة بكل نفس ، وأينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بدّ منه ولا محيد عنه ، سواء في الوطن أو خارجه ، ثم إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم الثواب.

والخلاصة : أن المكروه لا بد من وقوعه ، فلا يصح أن يصعب على المؤمنين ترك الأوطان ومفارقة الإخوان.

ثم بيّن الله تعالى نوع جزاء المؤمن المهاجر بدينه ، فرارا من الشرك والمعاصي فقال :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا صالح الأعمال من التزام أوامر الله واجتناب نواهيه ، لننزلنهم أو لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحت أشجارها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن ، ماكثين فيها أبدا ، لا يبغون عنها حولا ، جزاء لهم على أعمالهم ، نعم الجزاء ، ونعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين.

وهذا الجزاء في مقابل جزاء الكافرين السابق ذكره : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ﴾ فكما أن للكافرين النيران ، يكون للمؤمنين الجنان أجر عملهم.

ومن صفات هؤلاء العاملين :

الصبر والتوكل :

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إن أولئك المؤمنين الذين صبروا على القيام بواجبات دينهم من صلاة وصيام وهجرة في سبيل الله ، وجهاد الأعداء ، ومفارقة الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ، وتحمل أذى المشركين ، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ، فقاموا بما يجب عليهم ، ثم تركوا أمر تحقيق النتائج إلى ربهم ، من نصر ونجاح ورزق وعزة وغير ذلك.

وذكر صفتي الصبر والتوكل هنا مناسب للمقام ، فإن الهجرة والجهاد وترك الأوطان ومفارقة الإخوان تتطلب الصبر على تحمل الأذى ، والمواظبة على عبادة الله تعالى والتوكل عليه.

ثم ذكر الله تعالى ما يعين على التوكل وهو معرفة أن الله هو الكافي في رزق مخلوقاته فقال:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين وجدوا ، فكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها ، ولا تستطيع جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ، الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره لها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ويكفيه ، سواء كان في باطن الأرض ، أو طيرا في الهواء ، أو حوتا في الماء ، والله هو السميع لأقوال عباده ، العليم بضمائرهم وأسرارهم وما في قلوبهم.

وقد أنجز الله وعده ، فكانت أرزاق المهاجرين في المدينة أكثر وأوسع وأطيب ، وصاروا بعد زمن قصير حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿**وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ**﴾ [ود ١١ / ٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مطلوبة واجبة حال وجود أذى الكفار وتعذر إقامة شعائر الدين ، فعلى المسلم أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده ، فإن كان في حال مضايقة من إظهار الإيمان في أرض ، فهاجر إلى أرض أخرى ، فإن أرض الله واسعة ، لإظهار التوحيد بها. وهذا كان مناسبا للمؤمنين في صدر الإسلام حيث هاجروا من مكة مهد الشرك والوثنية إلى المدينة الطيبة المطهرة ، ثم ارتفع الوجوب ولم تعد الهجرة واجبة بعد فتح مكة ، وإنما بقيت الهجرة بمعنى هجر السوء وترك ما نهى الله عنه.

والآية نزلت في الهجرة قبل الفتح ، لا في الهجرة مطلقا في كل زمان ومن أي بلد ، ولكن بعمومها تعد مستندا للقول بوجوب الهجرة على الدوام عند الإمكان إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.

٢ ـ رغّب الله في الهجرة السابقة من مكة إلى المدينة بتحقير أمر الدنيا ومخاوفها وبيان أن البشر كلهم ميتون ومحشورون إلى الله ، وما عليهم إلا المبادرة إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل.

٣ ـ وعد الله المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي ينالونه وهو دخول الجنان التي تجري من تحتها الأنهار وإسكانهم المنازل العالية.

روى مسلم في صحيحة عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراؤون الكوكب الدرّيّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين».

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله؟ قال : هي لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلّى الله بالليل والناس نيام».

٤ ـ من أهم صفات المؤمنين الذين يستحقون الجنان : الصبر على الأذى وعلى مشاق التكاليف الشرعية ، والتوكل على الله ، فهما صفتان يدلان على العلم بالله تعالى ، وهما صفتان مناسبتان أيضا للهجرة والجهاد موضوع الآيات.

٥ ـ بدد الله سبحانه مخاوف المهاجرين ومخاطر المغتربين ، فأبان أن الموت حتمي في أجل مسمى ، فلا يزيد العمر ولا ينقص ، سواء أكان الشخص مقيما في موطنه ، أم مسافرا مغتربا بعيدا عن بلده ، كما قال سبحانه : ﴿**أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾ [النساء ٤ / ٧٨].

وأبان أيضا أن الرزق مكفول ومقسوم منه تعالى ، كما قال تعالى : ﴿**وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات ٥١ / ٢٢] ومن رحمته سبحانه أنه ييسر الرزق رغدا لكل دابة كل يوم ، رغم ضعفها ، وأنها لا تدخر شيئا لغد ، سواء أكانت الدابة في جوف الأرض أم في ظاهرها أم في أعماق المياه ، أم في أعالي الفضاء.

والله تعالى سميع لعباده إذا طلبوا منه الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتوا ، لا تخفى عليه حاجتهم ولا مقدار حاجتهم.

اعتراف المشركين بالإله الخالق الرازق المحيي

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

البلاغة :

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ اللام : لام القسم ، والسؤال للكفار من أهل مكة وأمثالهم. ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك. ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسع لمن يشاء امتحانا. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق لمن يشاء ابتلاء. ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم ، ومنها محل البسط والتضييق.

﴿نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً .. لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ هذا اعتراف منهم بأن الله الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ، فكيف يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك من هذه الضلالة ، وعلى تصديقك وإظهار حجتك عليهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ تناقضهم في ذلك ، إنهم يتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ، ثم يشركون به الصنم.

المناسبة :

بعد بيان أمر المشركين ومطالبهم التعجيزية وسوء أعمالهم ، ثم مخاطبة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿**يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ ذكر تعالى ما يكون إرشادا للمشرك إذا فكر وتأمل ، بأسلوب أدبي رفيع تضمن نصح المفسد أولا ، ثم مخاطبة الرشيد ، ليسمع المفسد ، على طريقة: (إياك أعني واسمعي يا جارة) ، وكأن المتكلم يقول : إن هذا لا يستحق الخطاب ، فاسمع أنت ، ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح ، وزجر المفسد ، ودعوته إلى سبيل الرشاد ، وهو الإقرار بوحدانية مبدع العالم ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، ورازق المخلوقات ، ومحيي الأرض بعد موتها.

التفسير والبيان :

﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ أي والله لئن سألت يا محمد المشركين بالله : من الذي أوجد وأبدع السموات وما فيها من الكواكب النيّرات ، والأرض وما حوته من كنوز ومعادن ، وذلّل الشمس والقمر يجريان لمصالح الخلق ، وأدى ذلك إلى تعاقب الليل والنهار ، لو سألتهم لأجابوا بأن المستقل بالخلق والإيجاد هو الله عَزَّوَجَلَّ .

وإذ أقروا بذلك واعترفوا ، فكيف يصرفون عن توحيد الله وإخلاص العبادة له؟! فإن الاعتراف بأن الله هو الخالق يمنع المشركين من عبادة إله آخر سواه ، أو اتخاذ شريك معه ، والاعتراف بتوحيد الربوبية الصادر من المشركين بقولهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك» يقتضي الإقرار بتوحيد الألوهية ، وكثيرا ما يذكر الله تعالى توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية.

وبعد الاعتراف بالخلق ، ذكر تعالى ما هو سبب لدوام الحياة ، وبقاء المخلوقات وهو الرزق ، فقال :

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله يوسع الرزق لمن يريد من عباده امتحانا له ، ويضيق أو يقتّر على من يريد ابتلاء واختبارا ، فالله هو الخالق الرازق لعباده ، يقسم وحده الأرزاق على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة ، لأن الله عليم بكل شيء من المفاسد والمصالح ، ومقتضيات سعة الرزق وتضييقه ، فيمنح ويمنع ، بما هو الأصلح وما هو خير لعباده في الحالين ، ويحصل التفاوت بين الناس في الأرزاق ، ويكون هناك الغني والفقير ، والله هو العليم بما يصلح كلّا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٨] وقال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ، لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٧].

ثم ذكر تعالى سبب الرزق وهو إنزال الماء ، فقال :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ، لَيَقُولُنَّ : اللهُ﴾ أي ومن الحقائق الثابتة أنك لو سألتهم أيضا عمن ينزل المطر من السحاب ، فيحيي به الأرض الجدباء الهامدة التي لا حركة فيها بالنبات الأخضر ، لأجابوك بأنه هو الله المبدع الموجد لكل المخلوقات ، ثم يتعجب الإنسان من إشراكهم بعد ذلك بعض مخلوقاته.

﴿قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على ثبوت الحجة عليهم ، واعترافهم بأن الله مصدر جميع النعم ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التناقض الحاصل منهم ، فتراهم يقولون بأن الخالق الموجد المحيي الرازق هو الله ، ثم يقولون بألوهية غير الله ، فيخالف فعلهم أقوالهم

وإقراراتهم ، ويعبدون مع الله إلها آخر سواه ليست له مقومات الألوهية ، ولا يدركون ما فيه الخير والمصلحة ودفع الضر عنهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ يقر المشركون بأمرين أساسيين :

أولهما ـ أن الله هو الخالق المبدع المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار.

وثانيهما ـ أن الله هو الخالق الرازق لعباده ، المحيي الأرض بالماء النازل من السحاب ، فتصبح الأرض مخضرة بعد جدبها وقحط أهلها.

٢ ـ ثم في مجال الأفعال ترى المشركين متناقضين مع أنفسهم ، فهم يقرون بوجود الله ، ثم يشركون معه إلها آخر من مخلوقاته.

٣ ـ وإذا اعترفتم بأن الله خالق كل الأشياء في السماء والأرض ، فكيف تشكّون في الرزق؟ فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العباد ، وكيف تكفرون بتوحيد الله ، وتتحولون عن إخلاص العبادة لله؟

وإذا أقررتم بأن الله يحيي الأرض الجدبة ، فلم تشركون به وتنكرون الإعادة؟ ومن قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين.

٤ ـ لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير من الله ، فلا تعيير بالفقر ، فكل شيء بقضاء وقدر ، والله عليم بكل شيء من أحوال العباد وأمورهم ، وبما يصلحهم من إقتار أو توسيع.

٥ ـ يستحق الله الحمد على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته وعلى

إقرار المشركين بوجود الله ، ولكن أكثر المشركين لا يتدبرون هذه الحجج ، ولا يعون ما فيه النفع والمصلحة الحقيقية.

بيان حال الدنيا واضطراب أوضاع الكفار فيها

﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾

الإعراب :

﴿لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾ يجوز في هاء ﴿لَهِيَ﴾ الكسر والتسكين ، فمن كسر أتى به على الأصل ، ومن سكن حذف الكسرة تخفيفا ، كما قالوا في كتف وكتف. والحيوان : أصله «الحييان» بياءين ، إلا أنه لما اجتمعت ياءان متحركتان ، استثقلوا اجتماعهما ، فأبدلوا من الياء الثانية واوا كراهية لاجتماع ياءين متحركتين ، وكان قلب الثانية أولى من الأولى ؛ لأن الثانية هي التي حصل التكرار بها.

﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرئ بكسر اللام وسكونها ، وهي لام الأمر ومعناه التهديد ، فمن قرأ بالكسر فعلى الأصل ، ومن سكّن فعلى التخفيف ، كما قالوا في «كتف كتف».

البلاغة :

﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تشبيه بليغ أي كاللهو واللعب ، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

﴿حَرَماً آمِناً﴾ مجاز عقلي ، أي آمنا أهله.

﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ إيجاز بحذف جواب الشرط ، أي لو علموا لما آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿يَعْلَمُونَ يُشْرِكُونَ يَكْفُرُونَ﴾ فيها مراعاة الفواصل ، ذات الإيقاع والتأثير على السمع.

المفردات اللغوية :

﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ إشارة تهوين وتحقير ، لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. ﴿لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي كلهو الصبيان ولعبهم ، يبتهجون ساعة ثم يتفرقون متعبين ، وأما الطاعات والقرب فمن أمور الآخرة ، لظهور ثمرتها فيها. واللهو : الاستمتاع بالملذات ، واللعب : هو العبث وما لا فائدة فيها. ﴿لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية التامة التي لا فناء فيها. ﴿لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ تلك الحقيقة ما آثروا الدنيا عليها.

﴿الْفُلْكِ﴾ السفينة السائرة في البحر. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الدعاء ، أي لا يدعون معه غيره ، لأنهم في شدة لا يكشفها إلا الله ، فيظهرون في صورة من أخلص دينه من المؤمنين ، فلا يذكرون إلا الله ، ولا يدعون سواه. ﴿إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك.

﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ اللام فيه لام «كي» أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة وكذلك اللام في : ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها ، أي قاصدين التمتع بها والتلذذ ، لا غير ، أي أن هذه اللام لام التعليل في تقدير الله ، ولام العاقبة بالنسبة إليهم. ويصح أن تكون اللام في الفعلين المذكورين لام الأمر ، وهو أمر تهديد ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ، يعني أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾ أي جعلنا بلدهم مكة مصونا من النهب والتعدي ، آمنا أهله من القتل والسبي. ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يختلسون قتلا وسبيا ، وهم في أمان. ﴿أَفَبِالْباطِلِ﴾ أي بعد هذه النعمة الواضحة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره. وتقديم الجار والمجرور في قوله ﴿فَبِالْباطِلِ﴾ و ﴿بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد. ﴿مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بأن زعم أن له شريكا. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ﴾ أي كذب بالنبي الرسول ﷺ أو القرآن. وقوله ﴿لَمَّا﴾ فيه تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ، ولم يتأملوا قط حين جاءهم ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً﴾ مأوى ، والاستفهام تقرير لثوائهم ، أي ألا يستوجبون الثواء في جهنم ، وقد افتروا مثل هذا

الكذب على الله وكذبوا بالحق!! ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾ أي في حقنا ، والجهاد يعم أنواع الجهاد الظاهرة والباطنة لكل الأعداء. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ طريق السير إلينا أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها. ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المؤمنين بالنصر والعون.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٧):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ..﴾ أخرج جويبر عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا ، والأعراب أكثر منا ، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا ، فكنا أكلة رأس ، فأنزل الله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾.

المناسبة :

بعد بيان كون المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي ، وهم مع ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء حرصا على زينة الحياة الدنيا ومكاسبها المادية ، أوضح الله تعالى أن ما يميلون إليه وهو الدنيا ليس بشيء ، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الحقة التامة التي تستحق الحرص عليها والعمل من أجلها ، فلو كان عندهم شيء من العلم ما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

ثم أبان الله تعالى أحوال تخبطهم وتناقضهم ، فهم مع شركهم بربهم في الدعاء والعبادة إذا تعرضوا لمحنة أو شدة ، رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ، ولجؤوا إلى الله وحده ، وأخلصوا له النية والدعاء لتخليصهم من الشدة ، وتلك نعمة عظمي.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمة أخرى تتناسب مع حال الخوف الشديد ، وهي حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة بلدهم ومولدهم ومسكنهم البلد الآمن الحرام ، بتحصين الله أمنها ، ودفع الشرور عن سكانها ، لكنهم نفعيون متناقضون

جاحدون النعمة في الحالتين : نعمة النجاة ونعمة الأمن في بلدهم ، فاستحقوا اللوم والتعنيف ، إذ أنهم في أخوف ما كانوا ، يدعون الله ، وفي آمن ما حصلوا عليه من الأمن السكني ، يكفرون بالله ، فكيف يكفرون بالله حين الأمن. ويؤمنون به حال الخوف؟!

التفسير والبيان :

﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يقارن الله تعالى بين الدنيا والآخرة ، ويخبر بأن الحياة الدنيا حقيرة زائلة لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو يتلهى به ، ولعب يتسلى به ، وأما الآخرة فهي دار الحياة الدائمة التي لا تزول ولا تنقضي ، بل هي مستمرة أبد الآباد ، فلو علموا ذلك لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

والفرق بين اللهو واللعب : أن اللعب إقبال على الباطل ، واللهو : إعراض عن الحق. وليس المراد بالحيوان : الشيء النامي المدرك ، وإنما الحيوان مصدر حي كالحياة ، لكن فيها مبالغة ليست في الحياة.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المشركين حين الترفع عن الدنيا ووقت التعرض للمحنة والشدة ، فيقول :

﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي إن المشركين عند الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائما؟! فتراهم إذا ركبوا في السفينة ، وأحدق بهم الغرق ، دعوا الله وحده ، مفردين إياه بالطاعة ، مخلصين له النية ، صادقين في اتجاههم إلى الله ، فإذا تحقق لهم الأمن والنجاة من الهلاك ، عادوا إلى شركهم ، ودعوا الآلهة المزعومة كافرين بنعمة النجاة.

ونحو الاية قوله تعالى : ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧] وهذا دليل على أن معرفة الله في فطرة كل إنسان.

ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، ذهب فارّا منها ، فلما ركب في البحر ، ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجي هاهنا إلا هو ، فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي في البر أيضا غيره ، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبنّ ، فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنّه رؤفا رحيما ، فكان كذلك».

﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ اللام لام العاقبة أو الصيرورة ، أي يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفر بنعمة النجاة ، والتمتع بالاجتماع على عبادة الأصنام ، وعقد الروابط بسببها ، ولكنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم هذا ، وسيجازون الجزاء الوفاق على أعمالهم. وهذا وصف لسوء ما يترتب على شركهم ، وتهديد ووعيد على بقائهم على كفرهم.

ويصح أن تكون اللام لام الأمر ، ويكون المعنى التهديد أي : ليكفروا ، كما قال تعالى : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠] وقال : ﴿اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٣٩] فساد ما تعملون.

ثم وصف الله تعالى تناقض المشركين إذ يلجأون إلى الله وحده مخلصين له الدعاء وقت الشدة ، ويكفرون بالله ويشركون به حين الأمن في بلدهم مكة ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾؟! أي أولم يعلم هؤلاء المشركون ما أنعمنا به عليهم من إسكانهم في بلد حرام آمن وهو مكة ، لا يتعرضون فيه لقتل وسبي

وخطف ، فيشكروا الله على هذه النعمة ، وهذا امتنان على قريش بما أحلهم من حرم الله الآمن ، كما قال سبحانه : ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش ١٠٦ / ٤].

ولكن عجبا لهم أنهم قابلوا الشكر بالكفر ، أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله؟! فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وأن يصدّقوا برسوله ، ويعظموه ويوقروه.

وبعد بيان حالهم العجيبة وتناقضهم ، أبان الله تعالى أنهم قوم أظلم من يكون ، فقل : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ﴾؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله بالشرك وتكذيب كتابه ورسوله وقوله : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء ، أو قوله إذا فعل فاحشة : إن الله أمر بها ، والله لا يأمر بالفحشاء ، ألا يستوجب هؤلاء المشركون من أهل مكة وأمثالهم المقام في جهنم؟

وهذا تسفيه آرائهم وتقريع لهم ، وتبيين سوء مصيرهم ، بطريق الاستفهام التقريري الذي هو أبلغ في إثبات العقاب المنتظر لهم.

وبعد بيان عاقبة الكافرين ، أبان الله تعالى عاقبة المؤمنين فقال :

﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي من جاهد بالطاعة ، ونصر دين الله ، وقاتل أعداء الله المكذبين بكتابه ورسوله ، هداه الله ووفقه إلى طريق الجنة وطريق السعادة والخير في الدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ١٧] وجاء في الحديث الثابت : «من عمل بما علم ، ورّثه الله علم ما لم يعلم».

والله مع المحسنين أعمالهم بالنصرة والإعانة ، والتأييد والحفظ والرعاية والتوفيق ، روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : «إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك».

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ الحياة الدنيا بما فيها من المال والجاه والملبس ملهاة وملعب ، أو شيء يلهى به ويلعب ، وليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول ، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

٢ ـ ما يعمل في الدنيا لله من القرب والطاعات هو من الآخرة ، وهو الذي يبقى ، كما قال تعالى : ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٧] أي يبقى ما ابتغي به ثواب الله ورضاه.

٣ ـ إن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها ، وهي الحياة الصحيحة ، فلا حياة إلا حياة الآخرة ، وعبّر عنها بالحيوان : وهو الحياة ، لأن فيها مبالغة ليست في الحياة.

٤ ـ المشركون قوم متناقضون ، فتراهم في وقت الشدة المستعصية ، كما إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق ، يدعون الله صادقين في نياتهم ، ويتركون دعاء الأصنام وعبادتها ، فإذا وصلوا إلى بر الأمان دعوا معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا أو حجة ، وما لا حقيقة لألوهيته أصلا ، فهم يشركون في البر ، ولا يشركون في البحر.

٥ ـ إن عاقبة الشرك أو ثمرته أن يجحد المشركون نعم الله ويتمتعوا بالدنيا ،

والله يهددهم ويوعدهم ويقول لهم : اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا.

٦ ـ جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنا : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ [آل عمران ٣ / ٩٧] وتلك نعمة تستحق الشكر والحمد لله والإذعان له بالطاعة ، لا سيما إذا قورنت مكة بما عليه أحوال أهل البلاد الأخرى المجاورة ، حيث يقتل بعضهم بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا ، ويغار بعضهم على بعض.

ولكن المشركين كما تقدم تتناقض أحوالهم ، فهم بالشرك أو بإبليس يؤمنون وبنعمة الله وعطائه وإحسانه يكفرون ويجحدون.

٧ ـ لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكا وولدا ، وإذا فعل فاحشة قال : ﴿وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِها﴾ [الأعراف ٧ / ٢٨] وكذّب بالقرآن أو بتوحيد الله ، وأنكر رسالة محمد ﷺ ، وعاقبتهم الثّواء في نار جهنم.

٨ ـ إن المجاهدين جهادا عاما في دين الله وطلب مرضاته يوفقهم ربهم إلى سبل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا ، لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا» قال الله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٢].

قال ابن عطية في آية : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا﴾ : هي قبل الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته.

وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعظمه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر.

٩ ـ إن الله لمع المحسنين بالنصرة والمعونة ، والحفظ والهداية ، ومع جميع الناس بالإحاطة والقدرة. فتكون فائدة المجاهدين في طاعة الله أمرين : التوفيق للخير والإيمان والسعادة ، والعون والتأييد والحفظ.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة الروم

مكية ، وهي ستون آية.

تسميتها :

سميت سورة الروم لافتتاحها بخبر غلبة الروم ، والإخبار عن نصرهم بعدئذ في بضع سنين ، وتلك إحدى معجزات القرآن العظيم بالإخبار عن المغيبات في المستقبل ووقوع الشيء كما أخبر به.

موضوعها :

هو موضوع سائر السور المكية التي تبحث في أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد وصفات الله تعالى ، والإيمان بالرسالة النبوية ، وبالبعث والجزاء في الآخرة.

مناسبتها لما قبلها :

تتشابه سورة الروم وسورة العنكبوت التي قبلها في المطلع ، فإن كلا منهما افتتح ب ﴿الم﴾ غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن ، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها قرنت بذلك إلا هاتين السورتين وسورة القلم. وقد ذكر في أول هذه السورة ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت هذه الحروف الهجائية لتنبيه السامع والإقبال بقلبه وعقله وروحه على الاستماع.

وهناك تشابه آخر بين السورتين من وجوه ثلاثة :

الأول ـ إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به : ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ وبدئت هذه السورة بوعد المؤمنين بالغلبة والنصر ، وهم يجاهدون في سبيل الله تعالى.

الثاني ـ إن الاستدلال في هذه السورة على أصول الاعتقاد وأهمها التوحيد جاء مفصلا للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [١٩] ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [٢٠].

الثالث ـ ترتب على التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب في السورة المتقدمة أن أبغض المشركون أهل الكتاب ، وتركوا مراجعتهم في الأمور ، وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، وسبب البغضاء أن المشركين في جدالهم نسبوا إلى عدم العقل : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [٦٣] وطلب مجادلة أهل الكتاب بالحسنى ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٤٦] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله ، كما قال تعالى : ﴿وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ﴾ [٤٦].

فلما غلب أهل الكتاب حين قاتلهم الفرس المجوس ، فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى أوائل سورة الروم لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، وإنما قد يريد الله تعالى مزيد ثواب في المحب ، فيبتليه ويسلط عليه الأعادي ، وقد يختار للمعادي تعجيل العذاب الأدنى ، دون العذاب الأكبر يوم القيامة.

مشتملات السورة :

افتتحت السورة بإثبات النبوة بالإخبار بالغيب ، وهو انتصار الروم على الفرس في حرب تقع بينهما في غضون بضع سنوات (من ٣ ـ ٩ سنوات) ووقع الخبر كما أخبر القرآن ، وتلك معجزة القرآن تثبت صدق النبي ﷺ ، وتتضمن البشارة بنصر جند الرحمن على حزب الشيطان.

ثم ذكرت أدلة الوحدانية وعظمة القدرة الإلهية بالتأمل في صفحة الكون والنظر في خلق السموات والأرض ، والاعتبار بمأساة المكذبين الغابرين وعاقبتهم السيئة ، وأردف بعدها أدلة البعث ، والأمر بعبادة الله وحده ، وذلك مقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها.

ونوقش فيها المشركون وضربت لهم الأمثال في أن الشركاء ضعفاء عاجزون لا يملكون لأنفسهم يوم القيامة نفعا ، ولا يتمكنون دفع الضر عن أحد ، ولا يستطيعون خلق شيء وإيجاده ولا إمداد أحد بالرزق. وكشف القرآن حقيقة حال المشركين كما ذكر في السورة المتقدمة وهي لجوءهم إلى الله وقت الضر ، وإشراكهم به وقت الرخاء ، وأميط اللثام عن طبيعة الإنسان وهي الفرح بالنعمة ، والقنوط حين الشدة إلا من آمن وعمل صالحا.

ونهى الله تعالى عن اتباع المشركين وغيرهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أمر تعالى بالتصدق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل ، واجتناب أكل الربا ، وتنمية المال بوجوه الحلال وتطهيره بالزكاة.

ثم قارنت السورة بين مصير المؤمنين في روضات الجنان فضلا من الله تعالى ، ومصير الكافرين في نيران الجحيم جزاء أعمالهم وكفرهم ، وحينئذ تظهر فائدة الإيمان والخير ، وظلام الكفر والشر.

وأعقب ذلك إيراد بعض الأدلة الكونية الناطقة بقدرة الله والدالة على وحدانيته من إرسال الرياح مبشرات بالرحمة ، وتسيير السفن في البحار ، وتمكين المسافرين من التجارة وابتغاء فضل الله في أقطار الأرض ، والدلائل الملحوظة في الأنفس من خلق ثم رزق ، ثم إماتة ، ثم إحياء.

وختمت السورة بتسلية الرسول ﷺ عن إعراض قومه عن الإيمان برسالته بأنهم أغلقوا منافذ الهداية ، وعطلوا طاقات الفكر والعقل عن النظر في وسائل

الوصول إلى الإيمان بالله ، فهم صمّ عمي لا يسمعون ولا يبصرون ، وأنهم مهما رأوا من الآيات ، وشاهدوا من البراهين والمعجزات ، لن يؤمنوا بسبب العناد ، والتشبث بمواقع الكفر ، والحفاظ على مراكز الزعامة والنفوذ بين العرب.

وهذا يقتضي الصبر على أذى المشركين حتى يأتي النصر ، ومتابعة القيام بواجب تبليغ الرسالة ، فإنه قد يهتدي بعضهم أو غيرهم ، وسيكون النصر في جانب الرسول ﷺ ، والخذلان لمن كذب به ، ولن يؤثر في مسيرة دعوته كفر الذين لا يوقنون بالبعث بعد الممات.

الإخبار بالغيب في المستقبل

﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ غلب : مصدر مضاف إلى المفعول ، وتقديره : وهم من بعد أن غلبوا سيغلبون.

﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ ظرف مبني على الضم ؛ لأنه مقطوع عن الإضافة ، لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة ، فلما اقتطع عن الإضافة ، نزّل منزلة بعض الكلمة ، وبعض الكلمة مبني. والبناء على الضم تعويضا عن المحذوف ، لأنه أقوى الحركات ، ولئلا تلتبس حركة الإعراب بحركة البناء ، فلو بني على الفتح أو الكسر ، لالتبست حركة الإعراب بحركة البناء.

﴿بِنَصْرِ اللهِ﴾ في موضع نصب ، متعلق ب ﴿يَفْرَحُ﴾.

﴿وَعْدَ اللهِ﴾ منصوب على المصدر المؤكد لما قبله ، والمصدر مضاف إلى الفاعل.

البلاغة :

﴿غُلِبَتِ﴾ و ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ بينهما طباق ، وكذا بين ﴿قَبْلُ﴾ و ﴿بَعْدُ﴾.

﴿لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظاهِراً﴾ بينهما طباق السلب.

﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ صيغة مبالغة ، أي البالغ نهاية العزة وغاية الرحمة.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ تكرار الضمير لإفادة الحصر ، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على استمرار الغفلة.

المفردات اللغوية :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الروم : أمة ذات مدنية وحضارة وقوة ، من ولد روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، كانوا نصارى ، غلبتهم فارس الذين كانوا يعبدون الأوثان ، ففرح كفار مكة بذلك ، وقالوا للمسلمين : نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة ، وأقرب مكان إلى أرض العرب من جهة الشام ، فيها التقى الجيشان ، وكان الفرس هم البادئين بالغزو ﴿وَهُمْ﴾ الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أضيف المصدر إلى المفعول ، أي غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ البضع : ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى العشر ، وقد تم لقاء الجيشين فعلا في السنة السابعة من اللقاء الأول ، وغلبت الروم فارس ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي من قبل غلب الروم ومن بعده ، والمعنى أن غلبة الفرس أولا وغلبة الروم ثانيا تم بأمر الله ، أي إرادته ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم تغلب الروم.

﴿بِنَصْرِ اللهِ﴾ أي نصر أهل الكتاب على من لا كتاب له ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ الواسع الرحمة بالمؤمنين ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد للفعل ، أي وعدهم الله النصر ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ كفار مكة ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ وعده تعالى بنصرهم لجهلهم وعدم تفكيرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي ما يشاهدونه منها من المعايش في التجارة والزراعة والبناء والغرس وغير ذلك. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ أي أنهم غافلون عن الغاية والمقصود من الحياة ، لا تخطر ببالهم ، وإعادة ﴿هُمْ﴾ تأكيد.

سبب النزول :

أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت ﴿الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب الزهري قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين ، وهم بمكة ، قبل أن يخرج رسول الله ﷺ ، فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم ، فكيف غلب المجوس الروم ، وهم أهل كتاب؟! فسنغلبكم كما غلب فارس الروم ، فأنزل الله : ﴿الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

وأخرج الترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي : أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذرعات وبصرى من أرض الشام ، فغلبوا عليهم ، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه وهو بمكة ، فشق ذلك عليهم ، من قبل أن الفرس مجوس ، والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون بمكة وشمتوا ، ولقوا أصحاب النبي ﷺ وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات.

فخرج أبو بكر رضي الله عنه إلى المشركين ، فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا ، ولا يقرّنّ الله أعينكم [١] ، فو الله لتظهرنّ الروم على فارس ، كما أخبرنا بذلك نبينا ﷺ ، فقام إليه أبيّ بن خلف ؛ فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه [٢] على عشر قلائص [٣] مني ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ،

---

(١) لا يسرّنكم.

(٢) أراهنك.

(٣) جمع قلوص وهي الناقة الشابة الفتية.

وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال ﷺ : «زايده في الخطر [١] وماده في الأجل» فخرج أبو بكر ، فلقي أبيا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك في الخطر ، وأمادّك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فلما أراد أبو بكر الهجرة ، طلب منه أبي كفيلا بالخطر إن غلب ، فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبيّ الخروج إلى أحد ، طلبه عبد الرحمن بالكفيل ، فأعطاه كفيلا ، ومات أبيّ من جرح جرحه إياه النبي ﷺ في الموقعة ، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي ، وجاء به إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : «تصدّق به». وقد كان هذا قبل تحريم القمار ، لأن السورة مكية ، وتحريم الخمر والميسر بالمدينة. واستدل به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب.

والآية من دلائل النبوة ، لأنها إخبار عن الغيب.

التفسير والبيان :

﴿الم﴾ هذه الحروف المقطعة التي تقرأ هكذا : «ألف ، لام ، ميم» للتنبيه على إعجاز القرآن ، كما تقدم في أمثالها ، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقى إليه بعدها.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي غلبت فارس قوم الروم في أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب في مشارف الشام ، بين الأردن وفلسطين ، وسيغلب الروم فارس في بضع سنين (ما بين الثلاث إلى العشر من السنين) من تاريخ الوقعة الأولى ، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

---

(١) الخطر : السبق الذي يتراهن عليه أي الرهن الذي يخاطر عليه.

وهذا إخبار بالغيب عن أمر في المستقبل ، أيده الواقع ، وقد نزلت الآيات كما بينا حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل. فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢ م ببضع سنين في سنة ٦٢٧ م أحرز هرقل أول نصر حاسم للروم على الفرس في نينوى على نهر دجلة ، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينية ، ولقي كسرى أبرويز مصرعه سنة ٦٢٨ م على يد ولده (شيرويه).

ولقد كانت هاتان الدولتان مسيطرتين على العالم القديم : فارس في الشرق ، والروم في الغرب ، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وغيرها.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي الأمر كله من قبل الغلبة ومن بعدها ، فتغلب إحدى الدولتين على الأخرى بقضاء الله وقدره ، فهو يقضي في خلقه بما يشاء : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٤٠] فليس الانتصار دائما عن قوة مادية ذاتية ، وإنما القوة إحدى وسائل النصر ، والمعول في النهاية إرادة الله وقدرته ، فقد يتغلب الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ٢ / ٢٤٩].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾ أي ويوم ينتصر الروم النصارى أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى الوثنيين المجوس ، يفرح المؤمنون بنصر الله أهل الدين والكتاب على من لا دين له ولا كتاب.

﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي ينصر الله من يريد على الأعداء ، فهو الفعال لما يريد ، وهو القوي الذي لا يغلب ، المنتقم من أعدائه ،

المعزّ أولياءه بقوته وقدرته ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فلا يدع القوي يتحكم بالضعيف ، ولا يعاجل بالانتقام على الذنوب ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥].

روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال جماعة آخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية. والمهم أنه لما انتصرت الروم على الفرس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا : إِنَّا نَصارى ..﴾ الآية [المائدة ٥ / ٨٢].

﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد حق من الله ، وخبر صدق ، والله لا يخلف الميعاد ، ولا بد من وقوعه ، لأن سنة الله أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحكم الله وأفعاله القائمة على العدل ، لجهلهم بالسنن القائمة في الكون.

﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ أي أكثر الناس لهم علم ظاهري بالدنيا وعلومها المادية كتدبير شؤون المعيشة ، وتحصيل الأموال والمكاسب من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها ، ولكنهم غافلون عن أمور الدين والآخرة ، كأنهم عديمو الفكر والنظر ، لا ينظرون إلى المستقبل

وما ينتظرهم من نعيم مقيم إن آمنوا وعملوا الصالحات ، أو عذاب مهين إن كفروا وعصوا أوامر ربهم ، فلا يعملون أبدا لما ينفعهم في الآخرة ، وعلمهم منحصر في الدنيا ، بل لا يعلمون الدنيا على حقيقتها ، وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ، فهم عن الآخرة غافلون.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إثبات صدق النبي ﷺ في دعواه النبوة والرسالة ، وإعلام قاطع بأن القرآن كلام الله الذي يعلم وحده الغيب في السموات والأرض. وتلك معجزة واضحة بالإخبار عن مغيبات المستقبل ، وقد وقع الأمر كما أخبر القرآن الكريم.

٢ ـ الله تعالى متفرد بالقدرة الشاملة النافذة ، فكل ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه ، وبإرادته وقدرته ، فلله الأمر ، أي إنفاذ الأحكام سواء قبل هذه الغلبة وبعدها ، والله دائما هو القوي العزيز في نقمته ، الرحيم لأهل طاعته.

٣ ـ يبشر الله تعالى المؤمنين بنصر أهل الكتاب المتعاطفين مع المسلمين ، لاجتماعهم على الإيمان بالإله والإيمان باليوم الآخر ، على الفرس المجوس الوثنيين الذين لا يؤمنون بشيء من الكتب السماوية ، ولا بالله تعالى ولا بالآخرة.

٤ ـ وعد الله لا يخلف ؛ لأن كلامه حق وصدق ، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون وعده ، ولا أنه لا خلف في وعده.

٥ ـ إن أكثر الناس لا سيما الكفار عاملون بظواهر الأمور الدنيوية من اكتساب الأموال والمعايش ومعرفة شؤون الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم المادية ، ولكنهم غافلون عن العلم بالآخرة وعن العمل بها.

قال الزمخشري : أفاد قوله تعالى ﴿**يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا**﴾ أن

للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها : ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها ؛ وباطنها وحقيقتها : أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة [١].

الحث على التفكر في المخلوقات الدالة

على وجود الله ووحدانيته

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)﴾

الإعراب :

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ .. ما﴾ : حرف نفي ، و ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾ قد عدّي إلى ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ كما عدّي في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٥].

﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا .. عاقِبَةَ﴾ : خبر ﴿كانَ﴾ ، و ﴿السُّواى﴾ اسمها ، ومن قرأ عاقبة بالرفع ، فهي اسم ﴿كانَ﴾ ، و ﴿السُّواى﴾ : خبر كان. و ﴿السُّواى﴾ على وزن «فعلى» تأنيث للاستواء ، كالحسنى تأنيث الأحسن. و ﴿أَنْ

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٠٣

﴿كَذَّبُوا﴾ مفعول لأجله ، أي لأن كذبوا ، ويجوز كونه في موضع رفع ، لأنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو أن كذبوا ، أو بدل من ﴿السُّواى﴾ رفعا ونصبا. و ﴿السُّواى﴾ منصوب بأساؤوا انتصاب المصادر ، لأنه مصدر.

البلاغة :

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ إنكار وتوبيخ.

﴿أَساؤُا السُّواى﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أولم يحدثوا التفكر فيها ، أو : أولم يتفكروا في أمر أنفسهم ، فإنها أقرب إليهم من غيرها ، فبالتفكر يرجعون عن غفلتهم ﴿ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ما خَلَقَ﴾ متعلق بقول محذوف معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول ، وقيل : معناه : فيعلموا ؛ لأن في الكلام دليلا عليه. ومعنى قوله : ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معناه : ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من الانتهاء إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ مثل كفار مكة ﴿بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ﴾ أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، أي جاحدون يحسبون أن الدنيا بداية وأن الآخرة لا تكون.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ حض على السير في أقطار الأرض ، والنظر في آثار المدمرين من قبلهم من الأمم ، وهي إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم ﴿كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وثمود ﴿وَأَثارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزرع والغرس ﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ أي عمروا الأرض أكثر من عمارة أهل مكة إياها ، فإنهم أهل واد غير ذي زرع. وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالا فيها ﴿وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ بالمعجزات ، والآيات الواضحات ، والحجج الظاهرات ﴿فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليفعل بهم ما يفعل بالظلمة ، فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير ﴿وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عملوا ما أدّى إلى تدميرهم.

﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى﴾ أي ثم كان عاقبتهم العقوبة السوأى ، والمراد بها جهنم ، والسوأى : تأنيث الأسوأ أي الأقبح ، أو مصدر كبشرى ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ﴾ أي كانت إساءتهم بأن كذبوا بالقرآن.

المناسبة :

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها ، تتضمن تهديد المشركين وحثهم على التفكر والنظر في المخلوقات الدالة على وجود الله وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ، ولا ربّ سواه ، بعد بيان ما صدر منهم من إنكار الإله بإنكار وعده ، وإنكار البعث ، كما قال تعالى : ﴿**وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ**﴾.

التفسير والبيان :

﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ أي أولم يحدثوا التفكر في عقولهم ، أو يفكروا في أمر أنفسهم بأن يجيلوا فيه الفكر ، فيقولوا : إن الله لم يخلق الكون من السماء والأرض وما فيهما من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات الكثيرة المتنوعة والأجناس المختلفة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا عبثا ولا باطلا ، بل كان خلقها مقرونا بالحق ، مصحوبا بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ، فإذا حل الأجل بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لحساب الله الواحد القهار.

وهذا حثّ لهم على إعمال الفكر السليم الموصل إلى معرفة الله ووحدانيته بالنظر في أنفسهم وما حولهم من مشاهد الكون ، والمراد أن أسباب العلم الصحيح ومفاتيح الهداية تعتمد على العقل وأنه متوافر لديهم ، لكنهم عطلوه ولم يعملوه فيما يجب إعماله.

﴿**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ**﴾ أي وإن أكثر الناس ولا سيما الكفار لجاحدون منكرون وجود البعث والحساب ؛ لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم ، ولو تفكروا لأيقنوا بمعادهم إلى ربّهم بعد الموت.

ثم نبّه الله تعالى على صدق رسله فيما جاؤوا به عن ربهم بما أيّدهم به من

المعجزات الباهرات ، والدلائل الواضحات المحسوسات من إهلاك من كفر برسالتهم ، ونجاة من صدّقهم فقال :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثارُوا الْأَرْضَ ، وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أولم يتنقل هؤلاء المنكرون للنبوات ، المكذبون بالآخرة في بلاد الأرض ، فينظروا بعقولهم وأفهامهم ، ويبحثوا في آثار الله ، ويسمعوا أخبار الماضين ويتأملوا بمصير المكذبين رسلهم من الأمم الماضية ، علما بأنهم كانوا أشدّ قوة من أهل مكة وأمثالهم ، وأكثر أموالا وأولادا ، وحرثوا الأرض وقلبوها للزراعة والغرس أكثر مما فعل المكيون وسائر العرب لقحط بلادهم ، واستغلوا الأرض أكثر من استغلال هؤلاء.

ثم أهلكهم الله بذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات والأدلة المحسوسة والشواهد الناطقة بقدرة الله وتوحيده ، فما كان عقابهم ظلما ، وما كان من شأن الله أن يظلمهم وغيرهم فيما حلّ بهم من العذاب والنكال ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها وذنوبهم السالفة.

فالعاقل من اتّعظ بغيره ، وعرف أن زخارف الدنيا ومتاعها من أموال وأولاد لا تغني عنه شيئا يوم القيامة ، وقد أكد الله تعالى ذلك بقوله :

﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ ، وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي ثم كان مصير المسيئين العذاب ﴿السُّواى﴾ في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، واستهزائهم بها وسخريتهم منها. فقوله ﴿أَساؤُا السُّواى﴾ معناه : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون. والإساءة : التكذيب والاستهزاء ، وعبر عن العقاب بالجريمة الصادرة من الكفار ، على سبيل المشاكلة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الحثّ على التفكر في الكون وإيجابه ، فإن التأمل في خلق السموات والأرض والأنفس البشرية المخلوقة لحكمة ومصلحة وعدل ، والمؤقتة بأجل مسمى تنتهي إليه ، دليل على وجود الخالق وتوحيده وقدرته وعلى حدوث الحشر ، فقوله : ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ يدل على الوحدانية لأن إحكام الخلق والتنزه عن الفساد يمنع من تعدد الآلهة ، ففي وجود آلهة فساد وخلل وتعثر ، وقوله : ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ دليل على الحشر ؛ لأنه يدل على فناء العالم وتخريب الكون ، وبما أن الله تعالى قادر على كل شيء فهو قادر على الإعادة ؛ ولأن الخلق بالحق يوجب أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية ؛ لأن هذه الحياة ليست إلا لعبا ولهوا ، كما أخبر القرآن.

٢ ـ دلّ قوله : ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة على حدوث الفناء في نهاية عمر الدنيا ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء.

٣ ـ كثير من الناس كافرون بالبعث بعد الموت ، وهذا نقص في التفكير ، وقلة في العقل ، فالعاقل من فكر بالمستقبل ، وعمل لما بعد الموت ، ولم تغره الحياة الدنيا.

٤ ـ التبصر بعبر الماضي درس وعظة ، فمن سمع بأخبار الأمم الماضية المكذبة رسلها ، وأدرك مصيرهم ، وعرف سبب هلاكهم وتدميرهم ، بادر إلى الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ، وصدّق رسله الذين جاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم.

٥ ـ الاعتماد على قوة الجسد وسعة المال ، ووفرة الثروة والأولاد خطأ محض ، فإن كل الأموال والمدنيات وتقدم الحضارات لا تغني أصحابها شيئا يوم القيامة.

٦ ـ لقد كان إهلاك الأمم الماضية الجاحدة بربها ورسله وأنبيائه حقا وعدلا ، ولم يكن الهلاك بغير ذنب ولا بغير سابق إنذار بالرسل والحجج ، وإنما كان بظلمهم أنفسهم بالشرك والعصيان ، والتكذيب بآيات الله الدالة على وجوده وتفرده بالألوهية ، وتكذيب القرآن والرسول ومعجزاته ، واستهزائهم بها.

إثبات الإعادة والحشر وبيان ما يكون وقت الرجوع إلى الله

﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾

البلاغة :

﴿يَبْدَؤُا﴾ و ﴿يُعِيدُهُ﴾ بينهما طباق.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ بين الجملتين مقابلة بين حال السعداء والأشقياء.

﴿تُرْجَعُونَ يَتَفَرَّقُونَ يُحْبَرُونَ مُحْضَرُونَ﴾ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير ، وذلك له وقع وتأثير على السمع.

المفردات اللغوية :

﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ ينشئ خلق الناس ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يبعث الناس ويخلقهم مرة أخرى بعد موتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يسكت المشركون متحيرين آيسين لانقطاع حجتهم ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته ، والمبلس : الساكت المنقطع الحجة ، اليائس من الاهتداء إليها ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعاءُ﴾ أي لا يكون ممن أشركوهم بالله وهم الأصنام شفعاء يجيرونهم من عذاب الله. وجاء التعبير بمعنى الماضي لتحققه ﴿وَكانُوا﴾ أي يكونون ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كافِرِينَ﴾ أي متبرئين منهم ، يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تأكيد لقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾. ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي يتفرق المؤمنون والكافرون. ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ بستان أو أرض ذات أزهار وأنهار ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرّون سرورا تهللت له وجوههم ﴿بِآياتِنا﴾ القرآن ﴿وَلِقاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون فيه لا يغيبون عنه.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أن عاقبة المجرمين إلى الجحيم ، وذلك إشارة إلى الإعادة والحشر ، أقام الأدلة عليه بأن من بدأ خلق الناس بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة. ثم بيّن ما يكون وقت الرجوع إليه ، وأخبر أن الناس حينئذ فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير.

التفسير والبيان :

﴿اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي أن الله كما هو قادر على بداءته وإنشائه ، فهو قادر على إعادته ، فالله هو الذي بدأ إنشاء الخلق بقدرته وإرادته ، فلا يعجز عن رجعته ، ثم إليه يعودون يوم القيامة ويحشرون للقضاء بينهم ، فيجازي كل عامل بعلمه ، ثم وصف حال الأشقياء بقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة للفصل بين الناس والحساب ، يسكت المجرمون الذين أشركوا بالله وتنقطع عنهم الحجة من شدة الأهوال ، وييأسون ولا يجدون طريقا للخلاص ، ولا أملا في النجاة من طريق غيرهم ، كما قال:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ ، وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ﴾ أي ولن يجدوا لهم شفعاء من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ينقذونهم من عذاب الله ، وكانوا بشركائهم وآلهتهم المزعومة جاحدين ، متبرئين منهم ، إذ خانوهم في أحوج ما كانوا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً ، فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا﴾ [البقرة ٢ / ١٦٦ . ١٦٧].

وهذا دليل على تبين إفلاسهم وإعلان خسرانهم.

ثم يتميز أهل المحشر إلى فريقين ، فقال تعالى :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة يتفرق الناس فرقة لا اجتماع بعدها ، كما قال تعالى : ﴿وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٥٩] فيؤخذ أهل الإيمان والسعادة إلى الجنان ، ويؤخذ أهل الكفر والشقاوة إلى النيران. قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، لهذا قال تعالى :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي فأما المؤمنون المصدّقون بالله ورسوله واليوم الآخر ، والعاملون بما أمر الله به ، والمنتهون عما نهى الله عنه ، فهم يتنعمون ويسرّون سرورا يملأ القلب والنفس ويظهر البشاشة بما لاحظوا به من روضات الجنان ذات البهجة والخضرة والأنهار الجارية ، أي فهم في جنة يسرون بكل مسرة ، كما قال : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٧] ، وقال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر».

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكافرون الجاحدون بوجود الله ووحدانيته ، المكذبون رسله

وآياته ، المنكرون وقوع البعث بعد الموت ، فهم مخلدون في عذاب جهنم ، لا غيبة لهم عنه أبدا ، ولا فتور له عنهم إطلاقا ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ ، أُعِيدُوا فِيها﴾ [الحج ٢٢ / ٢٢] وقال : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧٤ ـ ٧٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ الله هو منشئ الخلق ، ومعيده بقدرته ، وإليه المرجع والمآب.

٢ ـ لا يجد المشركون والكفار يوم القيامة حجة لهم يدافعون بها عن شركهم وكفرهم ، فتنقطع حجتهم ، ويأسون من الاهتداء إليها ، كذلك لا يجدون لهم من غيرهم ناصرا ينصرهم ولا شفيعا ينقذهم من عذاب الله ، وحينئذ يقولون عن آلهتهم : إنهم ليسوا بآلهة ، فيتبرءون منها ، وتتبرأ منهم.

٣ ـ يحدث انفصال يوم القيامة بين المؤمنين وبين الكافرين ، فيتميز الطيبون من الخبيثين ، ويقيم المؤمنون في جنان الخلد ذات الرياض الغناء والأنهار الجارية ، فيغمرهم الحبور والسرور ، وينعّمون ويكرمون ، ويقيم الكافرون في عذاب جهنم إقامة دائمة أبدية ، فلا يفارقونها ، ولا يخفف عنهم فيها شيء من العذاب.

٤ ـ لا بد مع الإيمان من العمل الصالح ، وهو الائتمار بأمر الله ، واجتناب ما نهى عنه ؛ لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ، ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح. وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره. وهذا هو السبب في ذكر العمل الصالح مع الإيمان ، وعدم ذكر العمل السيئ مع الكفر.

تنزيه الله تعالى وحمده في جميع الأحوال

﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾

البلاغة :

﴿تُمْسُونَ﴾ و ﴿تُصْبِحُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ استعارة ، استعار الحي للمؤمن ، والميت للكافر.

المفردات اللغوية :

﴿فَسُبْحانَ اللهِ﴾ سبحان : هو التسبيح ، أي التنزيه ، وهو إخبار في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه ، أي سبحوا الله بمعنى صلوا في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ تدخلون في المساء ، وفيه صلاتان : المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح ، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح ؛ لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أوضح وأبين.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراض ، ومعناه : يحمده أهلها ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وفيه صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون في الظهيرة ، وفيه صلاة الظهر. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس : ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء و ﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر و ﴿عَشِيًّا﴾ صلاة العصر و ﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال أكثر المفسرين : يخرج الدجاجة من البيضة ، والإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة ، ويخرج البيضة من الطائر ، والنطفة من الإنسان ، وقال بعضهم : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي يحييها بالنبات بعد يبسها ﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور

وتبعثون. والمعنى أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة القادر على إخراج الأشياء من أضدادها ، بإخراج الميت من الحي ، وإخراج الحي من الميت ، وإحياء الميت ، وإماتة الحي. وقرئ : تخرجون.

المناسبة :

بعد بيان عظمة الله تعالى وقدرته في خلق السموات والأرض حين ابتداء العالم ، وعظمته حين قيام الساعة (القيامة) حال انتهاء العالم ، وافتراق الناس فريقين : فريق الجنة وفريق النار ، أمر الله تعالى بتنزيهه عن كل سوء وعما لا يليق به ، وبحمده على كل حال ؛ لأنه المتفرد بإحياء الميت وإماتة الحي ، وإحياء الأرض بعد موتها ، كإحياء الناس من قبورهم للبعث ، وهذا في وقت الصباح يشبه حال انتقال الإنسان من النوم الذي هو الموتة الصغرى إلى اليقظة التي هي الحياة.

التفسير والبيان :

﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أي سبحوا الله تعالى ونزهوه وصلّوا له في جميع أوقات النهار والليل ، حين ابتداء المساء ، وحين طلوع الصباح. وهذا إرشاد من الله تعالى لعباده بتسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء : وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح : وهو إسفار النهار بضيائه ، وفي المساء صلاتا المغرب والعشاء ، وفي وقت الصباح صلاة الفجر. وقدم الإمساء على الإصباح هنا ؛ لأن الليل يتقدم النهار.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي والله تعالى هو المحمود من جميع أهل السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس. وهذا اعتراض بحمده مناسب للتسبيح وهو التحميد.

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي وسبحوه ونزهوه أيضا وقت العشي أو العشاء : وهو شدة الظلام ، وفي وسط النهار وقت الظهيرة.

قال الماوردي : الفرق بين المساء والعشاء : أن المساء : بدوّ الظلام بعد المغيب ، والعشاء : آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب.

ويلاحظ أن تخصيص هذه الأوقات بالتسبيح إنما هو بسبب وجود معالم الانتقال المحسوس من حال إلى حال ، ومن زمن إلى زمن ، يشمل جميع أجزاء اليوم ، بدءا من الصبح أو النهار وقوة الضياء ، إلى الظهر حين تتحول الشمس من جهة المشرق إلى المغرب ، إلى العصر حين يبدأ أفول النهار وقدوم العشي ، إلى المغرب بدء الظلام ، إلى العشاء في شدة الظلام. والمعنى : نزهوا الله عن صفات النقص ، وصفوه بصفات الكمال في جميع هذه الأوقات المتعاقبة ؛ لأن أفضل الأعمال أدومها.

وفي هذا إشارة إلى أصول الإيمان الموجبة للظفر بروضات الجنان ، فبعد أن أبان الله تعالى أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل صالحا في قوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أعلمنا أن الإيمان تنزيه بالجنان ، وتوحيد باللسان ، وأن العمل الصالح القيام بجميع الأركان ، وكل ذلك تسبيح (تنزيه) وتحميد ، يوصل إلى الحبور (السرور والتنعم) في رياض الجنان.

وقد تكرر في القرآن لفت النظر إلى الإضاءة والإظلام ، وأن الله فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿وَالنَّهارِ إذا جَلَّاها ، وَاللَّيْلِ إذا يَغْشاها﴾ [الشمس ٩١ / ٣ ـ ٤] ، وقال : ﴿وَاللَّيْلِ إذا يَغْشى ، وَالنَّهارِ إذا تَجَلَّى﴾ [الليل ٩٢ / ١ ـ ٢] ، وقال : ﴿وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إذا سَجى﴾ [الضحى ٩٣ / ١ ـ ٢].

ثم ذكر الله تعالى بعض مظاهر قدرته وعظمته الموجبة للتنزيه والتحميد ، فقال :

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ﴾ أي أن الله تعالى هو القادر على خلق الأشياء المتقابلة ، فهو يخرج أولا الإنسان الحي من التراب الميت ، ثم من النطفة ، والطائر من البيضة ، كما يفعل ضدّ هذا ، فيخرج النطفة من الإنسان ، والبيضة من الطائر ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، واليقظان من النائم ، والنائم من اليقظان.

وأما كون النطفة كائنا حيّا فلا تعرفه العرب ، ولم يكن التقدم العلمي واضح المعالم في هذا لديهم.

وهذا دليل على كمال القدرة الإلهية وبديع الصنع وعظمة الإله.

﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي والله تعالى يحيي الأرض بالمطر ، فيخرج النبات من الحب ، والحب من النبات ، كما قال : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها ، وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس ٣٦ / ٢٣ ـ ٢٤] ، وقال سبحانه : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٥].

﴿وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور أحياء بعد أن كنتم أمواتا ، وذلك على الله يسير.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وجوب تنزيه الله تعالى عن جميع صفات النقص ، ووصفه بجميع صفات

الكمال ، في جميع الأوقات المتعاقبة ، وقرن التسبيح بالتحميد على نعم الله وآلائه ، والصلوات المفروضة الخمس بعض مظاهر التسبيح والتحميد لاشتمالها على ذلك. وقد استدل ابن عباس كما تقدم بهذه الآيات على بيان عدد الصلوات الخمس في القرآن.

وذلك دليل على الإيمان ، وعلى فضل التسبيح والتحميد ، قال ﷺ : «من قال حين يصبح : ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ..﴾ الآية ، أدرك ما فاته في ليلته ، ومن قال حين يمسي ، أدرك ما فاته في يومه». وقال ﷺ : «من سرّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : ﴿فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية».

٢ ـ يتجلى كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ويثبت وجوده بتفرده بالخلق والإيجاد ، والإعدام ، والإحياء والإماتة ، فهو سبحانه يخلق الأشياء المتقابلة أو المتضادة بعضها من بعض ، فهو يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها أو ييسها ، وكما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحيي الناس بالبعث.

قال القرطبي : وفي هذا دليل على صحة القياس. أي أنه قاس إحياء الموتى من القبور على إحياء الأرض الميتة بالمطر الذي ينبت النبات الأخضر الزاهي.

بعض أدلة الوحدانية والقدرة والحشر

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ

آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾

الإعراب :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ .. أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ : في موضع رفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبلها خبرها ، وتقديره : وخلقكم من تراب من آياته.

﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ فيه محذوف مقدر تقديره : ومن آياته آية يريكم البرق فيها ، فحذف الموصوف وأقيم الصفة مقامه. ومن النحويين من يجعل تقديره : ومن آياته أن يريكم البرق ، كالآيتين المتقدمتين : ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ﴾.

﴿دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف ، إما صفة للنكرة أي دعاكم دعوة كائنة من الأرض ، أو في موضع الحال من الكاف والميم في ﴿دَعاكُمْ﴾. ولا يجوز أن يتعلق ب ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لأن ما بعد ﴿إِذا﴾ لا يعمل فيما قبلها.

البلاغة :

﴿خَوْفاً﴾ و ﴿طَمَعاً يَبْدَؤُا﴾ و ﴿يُعِيدُهُ﴾ بين كلّ منهما طباق.

﴿دَعاكُمْ دَعْوَةً﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿وَمِنْ آياتِهِ﴾ آيات الله تعالى الدالة على قدرته. ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ أي خلق أصلكم

آدم من تراب. ﴿ثُمَّ إِذا﴾ هي للمفاجاة. ﴿أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ بَشَرٌ﴾ من دم ولحم تنتشرون في الأرض ، تبتغون من فضل الله. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ بأن خلق حواء من ضلع آدم ، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء ، أو المعنى : أنهن خلقن من جنس الرجال ، لا من جنس آخر. ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ، فإن اتحاد الجنس علة للضم والاجتماع ، والاختلاف سبب للتنافر. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس مودة ورحمة بواسطة الزواج ، بخلاف سائر الحيوانات ، تنظيما لأمر المعيشة ، قال السّدّي : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لآيات دالة على قدرة الله ، لقوم يتفكرون في صنع الله تعالى ، فيعلمون ما في ذلك من الحكم.

﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم من عربية وغير عربية. ﴿وَأَلْوانِكُمْ﴾ من بياض وسواد وغيرهما ، وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ، أو اختلاف في تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وجمالها ، بحيث وقع التمايز والتعارف. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى لذوي العقول وأولي العلم ، لا تكاد تخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن ، كما قال تعالى : ﴿وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٤٣].

﴿مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ منامكم في زماني الليل والنهار ، لاستراحة الجسد والنفس والفكر. ﴿وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي طلبكم المعاش في الليل والنهار. ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم وتدبر واستبصار واعتبار. ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ﴾ أي إراءتكم بتقدير. (أن) كقول الشاعر :

ألا أيّهـــذا الزاجـــري أحضـــر الـــوغى وأن أشـــهد اللـــذات هـــل أنـــت مخلـــدي

أو الفعل فيه منزل منزلة المصدر ، مثل : «تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه» أو صفة لمحذوف تقديره : آية يريكم بها البرق.

﴿الْبَرْقَ﴾ شرارة كهربائية تظهر في الجو نتيجة احتكاك السحب ، وينشأ عنها الرعد. ﴿خَوْفاً﴾ للمسافر من الصواعق. ﴿وَطَمَعاً﴾ في الغيث للمقيم. ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ بعد يبسها ، وإحياؤها يكون بالإنبات. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لدلالات على قدرته تعالى لقوم يتدبرون ، يستعملون عقولهم في كيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإقامته لهما وإرادته قيامهما في موقعهما المعين من غير مقيم محسوس وجعل السماء من غير عمد ترونها. ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة ، فيقول : أيتها الموتى اخرجوا ، أو بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من القبور. ﴿إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي تخرجون من القبور أحياء. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا

وعبيدا. ﴿قانِتُونَ﴾ مطيعون منقادون لفعله فيهما ، لا يمتنعون عليه. ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ خلق الناس. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد هلاكهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي الإعادة أسهل عليه من البدء ، بالنظر إلى مفهوم المخاطبين أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه ، وإلا فهما عند الله تعالى سواء في السهولة. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى﴾ أي الصفة العليا ، وهي أنه لا إله إلّا الله ، أي الوصف بالوحدانية الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه في السموات والأرض ، يتصف به دلالة ونطقا. أو له الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر في ملكه الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال في خلقه على مقتضى حكمته.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٧):

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى ، فنزلت : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

المناسبة :

بعد بيان الأمر بتنزيه الله تعالى عن جميع النقائص ، واستحقاقه الحمد على خلق جميع الأشياء ، وبيان قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا أدلة التوحيد والوجود والعظمة وكمال القدرة ، والحجج المثبتة للبعث والإعادة ، مبتدئا بدليل خلق الإنسان من تراب ثم بقاء النوع الإنساني بالتوالد ، ثم خلق السموات والأرض ومشاهد الكون ، واختلاف ألوان البشر ولغاتهم ، ومنامهم بالليل واكتسابهم بالنهار ، وتلك أوصاف تعرض للنفوس ، ثم عوارض الكون من البرق والمطر والإنبات ، ثم خضوع السماء والأرض لإرادته وإذعان الأموات لدعوته بالخروج أحياء من القبور ، وأعقب كل ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق ، من تقرير كمال القدرة على بدء الخلق وإعادته واتصافه بالصفة العليا وهي الوحدانية وجميع الصفات الباهرة كالقدرة التامة والحكمة الشاملة.

التفسير والبيان :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أي ومن آياته تعالى الدالة على عظمته وكمال قدرته على الخلق والإيجاد والإعدام والإفناء بدء خلق الإنسان ، فخلق أباكم في الأصل من تراب ، وجعل مصدر غذائكم من لحوم الحيوان والنبات من التراب ، ثم بعد إنشائكم تعمرون الأرض وتتوزعون فيها لأغراض مختلفة من بناء المدائن والحصون ، وزراعة الحقول ، والاتّجار بالسفر في البلاد المختلفة لتحصيل الأرزاق ، وكسب المعايش ، وجمع الأموال ، مع اختلاف المواهب والعقول والأفكار ، والغنى والفقر ، والسعادة والتعاسة.

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك».

ثم ذكر الله تعالى طريق بقاء النوع الإنساني فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ومن آياته الدالة على قدرته ورحمته أن خلق النساء لكم من جنس الرجال ، وجعل بدء خلق المرأة من جسد الرجل ، ليتحقق الوفاق ويكتمل الأنس ، وجعل بين الجنسين المودة أي المحبة ، والرحمة أي الشفقة ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة ، وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتم نظام ، ويتم السكن والاطمئنان والراحة والهدوء ، فإن الرجل يمسك المرأة ويتعلق بها إما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما وغير ذلك.

إن في ذلك الخلق والإيجاد الأصلي من التراب ، وجعل الأزواج من أنفس

الرجال ، وتقوية الروابط بينهما بالمودة والمحبة والرحمة والرأفة لدلالة على الخالق الموجد والنعم المتفضل لمن تأمل وفكر في أسباب الحياة ، وتحقيق النتائج ، وبناء الروابط على وفق الحكمة والمصلحة ، والنظام البديع.

فأبونا من تراب ، وذريته من ماء ، والماء من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء من النبات وخواص الأرض وكنوزها ، ثم جعل الرابطة الزوجية بين الجنسين من تكوين واحد ، وطباع واحدة ، وغرائز متحدة ، ليتحقق السكن إلى المرأة ، ويتوافر الميل إليها ، ويحدث الهدوء النفسي معها ؛ فإن النفس ميالة إلى ما يلائمها ، وينسجم معها في الأغراض ، نافرة مما يناقضها ويعاكسها في الجملة.

وقوله : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ يفسره قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٩].

ثم ذكر الله تعالى أدلة أخرى على وجوده وربوبيته وتوحيده وقدرته من الكون العظيم وعظمة تكوين الإنسان ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ﴾ أي ومن آياته تعالى الدالة على قدرته العظيمة ووجوده : خلقه السموات المرتفعة بدون عمد ، المزينة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض بطبقاتها المترعة بالكنوز والمعادن والخيرات ، المثبّتة بالجبال ، المشتملة على الوديان والقفار ، والبحار ، والحيوان ، والأشجار.

ولم يكن ذلك الكون فارغا من المخلوقات ، وإنما أوجد فيه الأنس بالناس ذوي الجنسيات المتعددة ، واللغات المختلفة ، والألوان المتنوعة ، والأصوات المتميزة ، والسمات والهيئات والتقاطيع المتفاوتة كاختلاف البصمات وغير ذلك من حسن وجمال ، وقبح وتفاوت بالرغم من كونهم من أصل واحد وأب واحد وأم واحدة. قال الله تعالى : ﴿بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ [القيامة ٧٥ / ٤].

إن في ذلك المذكور لآيات دالة على تمام القدرة الإلهية لقوم ذوي عقول نافذة ، وأفكار مبصرة ، وعلوم نافعة تهديهم إلى الحق ، وترشدهم إلى التفكير في المخلوقات ، وتبين لهم أنها خلقت لحكمة بالغة ، ومصلحة راقية ، لا عبثا ولا فسادا.

﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي ومن علامات قدرته ورحمته تعالى التمكين من الراحة من التعب ، والهدوء والاستقرار بالليل ، والحركة والسعي للرزق والنشاط المتتابع في النهار ، إن في ذلك المذكور لدلالات وعبرا لقوم يسمعون سماع اتعاظ وتدبر ، ووعي وتفهم للحجج ، يؤدي بهم إلى القناعة والاعتقاد الجازم بأن الله قادر على بعث العالم وإعادته.

ثم ذكر الله تعالى أدلة من عوارض الأكوان وتقلبات الحياة ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي ومن آياته الدالة أيضا على عظمة قدرته إراءتكم البرق ، خوفا للمسافر وغيره من الصواعق المتلفة ، وطمعا فيما تحبون من المطر المحتاج إليه لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، كما قال : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ [الروم ٣٠ / ٢٤] ، أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٥].

إن في ذلك المذكور من الإحياء بعد الموت لبرهانا ساطعا دالا على البعث والمعاد وقيام الساعة ، فإن الذي أحيا الأرض قادر على إحياء الموتى ، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ

﴿إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ومن أدلة قدرته ووجوده تعالى قيام السماء بلا عمد ، والأرض الكروية الدائرية القائمة في الفضاء بلا وتد ، بل بإقامته وتدبيره وإحكامه وتصرفه ، كما قال: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ [الرعد ١٣ / ٢] ، وقال : ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج ٢٢ / ٦٥] ، وقال : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ [فاطر ٣٥ / ٤١].

ثم إنه تعالى يحفظ نظام هذا العالم حتى ينتهي أجل الدنيا ، فإذا دعاكم الداعي حينئذ للخروج من قبوركم أحياء خرجتم ، كما قال : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج ٧٠ / ٤٣] ، وقال : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٢] ، وقال : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩ / ١٣ ـ ١٤] ، وقال : ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٥٣].

والنتيجة الحتمية هي :

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ أي ولله جميع من في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا وتصريفا ، وهم جميعا خاضعون خاشعون لما يريد الله من موت أو حياة ، وحركة أو سكون ، طوعا أو كرها. روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى النبيﷺ قال: «كلّ قنوت في القرآن فهو الطاعة».

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي والله تعالى هو الذي بدأ خلق الإنسان من غير أصل سابق له ، ثم يميته ويفنيه ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أيسر وأسهل عليه ، بحسب تصور البشر المخاطبين وإدراكهم أن

الإعادة أسهل من البدء ، وكل ما ذكر كان تقريبا لعقول الكفرة الجهلة منكري البعث ، وإلا فالبدء والإعادة سواء في قدرة الله تعالى ، فأهون بمعنى : هيّن ؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء.

أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : كذّبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ [البقرة ٢ / ١١٦ ومواضع أخرى] ، وأنا الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ٣ ـ ٤]».

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وله الصفة العليا الكاملة وهي تفرده بالوحدانية ، أي أنه لا إله إلا الله ، ولا ربّ غيره ، واتصافه بكل صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع صفات النقصان ، وليس كمثله شيء ، فلا ندّ ولا شبيه ولا نظير له ، وهو القوي في ملكه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ، خلق فسوّى ، وقدّر فهدى ، يجري كل شيء في الوجود على وفق علمه وإرادته ، ومقتضى حكمته ، ونطق كل موجود بأنه الخالق الواحد القادر القاهر فوق عباده ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه.

فقه الحياة أو الأحكام :

في الآيات ستة أدلة على ربوبية الله تعالى ووحدانيته ونتيجة مقررة لها وهي :

١ ـ الدليل الأول :

خلق أصل الإنسان من تراب ، والفرع كالأصل. وقد خلق الله تعالى

الإنسان أولا ، لا أنه خلقه حيوانا ثم جعله إنسانا ، ثم زوده بعد الخلق بطاقات الإدراك والمعرفة والعلم والعقل ، فأصبح هناك عقلاء ناطقون يتصرفون في قوام معايشهم ، لم يخلقهم عبثا ، وإنما لحكمة ورسالة معينة ، ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح.

والتعبير بقوله : ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ إشارة بقوله ﴿بَشَرٌ﴾ إلى القوة المدركة المغايرة للحيوان ، وبقوله ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ إشارة إلى القوة المحركة ، وكلاهما من التراب عجيب. وقد خصّ الله تعالى بالذكر عنصري التراب والماء ، مع أن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار ؛ لأن الحاجة إلى الهواء والنار تكون بعد امتزاج الماء بالتراب ، ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء [١].

٢ . الدليل الثاني :

بقاء النوع الإنساني بالتوالد : دلّ قوله تعالى ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ على أن الله خلق حواء من جسم آدم كما قال بعضهم ، والصحيح كما قال الرازي : أن المراد منه من جنسكم ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٨] ، ويدل عليه قوله : ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾ أي أن السكن والألفة والاطمئنان لا تتحقق إلا بين متحدي الجنس [٢]. وأحاط الله تعالى رباط الزوجية بما يكفل دوامه واستمراره ، فجعل النساء موضع سكون قلبي واطمئنان للرجال ، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة أي محبة وشفقة ، كما قال السدّي ، وروي معناه عن ابن عباس قال : المودّة : حبّ الرجل امرأته ، والرحمة : رحمته إياها أن يصيبها بسوء.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ١٠٨ . ١١٠

(٢) تفسير الرازي : ٢٥ / ١١٠

والخلاصة : أن الله تعالى حافظ على النوع الإنساني بأمرين : كون الزوج من جنس الرجل ، وما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه ، فالجنسية توجب السكون ، وأحاط السكون بأمرين : المودة والرحمة ، والمودة تكون أولا ثم إنها تفضي إلى الرحمة ؛ لأن الإنسان يجد بين القرينين الزوجين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام ، وليس ذلك بمجرد الشهوة ، فإنها قد تنتفي وتزول أو يعصف بها الغضب الكثير الوقوع ، وتبقى الرحمة التي هي من الله تعالى ، وبها يدفع الإنسان المكاره عن حرمه.

٣ . الدليل الثالث :

دلائل الآفاق والأنفس : وأهمها خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الكلام واللغات العديدة في العالم من عربية وغيرها ، واختلاف الألوان من البياض والسواد والحمرة ، واختلاف الأصوات والصور ، ومقاطع الجلد وتقاسيم الوجه وغير ذلك ، فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر ، وليست هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ، فلا بدّ من فاعل ، ولا فاعل إلا الله تعالى. وهذا من أدلّ الأدلة على وجود المدبر البارئ.

٤ . الدليل الرابع والخامس :

العرضيات الطارئة للإنسان : وهي النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار ، وإظهار البرق والرعد تخويفا من الصواعق ، وطمعا في إنزال الغيث النافع ، وإنزال المطر فعلا من السحاب لإحياء الزرع والشجر وإنبات النبات وتغذية منابع الماء ومصادر الثروة المائية.

٥ . الدليل السادس :

إقامة السماء والأرض وإمساكهما بقدرته وتدبيره وحكمته ، فيمسك تعالى السماء بغير عمد لمنافع الخلق ، كيلا تسقط على الناس ، ويحفظ الأرض الدائرة

المتحركة بأهلها من غير وتد ، وفي حال من التوازن ، دون تعارض ولا تصادم بينها وبين بقية الكواكب الثابتة والسيارة ، حتى ينتهي أجل الدنيا ، وحينئذ يحدث البعث ، فإن الذي خلق هذه الأشياء قادر على أن يبعث المخلوقات من قبورهم ، والمراد من قوله : ﴿ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا انتظار ، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه.

٦ ـ النتيجة المقررة لما سبق من إثبات الوحدانية التي هي الأصل الأول ، وإثبات القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر : أن لله جميع من في السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا وتصرفا ، كلّ له طائعون طاعة انقياد ، وأن الله تعالى هو مبدئ الخلق وهو معيده مرة أخرى ، كما قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج ٨٥ / ١٣] ، والإعادة أمر هيّن على الله ، والبدء والإعادة سواء في قدرة الله تعالى.

وإذ ثبتت القدرة العظمى لله في كل شيء ، وثبتت الوحدانية ، فلله الصفة العليا في السموات والأرض : وهي أنه لا إله إلا هو ولا ربّ غيره ، وتلك صفة الوحدانية ، وأنه متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقصان ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ، وما أراده جلّ وعزّ كان.

دعاء الأرق :

إن النوم بفضل الله وتيسيره كما قال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ وقد روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : «قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حيّ قيوم ، يا حيّ يا قيوم أنم عيني ، وأهدئ ليلي». فالحمد لله الذي جعل راحة الإنسان بفضله وقدرته ، لا بالطبيعة والعادة ، فلو لا إلقاء النوم على الإنسان ليلا أو نهارا ، لما تمكن من متابعة جهده وعمله في النهار.

إثبات الوحدانية من واقع البشر

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ جعل لكم أيها المشركون مثلا كائنا منتزعا من أحوال أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم. والمثل : الصفة الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة. ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ أي من مماليككم وعبيدكم. ﴿مِنْ شُرَكاءَ﴾ لكم. ﴿فِي ما رَزَقْناكُمْ﴾ من الأموال وغيرها. ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ﴾ أي فتكونون أنتم وهم فيه سواء في إمكان التصرف فيه ، يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم.

ومن الأولى : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ للابتداء ، والثانية : ﴿مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ للتبعيض ، والثالثة : ﴿مِنْ شُرَكاءَ﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام المقصود به النفي.

﴿تَخافُونَهُمْ﴾ أي تخافون أن يستقلوا بالتصرف فيه. ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. والمعنى : ليس مماليككم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف تجعلون بعض مماليك الله شركاء له؟!

﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ أي مثل ذلك التفصيل نبين الآيات بالتمثيل الموضح للمعاني. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون ، يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ﴿ظَلَمُوا﴾ بالإشراك. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلين لا يردعهم شيء. ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ أي فمن يقدر على هدايته؟ والمعنى : لا أحد يهديهم. ﴿وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم من آفاتها ، أي : وليس لهم منقذ من قدرة الله.

سبب النزول :

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبّيك اللهم

لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فأنزل الله : ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ﴾.

التفسير والبيان :

من أسلوب القرآن المتميز تصوير المعنويات بصور المحسوسات ، وضرب الأمثال الواقعية تقريبا للأذهان ، وإمعانا في الإقناع ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك.

والقصد من هذا المثل إثبات الوحدانية ، وهدم الشرك والوثنية ، فقال تعالى :

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ ، فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ؟﴾ أي جعل الله لكم مثلا تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ، ومنتزع من أحوالكم ومشاعركم التي تسيطر عليكم ، وقريبة منكم قربا ملازما ، لإثبات وحدانية الله تعالى ، والإقلاع عما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام.

ذلك المثل : هو هل ترضون أن يكون لكم أيها المشركون شركاء في أموالكم؟ وهؤلاء الشركاء هم عبيدكم يساوونكم في التصرف فيها ، وأنتم وهم في المال سواء ، تخافون أن يقاسموكم الأموال؟!

وإذا كنتم تأنفون من ذلك ، ولا ترضونه لأنفسكم ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ، وتجعلون عبيده شركاء له؟!

والمعنى المقصود : أن أحدكم يأنف من ذلك أي بأن يساويه عبده في التصرف

في أمواله ، فكيف تجعلون لله الأنداد الأشباه من خلقه؟!

وهذا كقوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٦٢] أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات لله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر.

﴿كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل والتبيان في إلزام الخصم الحجة القوية ، نفصل الآيات ونوضحها لقوم يستعملون عقولهم ويتأملون فيما يقال لهم ويذكر من الأدلة المنطقية والحجج الإقناعية.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ولكن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم اتبعوا أهواءهم جهلا منهم ، ولم يحكّموا عقولهم ، في عبادتهم الأنداد بغير مستند من عقل أو نقل ، وساروا على غير هدى ولا علم ولا بصيرة.

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ؟ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ أي إذا كان أمر هؤلاء الناس المشركين كذلك ، فلا أحد يهديهم ويوفقهم إلى الحق ، بعد أن اختاروا الكفر ، وفقدوا الاستعداد للإيمان ، وصار الشرك طبعا لهم ، وخلقوا ميالين بالفطرة إليه ، والله عالم بهم وبشأنهم قبل خلقهم ، فصاروا معتمدين على أنفسهم ، ولا ناصر لهم ينقذهم من بأس الله ولا مجير لهم من عذابه وشديد انتقامه إذا أحدق بهم ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الشركة بين المتفاوتين في الدرجة أو الطبقة مرفوضة في واقع الأمر

وعادة الناس ، وهي باطلة غير قائمة فعلا بين العبيد والسادة فيما يملكه السادة ، وإذا كان الخلق كلهم عبيدا متساوين لله تعالى ، فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله تعالى في شيء من أفعاله.

وهذه الآية تنفي جميع محاسن العبادة عن غير الله تعالى ، إذ لا ملك لهم فلم يصلحوا للشركة ، ولا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ، ولا يرتجى منهم منفعة حتى يعبدوا لنفع ، وليس لهم قوة وقدرة ؛ لأنهم عبيد ، والعبد المملوك لا يقدر على شيء.

٢ ـ إذا ثبت أنه لا يجوز ولا يعقل أن يشارك المملوك مالكه ، فلا يجوز أن يكون المخلوقون المملوكون لربهم شركاء له ، ولكن الذين أشركوا تجاوزوا هذا المنطق ، واتبعوا بعبادتهم الأصنام أهواءهم من غير دليل علمي ، وقلدوا فقط الأسلاف في ذلك.

٣ ـ هؤلاء المشركون الذين اختاروا الشرك والكفر أضلهم الله ، فلا هادي لهم ، كما لا هادي لكل من أضله الله تعالى ، وهم أيضا مخذولون فاقدو النصرة من أحد ، ولا منقذ لهم من قدرة الله ، ولا مجير ، ولا حيلة لهم بالهرب من عذاب الله ولا محيد لهم عنه.

الأمر باتباع الإسلام دين الفطرة والتوحيد

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿فِطْـرَتَ اللهِ﴾ منصـوب بتقـدير فعـل ، أي اتبـع فطـرة الله ، دل عليـه قولـه تعـالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي اتبع الدين ، أو منصوب على المصدر ، تقديره : فطر الله الخلق فطرة ، أو منصوب على الإغراء.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿فَأَقِمْ﴾. وإنما جمع حملا على المعنى ؛ لأن الخطاب للرسول ﷺ ، والمراد به أمته ، مثل قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ﴾ [الطلاق ٦٥ / ١].

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا﴾ بدل بإعادة الجار ، أي بدل من المشركين.

البلاغة :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أي توجه إلى الله بكليتك.

﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي اتبع الدين وأخلص فيه وأقبل على الإسلام واثبت عليه يا محمد ومن تبعك. ﴿حَنِيفاً﴾ مائلا إلى الاستقامة ، تاركا طرق الضلالة. ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ خلقة الله التي خلق الناس عليها من الشعور بالعبودية لله تعالى ، وقبول الحق وإدراكه. ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ لا ينبغي لأحد أن يغير فطرة الله وخلقه ، وليس لكم أن تبدلوا دينه بأن تشركوا. ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الدين المأمور باتباعه أو الفطرة بمعنى الملة هو الدين المستقيم أو المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، وهو توحيد الله. ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي أغلب الناس ، مثل كفار مكة حين نزول الوحي لا يعلمون توحيد الله تعالى واستقامة الدين ، لعدم تدبرهم وتفكرهم.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل ، والتزام ما أمر به واجتناب ما نهى عنه. ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي أقيموا الدين واتبعوه وخافوا الله ؛ لأن الخطاب للرسول ﷺ والأمة معه ، غير أن الآية صدرت بخطاب رسول الله ﷺ تعظيما له. ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي اختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ، وقرئ : فارقوا ، اي تركوا دينهم الذي أمروا به.

﴿شِيَعاً﴾ فرقا ، تشايع كل فرقة إمامها الذي قرر لها دينها وأصّله ، أي وضع أصوله.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل حزب منهم بما عندهم مسرورون.

المناسبة :

بعد بيان أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية على كل شيء ومنه الحشر والبعث ، وبعد توطين عزيمة الرسول ﷺ على الاعتزاز بدعوته وعدم الاهتمام بموقف المشركين منها ، وترك الالتفات إليهم ، أمر الله تعالى بمتابعة دين الإسلام ، والثبات عليه ، والإخلاص في العمل الذي اشتمل عليه ؛ لأنه فطرة الله التي أودع النفوس والعقول عليها ، والاعتراف بمضمونها ، والشعور الصافي بمدلولها.

التفسير والبيان :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ أي إذا تبين الحق في الاعتقاد والدين بدلائله السابقة ، وبطل الشرك ومعالمه ، فاتبع الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، التي هداك الله لها ، وأكملها لك ، وهو دين الفطرة السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه خلقهم على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره ، وكن بذلك مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق. وهذا أمر للنبي ﷺ وأمر لأمته أيضا. وتلك الفطرة كما قال تعالى : ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا : بَلى﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٢] وكما قال النبي ﷺ في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد : «إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم» وفي حديث آخر رواه البخاري ومسلم : «كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء [١] ، هل تحسّون فيها من جدعاء [٢]».

فكل من الآيتين والحديثين دليل على نقاوة أصل الخلق ، وأن الله تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وعلى الإسلام الصافي ، ثم طرأ على بعضهم الأديان

---

(١) مستوية كاملة لا نقص في شيء من بدنها.

(٢) جدعاء : مقطوعة الأذن أو الأنف.

الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله : ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ أي الزموا فطرة الله ، أو عليكم فطرة الله. وقدر فعل الخطاب للجماعة لقوله : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يبدّل أو يغير فطرة الله أي الخلقة الأصلية والملة السليمة ، وهو خبر في معنى النهي أو الطلب ، أي لا تبدلوا خلق الله ودينه بالشرك ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. وهذا دليل على سلامة الخلقة العقدية ، ونقاوة العقل البشري في أصل التكوين والوجود ، ثم يحدث التغيير بتأثيرات البيئة من أهواء وعلوم ومعارف زائغة ، وموروثات باطلة وتقليد مستمر للأسلاف ، دون إعمال الفكر وتكوين الاعتقاد بالنظرة المستقلة الصائبة ، ولو ترك الإنسان وشأنه لما اختار غير الإسلام دينا ؛ لأنه دين الفطرة والعقل.

﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك المأمور به من اتباع ملة التوحيد والتمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

غير أن أكثر الناس لا يعرفون ذلك حق المعرفة ، فهم ناكبون عنه ، لعدم إعمال فكرهم والإفادة من العلم الصحيح والبراهين الواضحة الدالة عليه ، ولو فكروا وعقلوا وعلموا حق العلم ، لما عدلوا عن ملة التوحيد وشريعة الإسلام وهديه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي اتبعوا دين الله ، مقبلين عليه ، راجعين إليه ، وإذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا ، فلا تأمنوا فتتركوا عبادته ، بل خافوه وداوموا على العبادة ، وراقبوه فلا تفرطوا في طاعة ، ولا ترتكبوا معصية ، وأقيموا الصلاة ، أي داوموا على إقامتها كاملة

الأركان مستوفية الشروط ، قائمة على الخشوع وتعظيم الله ﷻ ، ولا تكونوا بعد الإيمان من المشركين به غيره ، فلا تقصدوا بذلك غير الله ، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه ، والعبادة الخالصة هي كما جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن عمر : «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر ﷺ بمعاذ بن جبل ، فقال عمر: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن المنجيات : الإخلاص ، وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت.

وأوصاف المشركين هي :

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي من المشركين الذين فرقوا دينهم أي اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، وبدلوا دين الفطرة وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وصاروا فرقا مختلفة كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، كل فرقة منهم تفرح بما عندها وتسر وتعجب ، وتزعم أن الصواب في جانبها ، مع أنهم على الباطل الذي يناقض الحق الذي أراده الله واختاره دينا لعباده.

وهذا يشمل أيضا اختلاف الأمة الإسلامية ، اختلفوا بينهم على مذاهب شتى في الاعتقاد والعمل ، كلها ضلالة ، إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، كما روى الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وقرئ : «فارقوا دينهم».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الإسلام دين الفطرة والتوحيد ، فهو دين يلائم أصل الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها.

وفطرة الله هي التوحيد ، فإن الله خلق الناس موحدين مقرين بوجود ربهم وبوحدانيته ، حيث أخذهم من ظهر آدم في عالم الذر ، وسألهم : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ فقالوا : ﴿بَلى﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٢].

٢ ـ أمر الله تعالى باتباع دين الفطرة النقية ؛ لأنه دين التوحيد ، والدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، وهو دين الإسلام ، وحذر من تبديله وتغييره ، فلا يصح تبديل دين الله ، قال البخاري : قوله : ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ : لدين الله ، خلق الأولين ، دين الأولين ، الدين والفطرة : الإسلام.

كما حذر الله تعالى من الميل لأي دين آخر غير ملة الإسلام ، بقوله : ﴿حَنِيفاً﴾ معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة.

٣ ـ إن أكثر الناس لا يتفكرون ، فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، وإلها قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه ، وأن الإسلام هو الدين المستقيم.

٤ ـ أمر الله تعالى بالإنابة إليه ، أي بالرجوع إليه بالتوبة والإخلاص ، والإقبال عليه ، وإطاعته ، والتوبة إليه من الذنوب.

وأمر أيضا بالتقوى ، أي بالخوف من الله وامتثال ما أمر به ، وبإقامة الصلاة تامة كاملة مشتملة على الخشوع ومحبة الإله المعبود ، وحذر من اقتران العبادة بالشرك ، فأبان أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ، فلذلك قال :

﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والمراد إخراج العبد عن الشرك الخفي ، أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله.

٥ ـ لقد غيّر الناس دين الفطرة ، وجعلوا أديانا وآراء متناقضة ، وذلك يشمل المشركين: عبدة الأوثان ، واليهود والنصارى ، والمسلمين أهل القبلة أصحاب الأهواء والبدع ، كل حزب بما عندهم مسرورون معجبون ؛ لأنهم لم يتبينوا الحق ، وعليهم أن يتبينوه.

سوء حال بعض الناس بالرجوع إلى الله أحيانا

ثم الشرك والنكول

﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً سُلْطاناً﴾ : قيل : هو جمع (سليط) كرغيف ورغفان ، وقفيز وقفزان ، ويجوز فيه التذكير والتأنيث ، فمن ذكّر فعلى معنى الجمع ، ومن أنثه فعلى معنى الجماعة. والأصح أن السلطان : الحجة ، وتكلّمه مجاز كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه الدلالة.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ .. إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ إِنْ﴾ : شرطية ، وجوابها قوله : ﴿إِذا﴾

بمنزلة الفاء ، وصارت ﴿إذا﴾ بمنزلة الفاء ؛ لأنها لا يبتدأ بها ، كما لا يبتدأ بالفاء ، بسبب أنها للمفاجاة. وإنما يبتدأ ب (إذا) إذا كان فيها معنى الشرط. و ﴿تُصِبْهُمْ﴾ : مبتدأ ، و ﴿يَقْنَطُونَ﴾ : خبره. و ﴿إذا﴾ خبر آخر ، تقديره : وبالحضرة هم قانطون.

البلاغة :

﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ﴾ أي المشركين كفار مكة وأمثالهم. ﴿ضُرٌّ﴾ شدة وبلاء. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه دون غيره. ﴿ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي خلاصا من تلك الشدة. ﴿إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإشراك بربهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ اللام فيه لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل آية ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ [القصص ٢٨ / ٨] وقيل : للأمر بمعنى التهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم.

﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار. ﴿سُلْطاناً﴾ حجة وكتابا. ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ، فهو مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، ومعناه الدلالة والشهادة ، كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته. ﴿بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي يأمرهم بالإشراك.

﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ فئة من الكفار. ﴿رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة. ﴿فَرِحُوا بِها﴾ فرح بطر ، أي بطروا بسببها. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ شدة. ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بشؤم معاصيهم. ﴿يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من الرحمة. ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ، ويرجو عند الشدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا. ﴿يَبْسُطُ﴾ يوسع. ﴿لِمَنْ يَشاءُ﴾ امتحانا. ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيق لمن يشاء ابتلاء. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بربهم ، فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

المناسبة :

بعد بيان التوحيد والاستدلال عليه عقلا وبالمثال ، أبان الله تعالى حال فئتين من الناس : الأولى ـ بعض المشركين الذين يتضرعون إلى الله وقت الشدة ، ويشركون به الأوثان والأصنام وقت الرخاء. والثانية ـ بعض الكفار أو

المشركين غير المذكورين سابقا الذين تكون عبادتهم الله للدنيا ، إن أوتوا منها رضوا ، وإن منعوا منها سخطوا وقنطوا.

التفسير والبيان :

﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ، إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي إذا أصاب الناس عادة شدة أو بلاء من مرض أو قحط أو تعرض للخطر في جو أو بحر أو بر ونحو ذلك من حالات الاضطرار ، لجؤوا إلى الله يدعونه وحده لا شريك له ، وتضرعوا إليه واستغاثوا به مقبلين عليه ، راجعين إليه ، حتى إذا كشف عنهم البلاء وأسبغ عليهم النعمة ، فاجأ فريق منهم في حالة الاختيار ، يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره من الأوثان والأصنام.

فهم انتهازيون نفعيون يؤمنون بالله ، ويدعونه دون سواه وقت المصلحة أو الحاجة الشديدة ، ثم يتنكرون لربهم ، ويعرضون عنه حال السراء والرخاء ، بل ويشركون به سواه ، وهذا مبعث العجب والاستغراب.

﴿لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ﴾ اللام لام العاقبة ، أي ليؤول أمرهم إلى الكفر بنعمة الله ، وجحود فضله وإحسانه. ورأى بعضهم أن الفعل فعل أمر للتهديد ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف ١٨ / ٢٩] وكالأمر بعده :

﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأمر للتهديد ، كما في قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠] أي استمتعوا أيها المشركون بمتاع الدنيا ورخائها ، فمتاعها قصير زائل ، فسوف تعلمون عقابي وشدة عذابي في الآخرة على كفركم في الدنيا. قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب ، لخفت منه ، فكيف والمتوعّد هاهنا هو الذي يقول للشيء : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾؟!

ثم أنكر الله تعالى على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ، فقال :

﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ أي أأنزلنا عليهم في عبادة الأوثان حجة وكتابا فيه تقرير ما يفعلون ، وينطق أو يدل ويشهد بشركهم؟! وهذا استفهام إنكاري معناه أنه لم يكن شيء من ذلك ، فلم ينزل الله عليهم كتابا بما يقولون ، ولا أرسل رسولا ، وإنما هو شيء اخترعوه ، وفي ضلالتهم يترددون.

وبعد ان بيّن الله تعالى حال المشرك الظاهر شركه ، بيّن حال المشرك الذي دونه ، وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فإذا آتاه منها رضي ، وإذا منعه سخط وقنط ، فقال :

﴿وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي إذا أنعم الله على بعض الناس نعمة بطر بها ، كما قال : ﴿ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود ١١ / ١٠] أي يفرح في نفسه ، ويفخر على غيره ؛ وإذا أصابته شدة أو شر قنط وأيس من رحمة الله وسخط ؛ لأن إصابته بالسيئة كان بسبب شؤم معصيته.

ويلاحظ أنه تعالى لم يذكر عند النعمة سببا لها لتفضله بها ، وذكر عند العذاب سببا تحقيقا للعدل.

وهذا إنكار على الإنسان وطبيعته ، لكن في آية أخرى عقب آية هود المتقدمة استثنى تعالى المؤمنين الصابرين فقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ [هود ١١ / ١١] أي الذين صبروا في الضراء وعملوا الصالحات ، كما ثبت في الصحيح عند أحمد ومسلم عن صهيب : «عجبا للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له».

ثم نبههم تعالى إلى ما يطرد اليأس والقنوط ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي ألم يعلموا ويشاهدوا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحانا ، بغض النظر عن وجود صفة الكفر ، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء ، ولو مع وجود الإيمان وصالح الأعمال ، فالله هو المتصرف الفاعل للأمرين بحكمته وعدله ، يوسع على قوم ، ويضيق على آخرين ، دون نظر إلى صفتي الإيمان والكفر ؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، والمؤمن : هو الراضي بقضاء الله وقدره ، ولا ييأس من رحمة الله ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور من سعة الرزق وإقتاره لدلالة واضحة على الإيمان الصادق ، وحجة للمؤمن المصدق بوحدانية الله وقدرته تجعله يفوض الأمر إلى الله وحده.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن حال فريق من المشركين أو الكفار مدعاة للعجب ، فهم يتركون الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم ، وتراهم لا يثبتون على وتيرة واحدة ، فإذا مسّهم ضرّ من مرض أو شدة ، دعوا ربهم ، أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم ، وأقبلوا عليه وحده دون الأصنام ، لعلمهم بأنه لا فرج عندها ، وإذا أنعم الله عليهم بنعمة أو عافية أشركوا به في العبادة.

٢ ـ إن مصير هؤلاء هو ملازمة الكفر ، وقد هددهم الله وأوعدهم على تمتعهم بمتاع الدنيا ، ثم يجدون جزاءهم العادل في عالم الآخرة.

٣ ـ لا حجة ولا برهان للكافرين على كفرهم ، فالله لم ينزل عليهم في شأن

إقرار كفرهم كتابا ولا أرسل رسولا ، ولم يسوغ ذلك في أي وثيقة يعتمدون عليها.

٤ ـ أنكر الله تعالى على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه ووفقه ، حيث إنه يفرح ويبطر حال الخصب والسعة والعافية وغيرها من النعم ، وييأس ويقنط من الرحمة والفرج حال البلاء والعقوبة ، بما عمل من المعاصي. أما المؤمن فيشكر عند الرخاء ، ويصبر عند البلاء.

٥ ـ الله تعالى وحده هو المتصرف في أرزاق العباد ، فيوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق ، على وفق الحكمة والعدل ، فلا يصح أن يكون الفقر سببا للقنوط ، ولا ينبغي أن يكون الغنى سببا للبطر ، فكل من الغنى والفقر من الله تعالى ، وعلى المؤمن الموحد تفويض أمر الرزق إلى الله سبحانه.

الترغيب بالنفقة وأنواع العطاء وضمان الرزق

وإثبات الحشر والتوحيد

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾

البلاغة :

﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ..﴾ سجع مرصّع.

المفردات اللغوية :

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أعط القريب حقه من صلة الرحم والبرّ به ، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم. ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ هو المحتاج وهو المعدم الذي لا مال له. ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر المحتاج إلى المال ، وإيتاؤهما : إعطاؤهما ما وظّف لهما من الزكاة. والخطاب للنبي ﷺ ، وأمته تبع له في ذلك. ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ ثوابه بما يعملون أو ذاته أو جهته قاصدين إياه بمعروفهم خالصا. ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً﴾ أي ما فعلتم من ربا ، وهو الزيادة ، والمراد بها الهبة أو الهدية التي يقصد بها الوصول إلى أكثر منها. ﴿لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ﴾ المعطين أي يزيد. ﴿فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ لا يزكو عنده ، ولا يبارك فيه ، ولا ثواب فيه للمعطين.

﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ﴾ أي صدقة. ﴿الْمُضْعِفُونَ﴾ ثوابهم بما أرادوه ، أي يضاعف الله لهم الثواب ، مأخوذ من (أضعف) إذا صار ذا ضعف.

المناسبة :

لما ذكر الله تعالى أنه هو الباسط الرازق لمن يشاء والقابض له ، وجعل في ذلك آية للمؤمن ، أردفه بأنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان لذوي الحاجة ، فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق ، وإذا قدر وقتّر لا يزداد بالإمساك ، ولأن من الإيمان الشفقة على خلق الله من قريب أو مسكين وابن سبيل.

التفسير والبيان :

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يأمر الله تعالى بإعطاء هؤلاء ، فيقول : فأعط أيها الرسول ومن تبعك من أمتك المؤمنين ذوي القرابة حقهم من صلة الرحم والبرّ بهم والإحسان إليهم ؛ لأنهم جزء من رابطة الدم والنسب ، فكانوا أحق الناس بالتواصل والتزاور والشفقة ، وأعط الحق أيضا للمسكين الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته ، ومثله المسافر البعيد عن ماله المحتاج إلى نفقة وحوائج السفر. وسرعة المواصلات لا تستأصل حاجة هذا المسافر ، وإنما تقلل من المبلغ المالي الذي يحتاج إليه.

وقد احتج أبو حنيفة ﷺ بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. والظاهر أن الحق ليس الزكاة ، وإنما يصير حقا بالإحسان والمواساة. وقدم ذا القربى على المسكين وابن السبيل للاهتمام به ؛ لأن بره صدقة وصلة.

﴿ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي إن الإيتاء أو الإعطاء لمن ذكر خير في ذاته لمن يقصدون بعملهم وجه الله خالصا ، أي يطلبون ذاته أو جهته أو ثوابه ورضوانه يوم القيامة ، دون أن يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة وشهرة ، وأولئك هم المفلحون الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكون هذا الإعطاء خيرا ؛ لأنه سبب لتكافل الأسرة وتعاون المسلمين فيما بينهم ، وفي التكافل والتعاون قوة وتوادد وتراحم وتآزر ، وتخلص من أمراض الفقر والتمزق والحقد والحسد.

ثم ذكر نوعين من أنواع العطاء : أحدهما حسن مقبول عند الله والآخر قبيح مبغوض عند الله ، أما القبيح فهو الربا ، وأما الحسن فهو الزكاة ، والقبيح هو المذكور في قوله تعالى :

﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فلا ثواب له عند الله ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر ٧٤ / ٦] أي لا تعط عطاء تريد أكثر منه ، وهذا حرام على النبي ﷺ على الخصوص ، حلال على غيره ، لكن لا ثواب فيه.

قال ابن عباس : الربا نوعان : ربا لا يصح ، وهو ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾.

وروي مثل ذلك عن عكرمة والضحاك ومجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي.

وأما العطاء الحسن الذي يثاب عليه صاحبه فهو الزكاة كما قال تعالى : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي ومن أعطى صدقة يقصد بها وجه الله وحده خالصا ، فله الثواب المضاعف والجزاء الأفضل عند الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢ / ٢٤٥] وقال سبحانه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد ٥٧ / ١١] وجاء في الحديث الصحيح : «وما تصدّق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيربيها لصاحبها ، كما يربّي أحدكم فلوّه أو فصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد» [١] الجبل المعروف في المدينة.

ثم أكد الله تعالى ما سبق بأن الزيادة والنماء داخل في رزق الله المحدد لكل إنسان ، فقال :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي الله هو الخالق الرازق الذي يرزق الإنسان من الميلاد إلى الوفاة ، ثم هو المميت بعد هذه الحياة ، ثم هو المحيي يوم القيامة للحشر والبعث.

﴿هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ أي هل من آلهتكم الذين تعبدونهم من دون الله من يفعل من ذلكم شيئا ، أي من الخلق أو الرزق أو الإماتة أو الإحياء؟! لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ، لهذا قال :

﴿سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس وتعاظم عن أن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحة عن أبي هريرة.

يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد. وأضاف الشركاء إلى عبدة الأصنام لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم.

ويلاحظ أنه تعالى جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين : الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله : ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ بدليل قدرته على الخلق في ابتداء الخليقة ، وأما التوحيد فبقوله : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ يأمر الله تعالى بصلة الأقارب ذوي الأرحام ، وبمساعدة المسكين وابن السبيل ، وقد فضّل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة ، وقد أعتقت وليدة (أمة رقيقة) : «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

والأصح أن الآية ليست منسوخة بآية المواريث ، فللقريب حق لازم في البرّ على كل حال ، ومعاونة المحتاجين من الفقراء والمنقطعين في الأسفار عن الوصول لبلادهم من مظاهر البرّ والخير في الإسلام. وفسر ابن عباس ﴿الْمِسْكِينَ﴾ فقال : أي أطعم السائل الطوّاف ، و ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾ بأنه الضيف ، فجعل الضيافة فرضا. واستدل أبو حنيفة كما بينا بالآية على وجوب النفقة للمحارم المحتاجين.

٢ ـ إن إعطاء الحق المقرر شرعا لمن ذكر أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه ، وفاعلوه هم المفلحون الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة.

٣ ـ إذا كان العطاء بقصد التوصل إلى الزيادة والأفضل فهو حرام على

النبي ﷺ خاصة ، مباح لأمته ، وإن كان لا ثواب فيه. وهذا هو الربا الحلال أو هبة الثواب. أما الربا الحرام شرعا الذي يمحقه الله ، وإثمه كبير فهو ربا البيع وربا القرض ، وهو إعطاء الشيء وأخذ بدل عنه بشرط في العقد ، أو عمل بالعرف السائد.

٤ ـ إذا كان العطاء صدقة أو زكاة بقصد إرضاء الله وابتغاء الثواب من عنده ، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته. والعطاء لحق القرابة وصلة الرحم يكون لوجه الله. أما إذا كان العطاء رياء وسمعة ليحمده الناس ويثنوا عليه من أجله ، فلا ثواب فيه في الدنيا ، ولا أجر في الآخرة ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ**﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٤].

٥ ـ «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» فلا يبارك الله في المأخوذ من الآخرين مقابل الهدية أو الهبة ولا ينمو ولا ثواب فيه عند الله تعالى ، وأما المعطى بقصد رضوان الله ، فذلك الذي يقبله الله ، ويضاعف ثوابه عشرة أضعافه إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فإن فضل الله لا يحد ولا ينحصر ويمنح من يشاء.

٦ ـ الله تعالى هو القادر على البعث والحشر ، كما خلقنا أول مرة ، وهو الإله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ، الخالق الرازق المميت المحيي ، المنزه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والولد. ولن تستطيع الآلهة المزعومة سواه شيئا من أفعاله السابقة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

جزاء المفسدين والكافرين وجزاء المؤمنين

﴿**ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ**

وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥)﴾

البلاغة :

﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بينهما طباق.

﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الأيدي وإرادة الكل.

﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ استعارة ، شبه القائم بالأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويعدّه للنوم عليه ، توفيرا للراحة والسلامة.

المفردات اللغوية :

﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الفساد : الخلل في الأشياء ، كالجدب والقحط وقلة النبات ، وكثرة الحرق والغرق وأخذ المال ظلما وكثرة المضار وقلة المنافع. والبر : الجزء اليابس من الأرض. والبحر : الجزء المائي ، والمراد : في أهل البر سكان القرى والمدن والفيافي ، وأهل البحر سكان السواحل ، وركاب البحار. ﴿بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم وعقوبته في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه ويتوبون. واللام : للتعليل أو للعاقبة.

﴿قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قل يا محمد لكفار قريش وأمثالهم ، تأملوا فيما حدث في الأرض ، لتشاهدوا مصداق ذلك ، وتتحققوا صدقه. ﴿كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشوّ الشرك فيهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي وجّه نفسك للعمل بالدين المستقيم ، البليغ الاستقامة وهو دين الإسلام. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي قبل يوم القيامة الذي لا يقدر أن يرده واحد فلا راد له ولا مانع منه. ﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلق بفعل ﴿يَأْتِيَ﴾ ويجوز تعلقه بقوله ﴿مَرَدَّ﴾ على معنى : لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون ، أي يتفرقون بعد الحساب ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير.

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فعليه وبال كفره وهو النار المؤبدة. ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يوطئون منزلهم ويسوونه في الجنة. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ علة ليمهدون ، أو ليصدعون ، متعلق به. والاقتصار على

جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يثيبهم من فضله ، وهذا دليل على أن الإثابة تفضل محض. ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى سوء حال المشركين ، والشرك سبب الفساد ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٢] ذكر أن الفساد قد ظهر بين الناس ، فأحلوا الحرام ، وحرموا الحلال ، وفشا الظلم ، وكثرت الحروب ، ثم نبههم وأمرهم بالمسير في الأرض ، فينظروا كيف أهلك الأمم بسبب معاصيهم وإشراكهم ، فإن الله تعالى أهلك قوما بسبب الشرك ، وقوما بسبب المعاصي ، والإهلاك قد يكون بالشرك ، وقد يكون بالمعاصي ، ثم أمر تعالى رسوله بالثبات في الدين الحق قبل مجيء الحساب الذي يتفرق فيه الناس : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن آمن وعمل صالحا فقد أعد لنفسه المهاد الذي يستريح عليه.

التفسير والبيان :

﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عمّ العالم ظهور الخلل والانحراف ، وكثرة المضار وقلة المنافع ونقص الزروع والأنفس والثمرات ، وقلة المطر وكثرة الجدب والقحط والتصحر ، بسبب شؤم معاصي الناس وذنوبهم ، من الكفر والظلم ، وانتهاك الحرمات ، ومعاداة الدين الحق ، وعدم مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن. والاعتداء على الحقوق وأكل مال الغير بغير حق ، ليذيقهم الله جزاء بعض عملهم وسوء صنيعهم من المعاصي والآثام ، وحينئذ ربما يرجعون عن غيهم ومعاصيهم ، كما قال تعالى : ﴿وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف ٧ / ١٦٨].

ثم هدد الله تعالى على ظهور الفساد بالعقاب كعقاب الأمم السابقة ، فقال : ﴿قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قل أيها الرسول للمفسدين والمشركين : سيروا في البلاد ، وتأملوا بمصير من قبلكم ، وكيف أهلك الله الأمم المتقدمة ، وأذاقهم سوء العذاب بسبب كفرهم وسوء أعمالهم ، وانظروا ما حلّ بهم من تكذيب الرسل وكفران النعم ، وأن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر ، وكان أيضا بغير الشرك كالإهلاك بالفسق والمخالفة ، كما فعل بأصحاب السبت ﴿الْيَهُودُ﴾.

قال في الكشاف : دل بقوله : ﴿كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأن ما دونه من المعاصي يكون سببا لذلك [1].

فسبب عذابهم في الغالب هو كفرهم بآيات ربهم وتكذيبهم رسله ، وهو تعليل لما سبق ، فهو دليل على تعليل الأحكام ، وعلى التزام ظاهرة العدل في العقاب الإلهي.

وبعد بيان ظاهرة الشرك والانحراف والفساد وبيان عاقبتها ، وبعد نهي الكافر عما هو عليه ، ذكر تعالى ما يقابلها من حال الاستقامة ، وأمر المؤمن بما هو عليه ، فقال :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي بادر أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين إلى الاستقامة في طاعة الله ، وبادر إلى الخيرات ، ووجه نفسك كلها وبإخلاص للعمل بالدين المستقيم ، البليغ الاستقامة ، وهو دين الإسلام من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا رادّ له ولا مانع منه ، فلا بد من وقوعه ؛ لأن الله كتب مجيئه وقدّره ، وما قدّره وأراد حدوثه فلا راد له ولا بد أن يكون.

---

(١) الكشاف ٢ / ٥١١

ذلك اليوم الذي يتفرق فيه الناس بحسب أعمالهم ، ففريق في الجنة ، وفريق في السعير.

ثم بين الله تعالى أن جزاء كل فريق بحسب عمله ونتيجة فعله ، فقال : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي من كفر بالله وكتبه ورسله ، وكذب باليوم الآخر ، فعليه وبال كفره ووزره وإثمه وعاقبته ، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وبالبعث ، وعمل الأعمال الصالحة ، فأطاع الله فيما أمر ، وانتهى عما نهى عنه ، فقد أعدّ لنفسه الفراش الوطيء الوثير المريح ، والمسكن الفسيح ، والقرار الدائم.

وإنما قال : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً﴾ ولم يقل : ومن آمن ؛ لأن العمل الصالح المقبول لا يكون إلا بعد الإيمان ، ولأن بالعمل الصالح يكمل الإيمان ، فذكره تحريضا للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا حدث فلا زنة للعمل معه.

وسبب التفرقة في الجزاء هو ما قال :

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ أي أنا المجازي فكيف يكون الجزاء؟ وأنهم يتفرقون فريقين فكيف يجازون؟ إنني أجازي المؤمنين الذين يعملون الصالحات بفضلي وإحساني ، فالمجازاة مجازاة الفضل ، فأكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبع مائة ضعف ، إلى ما شاء الله ، وأما الكافرون فإن الله يبغضهم ويعاقبهم ، ولكنه عقاب عادل لا يجور فيه ، وهذا تهديد ووعيد.

ودل قوله : ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ على أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، لقلته وحقارته ، ولكن بمحض فضل الله تعالى.

ويلاحظ أنه عند ما أسند الله تعالى الكفر والإيمان إلى العبد المخلوق ، قدّم الكافر ، فقال : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه ، قدم

المؤمن ، إظهارا للكرم والرحمة ، فقال : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم قال : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ﴾ لأنه تهديد ووعيد.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يلي :

١ ـ انتشار ظاهرة الفساد والانحراف في العالم ، من الشرك أعظم الفساد ، والقحط وقلة النبات وذهاب البركة ، والمعاصي وقطع السبيل والظلم وغير ذلك من الآثام والذنوب.

والعالم هو البر والبحر المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ، لا ما قاله بعض المفسرين : البر : الفيافي ، والبحر : القرى ، والعرب تسمي الأمصار البحار.

٢ ـ إن ظهور الفساد سبب للدمار والهلاك في الدنيا ، والعقاب في الآخرة ، وعقاب الدنيا على المعاصي التي عملها بعض الناس في البر والبحر ، كحبس الغيث وغلاء الأسعار ، وكثرة الحروب ، والفتن والقلاقل ، قد يكون باعثا على التوبة ، وحافزا على الرجوع إلى الله والاستقامة على الطاعة ، واجتناب الذنوب والمنكرات.

٣ ـ على الناس قديما وحديثا أن يعتبروا بمن قبلهم من الأمم السابقة ، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ، وقد كان أكثرهم مشركين أي كافرين فأهلكوا.

٤ ـ النبي والمؤمنون مخاطبون بتوجيه القصد والعزيمة إلى اتباع الدين القيم ، يعني الإسلام ، في دار التكليف دار الدنيا ، قبل مجيء يوم القيامة الذي لا يردّه الله عنهم ولا عن غيرهم ، وليس لأحد دفعه أو منعه ، لعجزه عن ذلك أمام قدرة الله وقدره وقضائه السابق.

وخاطب الله النبي ﷺ ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به ، فإنه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء ، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : «إن الله أمر المؤمنين ، بما أمر به المرسلين».

٥ ـ يتفرق الناس يوم القيامة فريقين بحسب أعمالهم : فريق في الجنة ، وفريق في السعير.

٦ ـ للكافر جزاء كفره وهو النار ، وللمؤمن الذي عمل صالحا الجنة ، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوطّئون أو يقدمون لأنفسهم في الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح.

٧ ـ اقتضت رحمة الله أن يجزي الله من فضله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذي يمهّدون لأنفسهم ، ليتميز المسلم من الكافر ، وكل إنسان يدخل الجنة بفضل الله ورحمته ، لا بعمله ، حتى الأنبياء.

كذلك كان مقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم ومعاصيهم ؛ إذ لا يعقل التسوية بين المسلمين والكافرين كما قال تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم ٦٨ / ٣٥ ـ ٣٨].

الاستدلال بالرياح والأمطار على قدرة الله وتوحيده

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ

كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾

الإعراب :

﴿**وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ**﴾ تكرار ﴿**قَبْلِ**﴾ إما للتأكيد ، وإما مع اختلاف التقدير والضمير ، أي : وإن كانوا من قبل أن ينزل الغيث عليهم من قبل السحاب لمبلسين ، والضمير يعود إلى السحاب في قوله تعالى : ﴿**فَتُثِيرُ سَحاباً**﴾ والسحاب يجوز تذكيره وتأنيثه.

﴿**فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا**﴾ ، الهاء يعود إلى الزرع الذي دل عليه. ﴿**فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ**﴾ أو إلى السحاب ، وإذا أريد به الزرع فسبب تذكير الضمير : أن تأنيث الرحمة غير حقيقي.

﴿**كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**﴾ في موضع نصب على الحال ، حملا على المعنى ؛ لأن اللفظ لفظ الاستفهام ، والحال خبر ، والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها.

البلاغة :

﴿**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .. وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**﴾ بأسلوب الإطناب ، فإنه أسهب تذكيرا للعباد بالنعم الكثيرة ، وكان يكفي الجملة الأخيرة.

﴿**أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً**﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

﴿**فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَانْتَقَمْنا**﴾ فيه إيجاز بالحذف ، حذف منه : فكذبوهم واستهزءوا بهم.

المفردات اللغوية :

﴿**الرِّياحَ**﴾ أي رياح الخير والرحمة وهي الشمال والصبا والجنوب ، وأما الدّبور فريح العذاب ، قال ﷺ : «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا». ﴿**مُبَشِّراتٍ**﴾ تبشر بالخير وهو

المطر. ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ليذيقكم بها المطر والخصب أي المنافع التابعة لها. ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ السفن بها بإذنه. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا الرزق من فضل الله بالتجارة في البحر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعمة الله فيها ، فتوحدوه.

﴿فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ﴾ بالحجج الواضحات على صدقهم في رسالتهم إليهم ، فكذبوهم. ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أهلكنا الذين كذبوا ، ودمرنا الذين فعلوا جرما. ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين. وهو إشعار بأن الانتقام لصالح المؤمنين وإظهار كرامتهم ، حيث جعلهم الله مستحقين لديه أن ينصرهم ، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني وغيره عن أبي الدرداء : «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم» ثم تلا الآية.

﴿فَتُثِيرُ﴾ أي تحرك وتهيج. ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ﴾ ينشره متصلا بعضه ببعض. ﴿كَيْفَ يَشاءُ﴾ من قلة وكثرة ، ﴿كِسَفاً﴾ قطعا متفرقة ، وقرئ بسكون السين ، تخفيفا. ﴿الْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿مِنْ خِلالِهِ﴾ وسطه. ﴿فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ أصاب بالودق بلادهم وأراضيهم. ﴿إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بالمطر أمارة الخصب.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ المطر. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ كرره للتأكيد والدلالة على طول زمن تأخر المطر. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين من إنزاله. ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾ آثار الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ، وقرئ : إلى أثر. ﴿كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ يبسها ، بأن يجعلها تنبت ، وقرئ : تحيي بإسناده إلى ضمير الرحمة. ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ لقادر على إحيائهم. ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أن قدرته على جميع الممكنات سواء. ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم. ﴿أَرْسَلْنا رِيحاً﴾ مضرة على نبات. ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثر أو الزرع ، وقد صار جواب القسم. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد اصفراره. ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يجحدون النعمة بالمطر ، وقوله : ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جواب سد مسد جزاء الشرط ، وحرف الشرط هو (إن) في قوله ﴿وَلَئِنْ﴾.

المناسبة :

بعد وصف ظاهرة الفساد في العالم بسبب الشرك والمعاصي ، أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار ، وعلى البعث والنشور وعلى قدرته ورحمته بإحياء الأرض بعد موتها ، وتخلل ذلك التسرية عن الرسول ﷺ بأنه ليس أول من كذبه الناس ، فقد تقدمه رسل كثيرون جاؤوا أقوامهم بالبينات فكذبوهم ، فانتقم الله منهم بالتدمير والهلاك ، فلا يجزع ولا يحزن ، والنصر دائما في جانب المؤمنين.

التفسير والبيان :

يذكر الله تعالى نعمه وفضله على خلقه بإرساله الرياح مبشرات بمجيء الغيث ، فقال :

﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن أدلة وحدانيته تعالى وقدرته ونعمته وآياته الكونية أنه المهيمن على كل شيء في الوجود ، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يحيي الأرض بعد يبسها ، وينبت الزرع ويخرج الثمر ، وليذيق الناس من آثار رحمته بالمطر الذي ينزله ، فيحيي به العباد والبلاد ، ولتسيير السفن في البحار بالريح ، وللتمكين من ممارسة التجارة والتنقل في البلاد والأقطار للكسب والمعيشة ولشكر الله تعالى على ما أنعم به من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى ، كما قال : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٤].

ثم سلّى الله تعالى عبده ورسوله محمدا ﷺ ، فقال :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ ، فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كذبك كثير من قومك أيها الرسول ، فلست أول من كذّب ، فلقد كذّبت الرسل المتقدمون بالرغم مما جاؤوا به أممهم من الدلائل الواضحات على أنهم رسل من عند الله ، فكذبوهم كما كذبك قومك ، فانتقم الله ممن كذبهم وخالفهم ، ونجّى المؤمنين الذين صدقوا بالله ورسله ، وما جرى على النظير يجري على نظيره قياسا عقليا وشرعيا ، فسيكون الانتقام من كفرة قومك كالانتقام ممن تقدمهم.

والخلاصة : أن الله تعالى بعد إثبات الأصلين : الوحدانية والبعث ، ذكر الأصل الثالث وهو النبوة.

ثم أخبر الله تعالى عن مبدأ عام وهو تأييد المؤمنين بالنصر ، وأنه حق أوجبه

الله على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا ، كقوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام ٦ / ٥٤]. وفي هذا وعيد للكفار بالهزيمة ووعد وبشارة بالظفر للمؤمنين.

روى ابن أبي حاتم والطبراني والترمذي وابن مردويه عن أبي الدرداء ﷺ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية : ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أبان تعالى كيفية خلقه السحاب الذي ينزل منه الماء ، فقال :

﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ أي الله هو الذي يسير الرياح على وفق الحكمة ومقتضى الإرادة إلى الجهة المرادة ، فتحرك السحاب وتهيجه بعد سكونه ، فينشره في السماء ويجمعه ويكثره ، فيجعل من القليل كثيرا ، ثم يجعله قطعا متفرقة ذات أحجام متنوعة ، فتارة يكون السحاب خفيفا ، وتارة يأتي السحاب من جهة البحر مشبعا بالرطوبة ، ثقيلا مملوءا بذرات الماء ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً ، سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٧].

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فتنظر المطر أو القطر يخرج من وسط ذلك السحاب ، فإذا أصاب به الله بمشيئته بعض العباد والبلاد ، فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم ، لحاجتهم إليه. فقوله ﴿مِنْ خِلالِهِ﴾ الضمير عائد في الظاهر على السحاب ؛ إذ هو المحدّث عنه.

﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي ينزل عليهم هذا المطر بعد أن كانوا قبل نزوله قانطين يائسين من نزوله قبل ذلك ، فكانت الفرحة شديدة التأثير في نفوسهم ، لمفاجأتهم بالغيث الذي كادوا ييأسون من نزوله. وتكرار كلمة ﴿قَبْلِهِ﴾ أي قبل الإنزال للتأكيد.

ومجمل معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، وكانوا قبل ذلك بفترات متفاوتة متقطعة يترقبونه فيها ، فتأخر ، ثم انتظروه مرة أخرى فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فصارت أرضهم الهامدة منتعشة بالنبات من كل زوج بهيج.

﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ ، كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾ أي فانظر أيها الرسول ومن تبعك نظرة تأمل واستبصار واستدلال إلى المطر الذي هو أثر من آثار رحمة الله ، كيف يكون سببا لإحياء النبات والزرع والأشجار والثمار ، مما يدل على واسع رحمة الله وعظيم قدرته.

ثم نبّه الله تعالى بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال :

﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، أو من يقدر على إحياء الأرض بعد يبسها بالخضرة والنبات قادر على إحياء الموتى ، والله وحده بالغ القدرة على كل شيء ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، سواء في الابتداء أو في الإعادة ، كما قال سبحانه : ﴿قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس ٣٦ / ٧٨ ـ ٧٩].

ثم بيّن تعالى سوء حال الكافرين ، وتنكرهم للمعروف والجميل ، وعدم ثباتهم على منهج واحد ، فتراهم يفرحون بالخير ، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء ، فقال :

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي وتالله لئن بعثنا ريحا ضارة ، أو سامة ، حارة أو باردة على نبات أو زرع أو ثمر ، فرأوا ذلك الزرع قد اصفر ، ومال إلى الفساد بعد خضرته ، لظلوا من بعد ذلك الفرح والبشر ، يجحدون نعم الله التي أنعم بها عليهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ من دلائل كمال قدرة الله إرسال الرياح مبشرات بالمطر ؛ لأنها تتقدمه ، والغيث والخصب أثر من آثار رحمة الله ، ومن خواص الرياح أيضا عند هبوبها تسيير السفن في البحر ، وبالسفن ينتقل الركاب والتجار ، وتحمل البضائع من قطر إلى آخر ، فتكون وسيلة الرزق بالتجارة ، وكل ذلك من نعم الله وأفضاله التي تستوجب الشكر بالتوحيد والطاعة.

٢ ـ النبوة والرسالة من نعم الله أيضا التي تتطلب التصديق والتأييد ، ولكن استبداد الكافرين وعنادهم يدفعهم إلى التكذيب برسالات الرسل قديما وحديثا ، فقد أرسل الله رسلا كثيرين إلى مختلف الأمم والأقوام والشعوب ، مؤيدين بالمعجزات والحجج النيرات ، فكذبوهم وآذوهم وسخروا منهم ، وكفروا برسالاتهم ، فانتقم الله ممن كفر ، ونجّى المؤمنين ونصرهم على أعدائهم ، وسنة الله الثابتة أنه ينصر عباده المؤمنين ، وهذا خبر صدق ، والله لا يخلف الميعاد ، ولا خلف في خبره.

٣ ـ أخبر الله تعالى أيضا عن كيفية تكون السحاب ، وهو أن الله يرسل الرياح ، فتحرك الغيوم وتنقلها من مكان إلى آخر ، ثم ينشرها ويجمعها في الجو على وفق مشيئته وإرادته وحكمته ، ويجعلها قطعا متفاوتة الأحجام والأوزان

والنوعية ، تارة تكون خفافا ، وتارة تصبح ثقالا مملوءة بالماء ، فإذا أنزل المطر على بعض العباد فرحوا بنزول المطر عليهم.

وكانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين حزينين لاحتباس المطر عنهم ، وأكد تعالى وجود ظاهرة اليأس والاكتئاب قبل إنزال المطر ، ليدل على شدة حال الناس ، ثم تغيرها إلى حال البشر والفرح ، فكلمة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ للتأكيد عند أكثر النحويين ، كما في قوله تعالى : ﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها﴾ [الحشر ٥٩ / ١٧]. وقال الرازي : والأولى أن يقال : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأنه بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فيها مطر ، فقبل المطر إذا هبت الريح ، لا يكون مبلسا ، وإنما قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح ، فقال : ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الرياح وبسط السحاب ، لبيان حال حدوث الإبلاس أي اليأس [١].

٤ ـ إن النتيجة الطبيعية لإنزال المطر هي الدلالة بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى. وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ نوع من القياس يقال له : قياس الغائب على الشاهد ، أو استدلال بالشاهد على الغائب ، أي إثبات البعث بناء على ثبوت ظاهرة مشابهة هي إحياء النبات.

٥ ـ المشركون مضطربون قلقون في عقيدتهم ، فتراهم عند إقبال الخير فرحين به ، وعند ظهور السوء يائسين مكتئبين ، ومثال ذلك : أنهم إن أحرقت الريح زرعهم ، فاصفر ثم يبس ، كفروا وجحدوا وجود الخالق ، وتنكروا لمن أنعم عليهم

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ١٣٣ ، وكذلك قال أبو حيان في البحر المحيط (٧ / ١٧٩) : ما ذكره ابن عطية والزمخشري من فائدة التأكيد في قوله : مِنْ قَبْلِهِ غير ظاهر.

في أحيان أخرى ، حيث أغرقهم بسيل متلاحق من النعم ، فهم متقلّبون غير ثابتين ، لا يدومون على حالة واحدة ، وذوو نظر قاصر على الحال دون المآل أو الماضي.

تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من الإعراض عن دعوته

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)﴾

البلاغة :

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ استعارة تصريحية ، شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم سماعهم سماع تدبر ووعي العظات والعبر والأدلة على صدق الرسالة النبوية.

المفردات اللغوية :

﴿لا تُسْمِعُ الْمَوْتى﴾ أي سماع تدبر واتعاظ ؛ لأنهم سدّوا عن الحق مشاعرهم. ﴿إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيّد عدم السماع به ليكون أشد استحالة ، فإن الأصم إذا أقبل على السماع ، وإن لم يسمع الكلام ، استفاد منه بواسطة الحركات على اللسان بعض الأشياء.

﴿الْعُمْيِ﴾ سمى الكفار عميا لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار. ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع سماع إفهام وقبول إلا المؤمنين ؛ لأن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى.

﴿بِآياتِنا﴾ القرآن. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون منقادون لما تأمرهم به.

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث ، ومهام الرسل ، والوعد والوعيد ، والإعراض عن دعوة النبي ﷺ ، سلّاه ربه عما يراه من تمادٍ في الإعراض وعناد ، فهم أشبه بالموتى والصمّ والعمي ، لعدم استعدادهم لسماع أدلة الهداية سماع تدبر واتعاظ ، وقد رتب المشبه بهم على حسب مدى الإعراض ، فإرشاد الميت محال ،

ثم إرشاد الأصم الذي لا يفهم الكلام إلا بالإشارة أصعب ، ثم الأعمى الذي يفهم ويعي الشيء الكثير ، لكن إرشاده صعب أيضا.

التفسير والبيان :

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي لا تحزن ولا تجزع أيها الرسول على إعراض هؤلاء المشركين عن دعوتك ، بعد بيان أدلة التوحيد والقدرة على البعث ، وتهديدهم ووعيدهم ، فإنك لا تستطيع أن تفهم الموتى أو تسمعهم سماع تدبر واتعاظ ، ولا تقدر أن تسمع دعوتك الصم الذي لا يسمعون ، وهم أيضا مع ذلك مدبرون عنك غير مقبلين على كلامك وهدايتك ، وهم مع سماعهم في الظاهر أشبه بالموتى في أجداثهم ، والصم الذين فقدوا حاسة السمع ، لسدهم منافذ الهداية ، وإدبارهم عن سماع كلمة الحق ، وعدم استعدادهم لوعي شيء وفهمه عنك ، وهم أيضا كالعمي كما قال :

﴿وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ﴾ أي وليس في مقدورك هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل الهداية إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى :

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي لا تسمع أيها الرسول سماعا يؤدي إلى الانتفاع إلا المؤمن المصدق بالقرآن وما اشتمل عليه من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية على كل شيء ، فهذا المؤمن إذا سمع آيات الله تتلى عليه ، تدبره وتفهمه ، وأقبل عليه يعمل بما جاء فيه ، وينتهي عما نهى عنه ، وهؤلاء المؤمنون هم المسلمون ، أي الخاضعون المستجيبون المطيعون لله فيما أمر ونهى ، وأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لا فائدة ولا جدوى في هداية المشركين المكابرين المعاندين الذي ألفوا تقليد الأسلاف في الكفر ، فماتت عقولهم ، وعميت بصائرهم.

٢ ـ إنما الفائدة تظهر في إسماع مواعظ الله المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد ، ويستعدون لقبول الهداية إن ظهرت لهم دلائلها.

٣ ـ المقصود من قوله تعالى : ﴿**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى**﴾ سماع التدبر والفهم والاتعاظ ، وهذا لا يعارض الثابت في السنة النبوية من إمكان سماع الأموات كلام الأحياء.

روى عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا في قليب (بئر) بدر، بعد ثلاثة أيام ، وعاتبهم وقرعهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جيّفوا؟ ـ أي أنتنوا ـ فقال : «والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون». وهذا هو الصحيح المؤيد بالشواهد الكثيرة ، منها ما رواه ابن عبد البر ، مصحّحا له عن ابن عباس مرفوعا : «ما من أحد يمرّ بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام ». وثبت عنه ﷺ في تعريفه أمته كيفية السلام على أهل القبور أن يقولوا كما يخاطب الأحياء : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولو لا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد. وروى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من رجل يزور قبر أخيه ، ويجلس عنده إلا استأنس به ، ورد عليه حتى يقوم».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه ، فسلّم عليه ، رد عليه السلام .

وأجمع السلف على هذا ، وشرع السلام على الموتى ، مما يدل على شعورهم وعلمهم بالمسلّم ، وعلّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا فيما رواه مسلم عن بريدة : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم حقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية». وكل ذلك دال على أن السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ، ويرد ، وإن لم يسمع المسلّم الرد [١].

أطوار حياة الإنسان

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾

البلاغة :

﴿ضَعْفٍ﴾ و ﴿قُوَّةً﴾ بينهما طباق.

﴿الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل ، معناه التام العلم والقدرة.

المفردات اللغوية :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة ، أو ابتدأكم ضعفاء ، وجعل الضعف أساس أمركم ، كقوله : ﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء ٤ / ٢٨] والضعف : ما قابل القوة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي بعد ضعف الطفولة قوة الشباب بعد بلوغ الحلم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ أي جعل بعد قوة الرجولة ضعف الكبر وشيب الهرم. والشيب : بياض الشعر. والضعف : بفتح الضاد وضمه. ﴿يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ من الضعف والقوة والشباب والشيبة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ أي إن تلك الأطوار والأحوال التي يمر بها الإنسان بمشيئة الله دليل العلم والقدرة ، فهو العليم بتدبير خلقه ، القدير على ما يشاء.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩

المناسبة :

بعد بيان أدلة الآفاق من إرسال الرياح وإنزال المطر على الوحدانية ، ذكر تعالى دليلا آخر عليها من الأنفس ، وهو خلق الآدمي ومروره بأدوار مختلفة تحتاج إلى العلم والقدرة الشاملة ، وذلك لا يتصف بهما غير الله عَزَّوَجَلَّ .

التفسير والبيان :

﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً**﴾ أي إن الله تعالى هو الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالا بعد حال ، فجعل أصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم كون عظامه ، ثم كسا العظام لحما ، ونفخ فيه الروح ، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، فقوله ﴿**مِنْ ضَعْفٍ**﴾ أي ابتدأه ضعيفا.

ثم يشبّ قليلا قليلا فيكون صغيرا ، ثم شابا بالغا ، وهذا دور القوة بعد الضعف ، ثم يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة إلى الهرم والشيخوخة ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

هذا الانتقال والتدرج والتحول من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهية الخالقة ، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون ، فإن القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت ؛ لأن من كانت قدرته تامة شاملة لا يصح مقارنتها بقدرة الإنسان النسبية ، ولا يعجزه شيء ، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته.

﴿**يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ أي يفعل الله ما يشاء ، ويوجد ويبدع ما يشاء من ضعف وقوة ، وبدء وإعادة ، ويتصرف في عبيده بما يريد ،

وهو العليم التام العلم بتدبير خلقه ، القدير الشامل القدرة على ما يشاء ، ومن آثار قدرته إحياء الناس وإماتتهم ثم بعثهم أحياء عند ما يريد.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية تتضمن استدلالا آخر على قدرة الله في نفس الإنسان ، ليعتبر ويبادر إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإن الآلة الجامدة تظل على وتيرة واحدة ؛ لأن صانعها وهو الإنسان محدود القدرة ، أما الإنسان الذي يمر بمراحل ثلاث ، متفاوتة هبوطا وصعودا ، ضعفا وقوة ، لا يبقى على حال واحدة ، وإنما يتغير.

والتغير والتدرج ليس مجرد طبيعة دون مدبر ولا مغير ، وإنما يحتاج كل طور من مراحل التغير إلى خالق مبدع ، وقادر عظيم ، ولا يستطيع ذلك أحد غير الله صاحب التكوين والإرادة ، والأمر والنفوذ الشامل ، فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف ، وهو العليم بتدبيره ، القدير على إرادته ، وهو الفعال لما يريد ، المتصرف في مخلوقاته كيف يشاء.

أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

الإعراب :

﴿لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرئ ينفع بالياء وبالتاء ، أما قراءة التاء فعلى الأصل من التطابق بين الفعل والفاعل ، وأما قراءة الياء فبسبب وجود الفاصل بينهما.

﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف ، تقديره : إن كنتم منكرين البعث ، فهذا يومه ، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

البلاغة :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ جناس تام بين قوله ﴿السَّاعَةُ﴾ التي هي القيامة ، وقوله ﴿السَّاعَةُ﴾ التي هي المدة الزمنية المعروفة.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ، سميت بها ، لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تحدث بغتة ، وصارت علما للقيامة بالتغليب كالكوكب للزهرة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا﴾ يحلف الكافرون ما أقاموا في الدنيا أو في القبور ﴿غَيْرَ ساعَةٍ﴾ مدة زمنية قليلة ﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن الواقع في مدة اللبث كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق الذي هو البعث وغيره من قول الحق والنطق بالصدق. يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق والحق والخير.

﴿أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ﴾ الملائكة أو الإنس المؤمنون ﴿فِي كِتابِ اللهِ﴾ فيما كتبه في سابق علمه أو قضائه ﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه ﴿وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق واقع ؛ لتفريطهم في النظر ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم في إنكارهم له ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى ، أي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى ، يقال : استعتبني فلان فأعتبته ، أي استرضاني فأرضيته.

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد في خلق الإنسان في النشأة الأولى ، ودلائل البعث والإعادة مرة أخرى إلى الحياة ، ذكر الله تعالى أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا ، وما يحدث يوم القيامة من مناقشات بين أهل الإيمان وبين المجرمين ،

واكتشاف جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فعكوفهم على عبادة الأوثان ، وأما في الآخرة فإقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا.

التفسير والبيان :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ أي حين تقوم القيامة ويبعث الله الناس من قبورهم ، وما يتعرضون له من أهوال جسام طويلة الأمد ، يحلف الكفار الآثمون أنهم ما أقاموا في الدنيا أو في القبور غير ساعة واحدة ، أي مدة قليلة من الزمان ، قاصدين بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا مدة معقولة ، حتى يعذرون فيما هم عليه من تقصير.

وهذا دليل واضح على قصر مدة الدنيا مهما طالت ، إذا قورنت بالآخرة ، وأن الذي يوعد بالشر يستقل المدة التي عاشها ، أما الموعود بالخير فيستكثر المدة مهما قلت : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٦].

﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث ، كانوا يصرفون من الحق إلى الباطل ، ومن الصدق إلى الكذب ، والمراد أنهم كاذبون في قولهم : ما لبثنا غير ساعة ، وفي حلفهم على الكذب ، وأنهم مغترون بزينة الدنيا ومتاعها وزخرفها ، فإذا عرفوا ذلك ربما حملهم على ترك العناد ، وسلوك طريق الرشاد.

وفي هذا دلالة على أن إصرارهم على الكفر ، صرفهم عن التفكير فيما هو حق وعن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف القيامة ، فقال تعالى :

﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ

﴿الْبَعْثِ﴾ أي فردّ المؤمنون العالمون بالآخرون على منكري البعث القائلين الحالفين بأنهم لم يلبثوا غير ساعة : لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة في الدنيا من يوم خلقتم إلى أن بعثتم.

وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن العالم يستكثر مدة المكث في الدنيا ؛ لأنه متطلع مشتاق إلى نعيم الجنة وخلودها ، وهو يعلم أن مصيره إلى الجنة ، فيستكثر المدة ، ولا يريد التأخير.

﴿فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم منكرين للبعث فهذا يومه الواقع الذي لا سبيل لإنكاره ، وبه يتبين بطلان إنكاركم إياه ، غير أنكم تجهلون أنه حق واقع ، لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن أدلة ثبوته.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ففي يوم القيامة لا ينفع هؤلاء الظالمين الكافرين عذرهم أو اعتذارهم عما فعلوا ، ولا تقبل منهم توبتهم ؛ لأن وقت التوبة في دار الدنيا ، وهي دار العمل ، أما الآخرة فهي دار الجزاء ، لا وقت العمل.

وقوله : ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ معناه أنه لا يطلب منهم الإعتاب ، وهو إزالة العتب بالتوبة والطاعة التي تزيل آثار الجريمة ؛ لأنها لا تقبل منهم ، ولا يعاتبون على ذنوبهم ، وإنما يعاقبون عليها ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت ٤١ / ٢٤] فليست حالهم حال من يستعتب ويرجع عما هو عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ إن عمر الدنيا قصير جدا إذا قورن بالآخرة.

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ لا يعني إنكار عذاب القبر أو التهوين من شأنه ، فقد صح عن النبي ﷺ أنه تعوذ منه ، وأمر أن يتعوذ منه ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : سمع النبي ﷺ أم حبيبة وهي تقول : اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال لها النبي ﷺ : «لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ، ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر».

٣ ـ دل قوله عزّ وجلّ : ﴿كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ على أن الكفار كانوا يكذبون في الدنيا ، وينصرفون من الحق إلى الباطل ، وأنهم كما صرفوا عن الحق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا ، كما وصفهم القرآن : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١٨] وقال تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا : وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ [الأنعام ٦ / ٢٣ ـ ٢٤].

٤ ـ العلماء بالآخرة المؤمنون بها وبالله تعالى من الملائكة والناس يستكثرون مدة الدنيا شوقا إلى الآخرة والجنة ، أما الكافرون فيستقلّون مدة اللبث في الدنيا ، ويختارون تأخير الحشر ، والإبقاء في القبر ، تحاشيا من عذاب الآخرة ، لذا يقول المؤمنون للكفار ردا عليهم : لقد لبثتم في الدنيا أو في قبوركم إلى يوم البعث.

٥ ـ الواقع خير شاهد ودليل ، لذا يقول المؤمنون للكفار : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه.

٦ ـ إذا جاء الموت أو يوم القيامة لا ينفع العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ ، ولا يطلب من الكفار العتبى ، أي إزالة العتب بالتوبة التي تسقط الذنب ،

ولا تقبل التوبة حينئذ ؛ لأن وقتها ووقت التكليف وهو دار الدنيا قد فات ، ولم يبق أمامهم إلا دار الجزاء والعقاب ، فيعاقبون على أعمالهم التي عملوها.

مهمة القرآن في بيان أدلة العقيدة

وأمر النبي بالصبر على الأذى والدعوة

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا لهم في القرآن أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول ﷺ مقرونة بالأمثلة ، تنبيها لهم ، والمثل : الصفة التي هي في الغرابة كالأمثال ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم ﴿جِئْتَهُمْ﴾ يا محمد ﴿بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن ﴿لَيَقُولَنَ﴾[1] ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ، من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ما أنتم أي الرسول والمؤمنون إلا مزورون أصحاب أباطيل متبعون الباطل.

﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك الطبع يطبع على قلوب هؤلاء الجهلة الذين لا يطلبون العلم ، ويصرّون على خرافات اعتقدوها ؛ فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق.

﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها النبي على أذى قومك وعلى دعوتك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بنصرك عليهم وإظهار دينك على الدين كله ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي ولا يحملنك على الخفة والطيش والقلق بترك الصبر أي لا تتركه ﴿الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم ، فإنهم ضالون.

---

(١) حذفت منه نون الرفع لتوالي النونات ، وحذفت وأو الجماعة لالتقاء الساكنين.

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول ﷺ ، ختم الله السورة بوصف إجمالي للقرآن وهو أنه كتاب العبر والأمثال لإزالة الأعذار ، والكتاب المخلص غاية الإخلاص للبشرية بتقديم الإنذارات الكافية ، ثم أردفه ببيان تحقيق جميع أهدافه على يد الرسول ﷺ الذي بلغ الغاية القصوى في تبليغ دعوته ، وأنه لم يبق منه تقصير.

فإن طلب الكفار شيئا آخر غير القرآن وهذا النبي ، فذلك عناد ، لم يفدهم بعده أي بيان ؛ إذ من هان عليه تكذيب دليل ، سهل عليه تكذيب الأدلة كلها.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بينا لهم الحق ووضحناه ، وضربنا لهم فيه الأمثال الدالة على وحدانية الخالق وعلى البعث وصدق الرسول ﷺ ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ، ولم يحصل تقصير من جانب الرسول ﷺ في تبليغ الدعوة إلى الله ، فإن طلب الناس شيئا بعد ذلك ، فهو عناد ، ومن هان عليه تكذيب دليل ، لم يصعب عليه تكذيب الدلائل كلها كفرا وعنادا ، لذا قال :

﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي وتالله لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، وما أنتم أيها الرسول والمؤمنون إلا جماعة مبطلون تأتون بالباطل وتتبعونه؟!.

وذلك كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ

﴿رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٦ ـ ٩٧].

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادا واستكبارا الطبع على القلوب كما قال تعالى : ﴿كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد ، لسوء استعدادهم ، وإصرارهم على تقليد الأسلاف ، واعتقاد الخرافات.

ثم أمر الله رسوله بالصبر على مخالفتهم وأذاهم وعنادهم ، فقال :

﴿فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر أيها الرسول على أذى المشركين وتابع في تبليغ رسالتك ، فإن وعد الله الذي وعدك به من نصره إياك عليهم وظفرك بهم ، وجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، حق ثابت لا شك فيه ، ولا بد من إنجازه والوفاء به.

﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقول الذين لا يوقنون بالله واليوم الآخر ، فإنهم قوم ضالون ، واثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا محيد عنه ، بل الحق كله منحصر فيه. وهذا إشارة إلى وجوب مداومة النبي ﷺ على الدعوة إلى الإيمان.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم والبيهقي أن رجلا من الخوارج نادى عليا رضي الله عنه ، وهو في صلاة الغداة (الفجر) فقال : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٥] فأنصت له عليّ حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن القرآن المجيد هو النعمة العظمى على الإنسانية وعلى المسلمين ؛ لأنه يرشد ببيانه العجيب وأمثلته التوضيحية إلى ما يحتاجون إليه ، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل.

٢ ـ إن أتى النبي ﷺ بآية قرآنية أو بمعجزة مثل المعجزات المادية المحسوسة للأنبياء السابقين كفلق البحر والعصا وغيرهما ، لقال الكفار : ما أنتم يا معشر المؤمنين إلا قوم مبطلون ، أي تتبعون الباطل والسحر.

٣ ـ كما طبع أو ختم الله على قلوب صناديد الكفر وزعماء الشرك ، حتى لا يفهموا الآيات عن الله ، فكذلك يطبع على قلوب الذين لا يعلمون التوحيد وأصول الاعتقاد ، وحقيقة العبر والعظات ، وآيات الله البينات ، فيصبحون عديمي الفهم لكل ما يتلى عليهم من القرآن ، بسبب عنادهم وإعراضهم ، وسوء استعدادهم لقبول دعوة الحق والخير والتوحيد.

٤ ـ على المؤمن أن يثبت على الحق الذي لا مرية فيه ، وهو دين الإسلام ، ولا يتأثر بسفاهات المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالبعث. والخطاب في قوله : ﴿**وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ**﴾ للنبي ﷺ ، والمراد أمته. فإن قصر الخطاب على النبي ﷺ فالمراد به وجوب المداومة على الدعوة إلى الإيمان ، فإنه لو سكت لقال الكافر : إنه متقلب الرأي ، لا ثبات له على مبدئه.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة لقمان

مكية ، وهي أربع وثلاثون آية.

تسميتها :

سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة (لقمان الحكيم) الذي أدرك جوهر الحكمة ، بمعرفة وحدانية الله وعبادته ، والأمر بفضائل الأخلاق والآداب ، والنهي عن القبائح والمنكرات.

موضوعها :

تضمنت الكلام عن موضوعات السور المكية وهي إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله ووحدانيته ، وتصديق النبوة ، والإقرار بالبعث واليوم الآخر. وسبب نزولها أن قريشا سألت النبي ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه وعن بره والديه ، فنزلت.

صلتها بما قبلها أو مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بسورة الروم قبلها من وجوه :

١ ـ قال تعالى في آخر السورة السابقة : ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾ إشارة إلى كون القرآن معجزة ، وقال في مطلع هذه السورة : ﴿**تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ، هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ**﴾.

٢ ـ كذلك قال سبحانه في آخر السورة المتقدمة : ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ إشارة إلى أن المشركين يكفرون بالآيات ، وقال في هذه السورة : ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ [٧].

٣ ـ وصف الله تعالى قدرته على بدء الخلق والبعث في كلتا السورتين ، فقال في السورة السالفة : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [٢٧] وقال هنا : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [٢٨].

٤ ـ أثبت الله تعالى في كلتا السورتين إيمان المؤمنين بالبعث ، فقال في السورة السابقة: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [٥٦] وهذا عين إيقانهم بالآخرة المذكور في مطلع هذه السورة : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٥ ـ حكى الله تعالى في السورتين ما عليه حال المشركين من القلق والاضطراب ، إذ يضرعون إلى الله في وقت الشدة ، ويكفرون به وقت الرخاء ، فقال في السورة المتقدمة : ﴿وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ...﴾ [٣٣] وقال في هذه السورة : ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾ [٣٢].

٦ ـ ذكر في سورة الروم : ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [١٥] وقد فسر بالسماع ، وفي لقمان : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [٦] وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي.

٧ ـ قابل تعالى بين السورتين ، فذكر في سورة الروم مدى اعتزاز المشركين بأموالهم ورفضهم إشراك غيرهم فيها ، وذكر هنا قصة لقمان الحكيم العبد الصالح الذي أوصى ابنه بالتواضع وترك التكبر ، كما ذكر في الأولى محاربة الروم والفرس

في معركتين عظيمتين ، وذكر في السورة الثانية في قصة لقمان الأمر بالصبر والمسالمة وترك المحاربة.

مشتملات السورة :

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية : فبدأت ببيان معجزة النبي الخالدة وهي القرآن دستور الهداية الربانية ، وموقف الناس منه ، ففريق المؤمنين يصدّقون بكل ما جاء فيه ، فيظفرون بالجنان ، وفريق الكافرين الساخرين الهازئين الذي يعرضون عما فيه من الآيات ، ويضلون عن سبيل الله جهلا وسفها ، فيتلقون العذاب الأليم.

ثم تحدثت عن أدلة الوحدانية والقدرة الباهرة لله ربّ العالمين من خلق العالم والكون ، وتلا ذلك بيان قصة لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة لابنه ، تعليما للناس وإرشادا لهم ، وعلى رأسها نبذ الشرك ، وبر الوالدين ، ورقابة الله على كل صغيرة وكبيرة ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتواضع واجتناب الكبر ، ومشي الهوينى ، وإخفاض الصوت.

وأردف ذلك توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم أدلة التوحيد ، والنعي عليهم في تقليدهم الآباء ، وجحودهم نعم الله الكثيرة التي لا حصر لها ، وإعلامهم أن طريق النجاة هو إسلام النفس لله والإحسان بالعمل الصالح ، وبيان تناقضهم حين يقرّون بأن الله هو خالق كل شيء ثم يعبدون معه غيره ، مع أن الله هو مالك السموات والأرض والمنعم بجلائل النعم ، وعلمه محيط بكل شيء ، وأن خلق جميع البشر وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعثها ، فهو المدبر والمصرف الذي لا يعجزه شيء ، وأنهم يتضرعون إليه وقت الشدة ويشركون به وقت الرخاء.

ثم أضافت السورة أدلة أخرى على القدرة الإلهية من إيلاج الليل في النهار وبالعكس ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسيير السفن في البحار وغير ذلك.

وختمت السورة ببيان الأمر بالتقوى والخوف من عذاب يوم القيامة الذي لا بد من إتيانه ، ولا أمل فيه بنصرة أحد ، وعدم الاغترار بمتاع الدنيا وزخارفها ، والتنبيه على مفاتيح الغيب الخمسة التي اختص الله بعلمها ، وأن الله محيط علمه بالكائنات جميعها ، خبير بكل ما يجري فيها.

خصائص القرآن وأوصاف المؤمنين به

﴿الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾

الإعراب :

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ مبتدأ وخبر والإضافة بمعنى «من» و ﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال من ﴿آياتُ﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة ، ولا يجوز أن يكون منصوبا على الحال من ﴿الْكِتابِ﴾ لأنه مضاف إليه ، ولا عامل يعمل في الحال ، وفيه خلاف. والرفع : إما خبر ﴿تِلْكَ﴾ و ﴿آياتُ﴾ : بدلا من ﴿تِلْكَ﴾ وإما خبر بعد خبر ، كقولهم : هذا حلو حامض ، وإما خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو هدى.

البلاغة :

﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عبر بالمصدر عن اسم الفاعل للمبالغة.

﴿تِلْكَ آياتُ﴾ إشارة بالبعيد عن القريب لبيان علو الرتبة وسمو القدر.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إطناب بتكرار الضمير ﴿هُمْ﴾ واسم الإشارة ﴿أُولئِكَ﴾ لزيادة الثناء عليهم وتكريمهم. وقوله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يفيد الحصر ، أي هم المفلحون لا غيرهم.

المفردات اللغوية :

﴿الم﴾ يشبه افتتاح سورة البقرة المدنية ، وجاء على وفق المعروف غالبا في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية ، للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذه الأحرف «ألف ، لام ، ميم» ينطق بها العرب قاطبة ، ولكنهم عاجزون عن معارضتها بالإتيان بمثل سورة أو عشر سور من القرآن ، مما يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد. ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن المتصف بالحكمة.

﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي الآيات هادية راحمة ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ بيان للمحسنين ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هم الثانية للتأكيد ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون ، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح.

التفسير والبيان :

﴿الم. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ أي إن هذا القرآن مكوّن من الحروف ذاتها التي تنطقون بها ، فهل تأتون بمثل آياته؟ فهذه آيات القرآن ذي الحكمة ، الذي لا خلل فيه ولا عوج ، ولا تناقض فيه ولا اختلاف ، بل هو آيات بينات واضحات.

ثم ذكر تعالى الغاية من تنزيله فقال :

﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هذه الآيات القرآنية هدى وشفاء من الضلال ، ورحمة تنقذ المؤمنين بها من العقاب ، وهم الذين أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وفي أوقاتها ، مع نوافلها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، وصدقوا وأيقنوا بوجود الآخرة وبالجزاء العادل فيها ، ورغبوا إلى الله في الثواب ، دون مراءاة ولا جزاء ولا شكور من الناس.

﴿أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بما ذكرهم في قمة الهداية والفلاح ، فهم المهديون أي على بصيرة ونور ومنهج

واضح من الله ، وهم الفائزون وحدهم في الدنيا والآخرة. وقوله : ﴿أُولئِكَ﴾ إشارة إلى علو المرتبة والتعظيم الذي يستحقونه ، إذ لا فلاح إلا بإحسان العمل ، ولا خير إلا في الإيمان.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١ ـ إن آيات القرآن العظيم محكمة لا خلل فيها ولا تناقض ، ولا عيب فيها ولا تعارض ، وهي دستور الهداية الربانية ، وسبيل استحقاق الرحمة الإلهية ، التي لا يستحقها إلا المحسنون. والمحسن : الذي يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه ، أو هو الآتي بالإيمان ، المتقي الشرك والعناد.

٢ ـ إن من أخص صفات المحسنين إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان باليوم الآخر.

٣ ـ هؤلاء المحسنون استنارت قلوبهم وعقولهم بمنهج الله تعالى ، فالتزموا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، ففازوا وحدهم بسعادة الدنيا والآخرة.

٤ ـ إن وصف القرآن بالحكمة في قوله تعالى : ﴿الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ مناسب لموضوع السورة في بيان الحكمة في قصة لقمان وما يؤيدها من آي السورة في تقرير التوحيد ، وهدم الشرك وإثبات البعث والنبوة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والإيمان بعالم الغيب والشهادة ، المنعم على عباده بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة.

إعراض الكافرين عن القرآن وإقبال المؤمنين عليه

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾

الإعراب :

﴿وَيَتَّخِذَها﴾ بالنصب عطفا على ﴿لِيُضِلَ﴾ وبالرفع عطفا على ﴿يَشْتَرِي﴾ أو على الاستئناف. وهاء ﴿يَتَّخِذَها﴾ يعود على السبيل لأنها مؤنثة كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٨] وتذكّر كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٦]. وباء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للحال ، تقديره : ليضل عن سبيل الله جاهلا.

﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ حال من ضمير ﴿وَلَّى﴾ وكاف ﴿كَأَنْ لَمْ﴾ في موضع نصب على الحال ، تقديره : ولّى مستكبرا مشبها من في أذنيه وقر ، وقوله : ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ﴾ حال أخرى أو بيان للحال الأولى.

﴿لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ مرفوع بالجار والمجرور ؛ لوقوعه خبرا عن المبتدأ و ﴿خالِدِينَ﴾ منصوب على الحال من هاء وميم ﴿لَهُمْ﴾.

البلاغة :

﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ استعارة تصريحية ، شبه حاله بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ ﴿يَشْتَرِي﴾ لمعنى «يستبدل» بطريق الاستعارة.

﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، وذكر فيه أداة التشبيه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكم ؛ لأن البشارة المستعملة في الخير استعملت في الشر تهكما وسخرية.

﴿بِعَذابٍ أَلِيمٍ جَنَّاتُ النَّعِيمِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير ، وهو السجع الحسن غير المتكلف.

المفردات اللغوية :

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما يلهي منه عما يعني ويفيد من الحكايات والأساطير والمضاحك وفضول الكلام ، وكتب الأعاجم ، والجواري المغنيات. واللهو : كل باطل ألهى عن الحق والخير. وقد اشتريت تلك الملاهي بالفعل ، والإضافة بيانية بمعنى «من» إن أراد بالحديث المنكر ، وتبعيضية إن أراد به الأعم منه ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ ليصرف الناس عن دين الله وهو طريق الإسلام ، أو قراءة كتابه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ غير عالم بحال ما يشتريه ، أو بالتجارة ، حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن ﴿وَيَتَّخِذَها هُزُواً﴾ ويتخذ السبيل سخرية مهزوءا بها ﴿لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ عذاب فيه غاية الإهانة ؛ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا﴾ القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ متكبرا لا يعبأ بها ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾ مشابها حاله حال من لم يسمعها ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ مشابها من في أذنيه صمم أو ثقل يمنع من السماع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أعلمه بوقوعه في عذاب مؤلم لا محالة ، وذكر البشارة تهكم به ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيم جنات ، فعكس للمبالغة ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ أي مقدرا خلودهم فيها إذا دخلوها ﴿وَعْدَ اللهِ ، حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان : الأول لنفسه ، والثاني لغيره ، أي وعدهم الله ذلك وحقه حقا ؛ لأن قوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ وعد ، وليس كل وعد حقا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ، فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يضع شيئا إلا في محله ، ولا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

سبب النزول :

نزول الآية (٦):

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينة (مغنية)

وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام ، إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمّد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه ، فنزلت.

وقال مقاتل : نزلت في النضر بن الحارث ، كان يخرج تاجرا إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم ، فيرويها ويحدّث بها قريشا ، ويقول لهم : إن محمدا ﷺ يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم وإسفنديار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ، ويتركون سماع القرآن.

المناسبة :

بعد بيان أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة ، وبعد بيان حال السعداء المهتدين بهديه ، المنتفعين بسماعه ، بيّن الله تعالى حال الكفار الأشقياء التاركين له المشتغلين بغيره ، وأعقبه بوعيدهم بالعذاب المهين المؤلم ، وعطف عليه وعد المؤمنين به المقبلين على تلاوته ، الملتزمين حدوده من أوامر ونواه.

التفسير والبيان :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَها هُزُواً ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي وهناك فريق من الناس يستبدل بالنافع الضار ، وبالقرآن الشافي ما يتلهى به من الحكايات والأساطير وفضول الكلام ، والمضاحك ، والاستماع إلى غناء الجواري ، كالنضر بن الحارث الذي كان يشتري كتب الفرس ويحدّث بها الناس ، ويقتني المغنيات لاجتذاب الشبان ، وإغراء من أسلم حديثا ، لحملة على ترك الإسلام ، وإضلاله عن دين الله وهو دين الإسلام ، والصد عنه ، واتخاذه هزوا وسخرية ، جهلا بخطورة ما يفعل من استبدال اللهو بقراءة القرآن ، وأولئك وهم الموغلون في الكفر والضلال يحيق بهم عذاب بالغ الإهانة. وقوله **﴿عَذابٌ مُهِينٌ﴾** للتفرقة بين عذاب الكافر وعذاب

المؤمن ، فإن عذاب المؤمن للتطهير ، فهو غير مهين ، وأما عذاب الكافر فهو في غاية الإهانة ، فكما استهان بآيات الله وسبيله أهين يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

وقوله ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بضم الياء معناه لمخالفة الإسلام وأهله ومعاداتهم ، واللام لام التعليل ، أي ارتكب هذا الفعل من أجل الإضلال والصد عن سبيل الله. وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أي لتكون عاقبة أمره الإضلال ، واتخاذ آيات الله هزوا وسخرية.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المضلين بالإمعان في الضلال والكفر ، وازدياد الإعراض والنفور عن دين الله ، فقال :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن من يشتري الحديث الباطل إذا تليت عليه آيات القرآن أدبر وأعرض عنها متكبرا ، وتصامم عن سماعها ، وإن لم يكن به صمم ، كأنه ما سمعها ، وكأن في أذنيه صمما وثقلا ؛ لأنه يتأذى بها ، ولا ينتفع منها ، ولا أرب له فيها ، فبشر هذا المعرض بعذاب يؤلمه يوم القيامة ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

وبعد بيان حال هؤلاء الأشقياء ، ذكر الله تعالى مآل الأبرار السعداء في الدار الآخرة ، فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، خالِدِينَ فِيها ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة من الائتمار بالأوامر الشرعية ، واجتناب المحظورات والمناهي ، لهم جنات يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب وغير ذلك من المتع مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم

فيها مقيمون دائما لا يظعنون ، ولا يبغون عنها حولا.

وهذا كائن لا محالة ؛ لأنه وعد الله الذي لا يخلف وعده ؛ لأنه الكريم المنّان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء.

وهو العزيز القوي الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فلا ينجو منه مشرك ولا غيره ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين. ونحو موضوع الآيتين السابقتين قوله تعالى : ﴿قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت ٤١ / ٤٤] وقوله سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ إن من أعظم الجرائم الإعراض عن سماع القرآن كلام الله ، وشغل الناس بسماع غيره من أنواع الكلام غير المفيد من القصص والأساطير والمضاحيك ونحو ذلك من ألوان اللهو والعبث ، بقصد الإضلال والصد عن دين الله تعالى ، ويستحق المعرض المتولي تكبرا عن القرآن عذابا أليما.

٢ ـ استدل ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بقوله : ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ على منع استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

وهذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية : قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ سامِدُونَ﴾ [النجم ٥٣ / ٦١] قال ابن عباس : هو الغناء ، بالحميريّة ؛ اسمدي لنا ، أي غنّي لنا. والآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٤] قال مجاهد : الغناء والمزامير.

روى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : «صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما : صوت مزمار ، ورنّة شيطان عند نغمة ومرح ، ورنّة عند مصيبة لطم خدود ، وشق جيوب» وأخرج أبو طالب الغيلاني عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بكسر المزامير» وأخرج ابن بشران عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «بعثت بهدم المزامير والطبل» وروى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «من جلس إلى قينة يسمع منها ، صبّ في أذنه الآنك [١] يوم القيامة». وبناء عليه ، قال العلماء بتحريم الغناء.

حكم الغناء عند الفقهاء :

للفقهاء ، ومنهم علماء المذاهب الأربعة على المعتمد لديهم تفصيل في حكم الغناء هو ما يأتي [٢] :

أ ـ الغناء الحرام : هو الذي يحرّك النفوس ، ويبعثها على الهوى والغزل ، والمجون ، بكلام يشبّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرّمات ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. وإذا لم يجز فأخذ الأجرة عليه لا يجوز

ب ـ الغناء المباح : هو ما سلم مما ذكر ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق حول المدينة ، وحدو أنجشة [٣].

---

(١) الآنك : الرصاص. إلا أن الحديث ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي : ١٤ / ٥٤

(٣) أنجشة : هو عبد أسود كان يسوق إبل نساء النبي ﷺ عام حجة الوداع ، وكان حسن الحداء ، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه.

ج ـ أما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبّابات [١] والطار والمعازف والأوتار فحرام. وفي اليراعة [٢] تردد ، والدف مباح.

د ـ وأما طبل الحرب فلا حرج فيه ؛ لأنه يهيج النفوس ، ويرهب العدو ، فقد ضرب بين يدي النبي ﷺ يوم دخل المدينة ، فهمّ أبو بكر بالزجر ، فقال رسول الله ﷺ : «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح» فكنّ يضر بن ويقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبّذا محمد من جار

هـ ـ لا بأس من استعمال الدّفّ في حفلات الزفاف ، وكذا الآلات المشهرة بالزواج والغناء بحسن الكلام الذي لا فحش فيه.

و ـ سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز. والاشتغال بالغناء على الدوام سفه ترد به الشهادة ، فإن لم يدم لم تردّ.

ونقل عن أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل القول بكراهة الغناء. وقال الطبري : أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه.

٣ ـ عادة القرآن مقابلة الأشياء بأضدادها لبيان الفرق والترغيب والترهيب ، فبعد أن ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين ، وهو أن للمؤمنين الذي يعملون صالح الأعمال المأمور بها شرعا نعيم الجنان ، دائمين فيها ، ووعدهم الله هذا وعدا حقا لا خلف فيه ، وهو وعد العزيز الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء ، الحكيم في صنعه وفعله.

---

(١) الشبّابة : قصبة الزمر.

(٢) اليراعة : مزمار الراعي.

الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية الله وإبطال الشرك

﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)﴾

الإعراب :

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ الباء في موضع نصب على الحال من ﴿السَّماواتِ﴾. و ﴿تَرَوْنَها﴾ جملة فعلية في موضع جر على الصفة ل ﴿عَمَدٍ﴾ أي بغير عمد مرئية ، فالضمير راجع إلى العمد ، والعمد : قدرة الله وإرادته ، أو أن الضمير راجع إلى السموات ، أي ليست هي بعمد ، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد ، وحينئذ تكون الجملة مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ ..﴾ الياء في ﴿فَأَرُونِي﴾ المفعول الأول ، و ﴿فَأَرُونِي﴾ : معلق عن العمل و ﴿ما ذا خَلَقَ﴾ : سد مسد المفعول الثاني. و ﴿ما ذا﴾ : ما : استفهام إنكار : مبتدأ ، وذا بمعنى الذي مع صلته : خبره.

البلاغة :

﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، تعظيما لشأن الرحمن ، بعد قوله ﴿خَلْقُ وَأَلْقى وَبَثَ﴾.

﴿هذا خَلْقُ اللهِ﴾ أي مخلوقه ، من قبيل إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة.

﴿ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت.

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ الأصل أن يقال : بل هم ، فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ.

المفردات اللغوية :

﴿خَلَقَ السَّماواتِ﴾ استئناف كلام جديد ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ العمد : جمع عماد: وهو الأسطوانة التي يعمد بها أي يسند به ، و ﴿تَرَوْنَها﴾ إما صفة العمد أي بغير عمد مرئية ، أو يعود الضمير إلى ﴿السَّماواتِ﴾ ، أي لا عمد لها أصلا ، وأنتم ترونها بلا عمد ، فهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة ﴿رَواسِيَ﴾ جبالا ثوابت مرتفعة ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد ، أي تتحرك وتضطرب بكم ﴿وَبَثَ﴾ نشر وفرق ﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صنف حسن ، كثير المنافع. والآية دليل على عزة الله التي هي كمال القدرة ، والحكمة التي هي كمال العلم ، لتقرير أصل التوحيد.

﴿هذا خَلْقُ اللهِ﴾ هذا الذي ذكر مخلوق الله ﴿فَأَرُونِي﴾ أخبروني يا أهل مكة وأمثالكم الكفار ﴿ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ماذا خلق الذين من غيره وهم آلهتكم التي أشركتموها بالله تعالى ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ بل : للانتقال والإضراب عن تبكيتهم إلى تسجيل الضلال عليهم ، فهم في ضلال بيّن لا يخفى على ناظر ، بإشراكهم. ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

المناسبة :

بعد قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الدال على عزته وحكمته وكمال قدرته وعلمه وإتقان صنعه ، ذكر الله تعالى الأدلة على قدرته العظيمة من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، لتقرير وحدانيته ، وإبطال الشرك ، والتنبيه إلى وجوب اتباع الحق الذي جاءت به الرسل.

التفسير والبيان :

﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ أي من أدلة قدرته تعالى العظيمة ، وحكمته السديدة أنه خلق السموات بغير أعمدة ، لا مرئية ولا غير مرئية ، والسموات كالأرض في الظاهر مبسوطة ، وفي الحقيقة مستديرة ، لقوله تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٣] والفلك : اسم لشيء مستدير ، وهي على أي حال مخلوقة بقدرة الله ، لا بالطبيعة ، وهي فضاء والفضاء لا نهاية له ، ولا تزول إلا بقدرة الله تعالى.

وليس لها عمد أصلا ، بدليل رؤية الناس لها غير معمودة. وقيل : إن لها عمدا غير مرئية ، والله عمدها بعمد لا ترى ، وهي إمساكها بقدرته.

والخلاصة : أنه تعالى خلق السموات بغير أعمدة تستند إليها ، بل هي قائمة بقدرة الله تعالى.

﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي وجعل في الأرض جبالا شوامخ ثوابت أرست الأرض وثقلتها ؛ لئلا تضطرب بأهلها ، وتغمرها مياه البحار والمحيطات المحيطة بها ، والتي تكوّن أكثر الكرة الأرضية.

﴿وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ﴾ أي وذرأ فيها ونشر ووزع من أصناف الحيوان التي لا يحصي عددها ، ولا يعلم أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأنزلنا من السحاب مطرا يكون سببا لإنبات كل صنف كريم ، أي حسن المنظر ، كثير المنفعة.

ثم وبخ الله تعالى أولئك المشركين الذين يتركون عبادة الخالق ويشتغلون بعبادة المخلوق ، فقال :

﴿هذا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي هذا الذي ذكر من المخلوقات هو من خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ، والخلق بمعنى المخلوق ، فأخبروني أيها الكفرة ماذا خلق الذين تعبدونهم من غيره من الأصنام والأنداد. وقوله : ﴿خَلْقُ﴾ واقع على هاء محذوفة ، تقديره : فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ، أو أروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه.

وبعد توبيخهم على شركهم ، وصفهم تعالى بما يترتب عليه وهو الضلال ، فهم

في شركهم وعبادتهم مع الله غيره في ضلال واضح ، فقال : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي بل هؤلاء المشركين بالله العابدون معه غيره في جهل وعمى وانحراف وكفر بيّن واضح ظاهر ، لا خفاء به ، ولا اشتباه فيه لمن تأمله ، جعلهم في غاية الضلال الذي ليس بعده ضلال.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ الدليل على وجود الله وقدرته العظمى وحكمته البالغة : هو خلق السموات بغير أعمدة تستند إليها ، وإنما أمسكها الله بقدرته وإرادته ؛ وخلق الأرض ذات الجبال الشوامخ الثوابت لئلا تضطرب بأهلها ؛ وجعلها ذات أنس بما وزّع فيها من أصناف الحيوان في البر والبحر والجو ، ذوات الأشكال المختلفة ، والمناظر البديعة ، والأصوات المختلفة ؛ وإنزال الأمطار عليها لإنبات النباتات البهية المنظر ، البديعة التكوين ، الكثيرة المنافع ، سواء بثمرها إن كانت مثمرة ، أو بظلها المريح وخضرتها الممتعة للنظر والمفرحة للنفس ، أو بجعلها أسبابا لزيادة المطر.

٢ ـ أكد تعالى قدرته الخلاقة بأن هذا المذكور المعاين هو مخلوق الله من غير شريك ، ثم تحدى ووبخ قائلا : أخبروني معاشر المشركين عما خلقت الآلهة المزعومة من الأصنام والأنداد ، ثم وصفهم بالوصف الملازم لهم : وهو أن المشركين في خسران ظاهر.

قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾

الإعراب :

﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ إِذْ﴾ : ظرف متعلق بفعل مقدر ، أي اذكر إذ قال لقمان. و ﴿لُقْمانُ﴾ : ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والألف والنون الزائدتين ، كعثمان وعمران.

﴿وَهْناً﴾ منصوب بحرف جر محذوف ، تقديره : حملته أمه بوهن ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه. أو حال من فاعل ﴿حَمَلَتْهُ﴾ على التأويل بالمشتق ، أي حملته أمه حال كونها ذات وهن وعلى وهن أي ذات ضعف على ضعف متتابع.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ منصوب بحرف جر محذوف ، أي بأن اشكر ، وقيل : أن : مفسرة بمعنى أي ، كقوله تعالى : ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ [ص ٣٨ / ٦] ولا موضع لها من الإعراب.

﴿إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِثْقالَ﴾ خبر تكون الناقصة ، أي إن تكن الخصلة الموزونة مثقال حبة. وعلى قراءة الرفع فاعل تكون التامة ، وأنث ﴿فَتَكُنْ﴾ وإن كان المثقال مذكرا ، لاكتساء المضاف التأنيث من المضاف إليه ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، وكقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠].

﴿مَرَحاً﴾ مصدر منصوب في موضع الحال ، كقولهم : جاء زيد ركضا.

البلاغة :

﴿يَشْكُرْ﴾ و ﴿كَفَرَ﴾ بينهما طباق.

﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ لَطِيفٌ خَبِيرٌ فَخُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعيل وفعول ، أي كثير الغنى والحمد والفخر.

﴿بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بالأم.

﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ، أي إليّ لا إلى غيري.

﴿إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ من باب التمثيل ، مثل بذلك لبيان سعة علم الله ودقته وشموله جميع الأشياء حقيرها وجليلها.

﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ من باب التتميم ، تمم خفاء الأشياء في نفسها بخفاء مكانها.

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ مقابلة بين اللفظين.

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه الرافعين أصواتهم برفع الحمير أصواتهم ، ولم يذكر أداة التشبيه ، وإنما أورده بطريق الاستعارة للمبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت.

المفردات اللغوية :

﴿لُقْمانَ﴾ هو كما ذكر البيضاوي لقمان بن باعورا من أولاد آزر ، ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، أسود من سودان مصر من النوبة ، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم ، آتاه الله الحكمة ، أي العقل والفطنة والعلم والإصابة في القول ، والجمهور على أنه كان حكيما ، ولم يكن نبيا. من أقواله : «الصمت حكم وقليل فاعله» وقيل له : أي الناس شر؟ قال : الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئا.

﴿الْحِكْمَةَ﴾ هي في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة ، على قدر طاقتها ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي بأن اشكر ، أو أي اشكر ما أعطاك من الحكمة ، والشكر : الثناء على الله تعالى وطاعته فيما أمر به ، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير ﴿فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه وثواب شكره عائد له وهو دوام النعمة واستحقاق المزيد منها. ﴿غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ، لا يحتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد ، وإن لم يحمد ، ومحمود في صنعه ، نطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ﴾ أي واذكر ، واسم ابنه : أنعم ، أو أشكم ، أو ماتان أو ثاران في قول السهيلي ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ العظة : تذكير بالخير بأسلوب رقيق يرقّ له القلب ﴿يا بُنَيَ﴾ التصغير للإشفاق والتحبب ﴿إِنَّ الشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وكون الشرك ظلما ؛ لأنه تسوية بين المنعم وحده وغير المنعم ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ﴾ أي أمرناه وألزمناه ﴿بِوالِدَيْهِ﴾ أي بأن يبرهما ﴿وَهْناً﴾ أي بوهن ، أي ضعف ﴿عَلى وَهْنٍ﴾ أي تضعف ضعفا فوق ضعف ، من الحمل ، فالطّلق ، فالولادة ﴿وَفِصالُهُ﴾ أي فطامه ﴿فِي عامَيْنِ﴾ في انقضاء عامين ، وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ﴾ تفسير لوصيّنا ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع ، فأحاسبك على الشكر أو الكفر.

﴿ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ مطابق للواقع ﴿فَلا تُطِعْهُما﴾ في ذلك ﴿مَعْرُوفاً﴾ أي بالمعروف وهو البر والصلة ، أو صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ﴾ أي اتبع في الدين طريق من رجع إلي بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. و ﴿أَنابَ﴾ رجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أخبركم بأعمالكم ، وأجازيكم على الإيمان والكفر. والآيتان : ﴿وَوَصَّيْنَا .. وَإِنْ جاهَداكَ ..﴾ معترضتان ضمن وصية لقمان ، تأكيدا لما فيها من النهي عن الشرك ، كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به.

﴿إِنَّها إِنْ تَكُ﴾ أي إن الخصلة السيئة أو الحسنة ﴿مِثْقالَ حَبَّةٍ﴾ وزن أصغر شيء ﴿مِنْ

﴿خَرْدَلٍ﴾ وزن حبة خردل ﴿فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أخفى مكان فيهما ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ فيحاسب عليها ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ، يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ بمكانها ، عالم بكنه الأشياء وحقائقها ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ﴾ من الشدائد ، وبسبب الأمر والنهي ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ المذكور من كل ما أمر به ونهى عنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها ، أو من الأمور المعزومة التي قطعها الله قطع إيجاب ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تمله عنهم ولا توهّم صفحة وجهك ، كما يفعل المتكبرون ، والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ، مأخوذ من الصّعر ، وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه ﴿مَرَحاً﴾ خيلاء وبطرا ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ أي يعاقب كل متبختر في مشيه ، فخور على الناس. وهو علة للنهي. والمختال : فاعل الخيلاء ، وهي التبختر في المشي كبرا ، والفخور من الفخر : وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسط فيه غير مختال ولا مستضعف ، وغير مسرع ولا مبطئ وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وهو ضعيف : «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» والمقصود بقول عائشة في عمر رضي الله عنه : «كان إذا مشى أسرع» أنه يسير ما فوق دبيب المتماوت ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي أنقص منه وأقصر أو اخفض ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ﴾ أي أقبحها وأزعجها وأصعبها على السامع ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أوله زفير وآخره شهيق.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى فساد اعتقاد المشركين وأن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة والعلم المرشد إلى الإقرار بوحدانيته ، وإن لم يكن هناك نبوة ، فإن لقمان توصل إلى إثبات التوحيد وإطاعة الله والتزام مكارم الأخلاق دون نبي ولا رسول.

وهذا إشارة إلى أن اتباع النبي ﷺ لازم فيما لا يعقل معناه ، إظهارا للتعبد ، ولازم من باب أولى فيما يدرك بالعقل معناه.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي وتالله لقد أعطينا لقمان [1] الحكمة وهي التوفيق

---

(١) روى ابو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «اتخذوا السودان ، فإن .

إلى العمل بالعلم والفهم ، وشكر الله وحمده على نعمه وأفضاله ، وحب الخير للناس ، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير والنفع.

وهذا دليل على أن لقمان الحكيم هداه الله إلى المعرفة الصحيحة ، من غير طريق النبوة.

ومن يشكر الله على ما منحه وأعطاه ربه ، فيطيعه ويؤدي فرضه ، فإنما يحقق النفع والثواب لنفسه ، وينقذها من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ [فصلت ٤١ / ٤٦] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٤٤].

ومن جحد نعمة الله عليه ، فأشرك به غيره ، وعصى أوامره ، فإنه يسيء إلى نفسه ، ولا يضر ربّه ، فإن الله غني عن العباد وشكرهم ، لا يتضرر بذلك ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو المحمود في السماء والأرض بلسان الحال أو المقال ، وإن لم يحمده أحد من الناس.

ثم ذكر تعالى وصية لقمان (وهو كما ذكر ابن كثير لقمان بن عنقاء بن سدون) لابنه (وهو ثاران في قول السهيلي والطبري والقتبي) فقال :

﴿وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ ، وَهُوَ يَعِظُهُ : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

واذكر حين أوصى لقمان ابنه بوصية أو موعظة ، حرصا عليه ؛ لأن الأب يحب ابنه وهو أشفق الناس عليه ، فقال له : يا ولدي ، اعبد الله ولا تشرك به شيئا ، فإن الشرك أعظم الظلم ، أما إنه ظلم فلكونه وضع الشيء في غير موضعه ، وأما كونه أعظم الظلم فلتعلقه بأصل الاعتقاد وتسويته بين الخالق والمخلوق ، وبين المنعم وحده وبين غير المنعم أصلا ، وهي الأصنام والأوثان.

. ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن» قال الطبراني : أراد الحبش (تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٤٧).

والآية عطف على معنى ما سبق ، وتقديره : ولقد آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه ، وحين جعلناه واعظا لغيره.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت آية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

ثم أمر الله تعالى ببرّ الوالدين ، جريا على عادة القرآن ، فإنه كثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين الأمر بعبادة الله واجتناب الشرك وبين الأمر ببرّ الوالدين ، كما في قوله سبحانه : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٣] ، فقال :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ، وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي وأمرنا الإنسان وألزمناه ببرّ والديه وطاعتهما ، وأداء حقوقهما ، ولا سيما برّ الأم التي حملته في ضعف فوق ضعف ، من الحمل إلى الطلق إلى الولادة والنفاس ، ثم الرضاع والفطام في مدة عامين والتربية ليلا ونهارا ، كما قال تعالى : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣] وقد بيّن الحديث النبوي أحقية الأم بالبرّ ، فأوصى بها ثلاث مرات ، ثم أوصى بالأب في المرة الرابعة ، فجعل له ربع المبرة.

لقد وصيناه ، أي أمرناه وعهدنا إليه بالشكر لي أي لله على نعمتي عليك ، وبالشكر للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك ، ومصدر الإحسان إليك بعد الله تعالى. وقوله تعالى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ لبيان علة الوصية أو وجوب امتثالها ، و ﴿الْإِنْسانَ﴾ هنا في رأي الزمخشري تفسيرية ، والجملة بيان لفعل التوصية ، إذ هو متضمن معنى القول ، أي قلنا له : ﴿اشْكُرْ لِي﴾.

وكذا علة الأمر بطاعة الله وطاعة الأبوين أو السبب فيه : هو أن المصير أو المرجع إلي ، فسأجزيك على ذلك أوفر الجزاء في الآخرة. وهذا تهديد وتخويف من عاقبة المخالفة والعقوق والعصيان ، كما هو وعد بالجزاء الحسن على امتثال أمر الله وطاعته وبرّ الوالدين وصلتهما.

وهذه الآية وما بعدها من كلام لقمان الذي وصى به ابنه ، أخبر الله عنه بذلك ، فلما بيّن لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه ، كان ذلك حثّا على طاعة الله ، ثم بيّن أن الطاعة تكون للأبوين ، وبيّن السبب في ذلك.

وقيل : هو من كلام الله قاله للقمان ، أي قلنا له : ﴿اشْكُرْ﴾ ، وقلنا له : ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ ، وقيل : هذه الآية اعتراض بين وصية لقمان تؤكد النهي عن الشرك ، قال القرطبي: والصحيح أن هذه الآية وآية العنكبوت السابقة : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً﴾ [٨] نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية التي حلفت ألا تأكل حتى يرتد سعد ، وعليه جماعة من المفسرين [١]. والمختار عند المفسرين أن هذه الآية إلى آخر الآيتين بعدها كلام مستأنف من الله تعالى ، جاء معترضا بين وصايا لقمان لابنه ، تأكيدا للنهي عن الشرك.

ثم قيّد الله طاعة الأبوين مستثنيا حقوقه تعالى ، فقال :

﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما﴾ أي وإن ألحّ والداك في الطلب ، وحرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما في دينهما ، وتشرك بي في عبادتي غيري مما لا تعلم أنه شريك لي ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا تطعهما فيما أمراك به من الشرك أو المعصية ، فإنه لا طاعة لمخلوق في

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٦٣ ، البحر المحيط : ٧ / ١٨٦ وما بعدها.

معصية الخالق. والمراد بنفي العلم نفي الشريك ، أي لتشرك بي ما ليس بشيء وهي الأصنام.

﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يمنعك عدم طاعتك لأبويك في الشرك والمعصية من أن تصاحبهما في الدنيا بالمعروف ، بأن تحسن إليهما ، فتمدهما بالمال عند الحاجة ، وتطعمهما وتكسوهما ، وتعالجهما عند المرض ، وتواريهما عند الموت في القبور ، وتبرّ صديقهما ، وتفي بعهدهما. وقوله ﴿مَعْرُوفاً﴾ أي صحابا معروفا على مقتضى الكرم والمروءة ، أو مصاحبا حسا بخلق جميل ، وحلم واحتمال ، وبرّ وصلة.

وقوله : ﴿فِي الدُّنْيا﴾ تهوين شأن الصحبة ، فهي لأيام محدودة ، وسنوات معدودة ، سريعة الزوال والانقضاء. والمعروف هنا : ما يعرفه الشرع ويرتضيه ، وما يقتضي به الكرم والمروءة في إطعامهما وكسوتهما والإحسان إليهما في القول والفعل.

وإياك والمحاباة في شأن الدين ، فالزم سبيل المؤمنين التائبين في دينك ، ولا تتبع في كفرهما سبيلهما فيه ، وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما في الدنيا.

ثم إليّ مرجعك ومرجعهما ، فأجازيك على إيمانك ، وأجازيهما على كفرهما ، وأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر. والجملة مقررة لما قبلها ومؤكدة لوجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما في غير معصية.

ثم أخبر تعالى عن بقية وصايا لقمان الحكيم النافعة ، ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال:

١ . ﴿يا بُنَيَّ ، إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ، يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي يا ولدي ، إن

الحسنة والسيئة أو المظلمة والخطيئة ، لو كانت تساوي وزن أو مثقال حبة خردل ، ولو كانت في أخفى مكان كجوف صخرة ، أو في أعلى مكان كالسماوات ، أو في أسفل موضع كباطن الأرض ، لأحضرها الله يوم القيامة حين الحساب ، ووزن الأعمال ، والمجازاة عليها خيرا أو شرا ، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٧] وقال سبحانه : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة ٩٩ / ٧ ـ ٨]. وقوله : ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ يراد به المبالغة والانتهاء في التفهيم.

إن الله لطيف العلم ، يصل علمه إلى كل شيء خفي ، فلا تخفى عليه الأشياء ، وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، خبير عالم بكنه الأشياء ، يعلم ظواهر الأمور وبواطنها.

والمقصود من الآية بيان سعة علم الله ، فهو يعلم الغيب والشهادة ، ويطلع على جميع أعمال عباده ، لموافاتهم بجزائها يوم القيامة.

٢ ـ ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ ، إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي بعد أن منعه من الشرك ، وخوفه بعلم الله وقدرته ، أمره بصالح الأعمال اللازمة للتوحيد وهي الصلاة أي العبادة لوجه الله مخلصا ، وإقامتها أي أداؤها كاملة بحدودها وفروضها وأوقاتها ، وهي عماد الدين ، ودليل الإيمان واليقين ، ووسيلة القربى إلى الله وتحقيق رضوانه ، كما أنها تساعد على اجتناب الفحشاء والمنكر ، وصفاء النفس.

والأمر بالمعروف أي أمر النفس والغير بما هو معروف شرعا وعقلا ، كمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، مما يهذب النفس ويدعو إلى التحضر والتمدن ، كما قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ [الشمس ٩١ / ٩ ـ ١٠].

والنهي عن المنكر ، أي منع النفس والآخرين من المعاصي والمنكرات المحرّمة شرعا والقبيحة عقلا ، والتي تغضب الله ، وتوجب عذاب جهنم.

والصبر على الأذى والشدائد والأوامر الإلهية ، فإن الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر يؤذى عادة ، فطلب منه الصبر. وقد بدئت الوصايا بالصلاة ؛ لأنها عماد الدين وختمت بالصبر ؛ لأنه أساس المداومة على الطاعات ، وعماد رضوان الله ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة ٢ / ٤٥].

﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك المذكور مما أمر الله به ونهى عنه ، ومنه الصبر على أذى الناس ، لمن الأمور الواجبة المعزومة ، أي المقطوعة قطع إيجاب وإلزام [١] ، ويكون المصدر «عزم» بمعنى المفعول.

وبعد أمره بما يكمل نفسه وغيره ، نهى عن أشياء وحذر من أشياء ، فقال :

١ . ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبرا واحتقارا ، والمعنى : لا تتكبر فتحتقر عباد الله ، ولا تتكلم وأنت معرض ، بل كن متواضعا سهلا هينا لينا منبسط الوجه ، مستهل البشر ، كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري : «لا تحقرنّ من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار ، فإنها من المخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله».

٢ . ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ أي لا تسر في الأرض مختالا بطرا متبخترا ، جبارا عنيدا ، فإن تلك المشية يبغضها ، والله يكره كل مختال معجب في نفسه ، فخور على غيره ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾

---

(١) ومنه الحديث : «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل» أي لم يقطعه بالنية ، ومنه الحديث الآخر : «إن الله يحب أن يؤخذ برخصة ، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه».

[الإسراء ١٧ / ٣٧]. وقال ﷺ فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن عمر : «من جرّ ثوبه خيلاء ، لا ينظر الله إليه يوم القيامة». والفخور : هو الذي يعدد ما أعطي ، ولا يشكر الله تعالى». وروى ابن أبي الدنيا عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا احضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة» وروى أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ربّ ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال : اللهم إني أسألك الجنة ، لأعطاه الله الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئا».

وروى يحيى بن جابر الطائي عن غضيف بن الحارث قال : جلست إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فسمعته يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يا ابن آدم ، ما غرّك بي! ألم تعلم أني بيت الوحدة! ألم تعلم أني بيت الظلمة! ألم تعلم أني بيت الحق! يا ابن آدم ما غرّك بي! لقد كنت تمشي حولي فدّادا (مختالا متكبرا).

٣ . ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي امش مشيا متوسطا عدلا ، ليس بالبطيء المتثبّط المتماوت الذي يظهر الضعف تزهدا ، ولا بالسريع المفرط ، الذي يثب وثب الشيطان ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وهو ضعيف : «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» ، وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنها : «كان إذا مشى أسرع في مشيته» فالمراد السرعة التي تتجاوز دبيب المتماوتين. وقد رأى عمر رجلا متماوتا ، فقال له : «لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله» ، ورأى رجلا مطأطئا رأسه ، فقال له : «ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بمريض».

٤ . ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي لا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ، وأخفضه ، فإن شدة الصوت تؤذي آلة السمع ، وتدل على الغرور والاعتداد بالنفس وعدم الاكتراث بالغير ، واعتدال الصوت أوقر

للمتكلم ، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه ، وقد علل النهى عن رفع الصوت بأنه يشبه صوت الحمير في علوه ورفعه ، وإن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، وهو بغيض إلى الله تعالى ، والسبب أن أوله زفير وآخره شهيق.

وفيه دلالة على ذمّ رفع الصوت من غير حاجة ، لأن التشبيه بصوت الحمار يقتضي غاية الذمّ ، وقد ورد في السّنة أيضا ما يدل على التنفير منه ، روى الجماعة إلا ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إذا سمعتم صياح الديكة ، فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير ، فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطانا».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن الشرك بالله أو اتخاذ عبد من عباده أو صنم من الأصنام شريكا في العبادة مع الله ظلم عظيم ، بل هو أعظم الظلم ، لما فيه من الافتئات على الخالق الرازق ، وسخف هذا الاعتقاد ، وخلوة من أي فائدة للمشرك. وقد حققت وصية لقمان لابنه هدفها ، فقد ورد في التفسير أن ابنه كان مشركا ، فوعظه وكرر الوعظ عليه حتى أسلم.

٢ ـ برّ الوالدين وطاعتهما في معروف غير معصية فرض واجب على الإنسان ، مقابلة للمعروف بمثله ، ووفاء للإحسان ، وتقدير الفضل ، واحترام نظام الأسرة. وأمر الله بالإحسان إلى الوالدين عام في الوالدين المسلمين والكافرين ، وأن طاعة الوالدين على أي دين كانا واجبة.

غير أن طاعة الأبوين غير مطلوبة ، بل هي حرام في ارتكاب معصية كبيرة كالإشراك بالله ، وترك فريضة عينية ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وتلزم طاعتهما في المباحات ، وتندب الطاعة في ترك المندوبات ومنها الجهاد

الكفائي ، وإجابة الأم في الصلاة النافلة إذا شقّ عليها الانتظار أو خيف هلاكها.

وتختصّ الأم بزيادة البرّ والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها ، وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق : الحمل ، والرضاع ، والوضع ، جعل لها ثلاثة أرباع المبرّة ، وللأب الربع ، قال ﷺ لرجل سأله فيما رواه البخاري وغيره : «من أبرّ؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : أمّك ، قال : ثم من؟ قال : أبوك».

٣ ـ أقصى مدة الرضاع في أحكام النفقات والتحريم بالرضاع عامان ، وقصر مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم على عامين هو رأي العلماء غير أبي حنيفة. ورأى أبو حنيفة أن مدة الرضاع المحرم ثلاثون شهرا لقوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾.

واستنبط العلماء أيضا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر من مجموع آيتين ، قال تعالى في آية : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٣] ، وقال في آية أخرى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف ٤٦ / ١٥].

٤ ـ الشكر لله على نعمة الإيمان وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى ، وللوالدين على نعمة التربية ، قال سفيان بن عيينة : من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

٥ ـ آية ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ دليل على جواز صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، وإلانة القول والدعوة إلى الإسلام برفق. ويؤيده أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت للنبي ﷺ فيما رواه البخاري

ومسلم . وقد قدمت عليها أمها من الرضاعة ، أو خالتها . : «يا رسول الله ، إن أمي قدمت علي ، وهي راغبة ، أفأصلها؟ قال : نعم» قال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتقدم على أسماء لو لا حاجتها.

ووالدة أسماء : هي قتيلة بنت عبد العزّى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

ودلّ قوله تعالى : ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾ على أن الولد لا يستحق القصاص على أحد والديه ، وأنه لا يحدّ له إذا قذفه ، ولا يحبس له بدين عليه ، وأن على الولد نفقة والديه عند الحاجة.

٦ ـ قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ﴾ المراد به العموم ، كما هو ظاهر اسم الموصول ، فهو وصية لجميع العالم ، والمأمور الإنسان ، وهي سبيل الأنبياء والمؤمنين الصالحين. وأناب معناه : مال ورجع إلى الشيء ، والمراد هنا : تاب من الشرك ، ورجع إلى الإسلام ، واتبع النبي ﷺ ، ورجع إلى الله بالتوحيد والإخلاص بالطاعة ، لا سبيل الوالدين اللذين يأمران بالشرك. وهذا الأمر باتباع السبيل دليل على صحة إجماع المسلمين ، وأنه حجة لأمر الله تعالى إيانا باتباعهم ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء ٤ / ١١٥].

٧ ـ قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ..﴾ توعد من الله عزّ وجلّ ببعث من في القبور ، والرجوع إليه للجزاء والاعلام بصغير الأعمال وكبيرها.

٨ ـ قوله تعالى : ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ ..﴾ قصد به إعلام قدرة الله تعالى ، وتخويف منه ورجاء ، فمهما تكن الحسنة أو الخطيئة أو الطاعات والمعاصي مثقال حبة خردل يأت بها الله ، لأن الحسّ لا يدرك ثقلا للخردلة ، إذ لا ترجّح ميزانا.

وفسّر القرطبي الآية بأنه لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في أي مكان في العالم العلوي (السموات) والسفلي (الأرض) جاء الله بها ، حتى يسوقها إلى من هي رزقه ؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتّباع سبيل من أناب إلي. ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود فيما رواه البيهقي في القدر ، وهو ضعيف : «لا تكثر همّك ، ما قدّر يكن ، وما ترزق يأتك». وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له.

٩ ـ في الآية تعظيم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا يشمل جميع الطاعات والفضائل ، والحضّ على تغيير المنكر والصبر ، وإن نال الإنسان ضرر ، وفيه إشعار بأن المغيّر يؤذى أحيانا.

كما أن الصبر مندوب إليه عند التعرض لشدائد الدنيا كالأمراض وغيرها ، وعلى الإنسان ألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عَزَّوَجَلَّ ، فإن من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره.

وإن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ، أي مما عزمه الله وأمر به ، وجعله من الأمور الواجبة.

١٠ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**﴾ على تحريم التكبر ، ومعنى الآية : ولا تمل خدك للناس تكبرا عليهم ، وإعجابا بالنفس ، واحتقارا لهم ، وأقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، وإذا حدّثك أصغر الناس ، فاصغ إليه حتى يكمل حديثه ، كما كان يفعل النبي ﷺ.

والخلاصة : لا تدبر عن المتكلم ، كما روى مالك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» فالتدابر والإعراض وترك

الكلام والسلام من المحظورات.

١١ ـ يحرم على الإنسان أن يمشي في الأرض متبخترا متكبرا ، بل يحرم التكبر في كل الحالات.

١٢ ـ يندب للإنسان القصد أي التوسط في المشي ، وهو ما بين الإسراع والبطء ، فلا تدبّ دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثب الشيطان.

١٣ ـ كما يندب إليه عدم التكلف في رفع الصوت ، والتكلم حسب الحاجة والمعتاد ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلّف يؤذي ، والمراد بذلك كله التواضع.

وقد شبّه رفع الصوت الزائد عن الحاجة بصوت الحمير ، والحمار ونهاقه مثل في الذمّ البليغ والشتيمة.

وفي الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية.

والآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم ، أو بترك الصياح جملة ، وقد نهى الله عنه ، لأنه من أخلاق الجاهلية وعاداتها ، فقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك.

وتلك إشارة إلى التوسط في جميع الأفعال والأقوال.

والخلاصة : جمعت وصية لقمان بين فضائل الدين والآخرة ومكارم الأخلاق في الدنيا ، واشتملت تسعة أوامر ، وثلاثة نواه ، وسبع علل أو أسباب :

أما الأوامر : فهي الأمر ببرّ الوالدين ، والشكر لله وللوالدين ، ومصاحبة الوالدين في الدنيا بالمعروف ، واتباع سبيل الأنبياء والصالحين ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والاعتدال في المشي ، وإخفاض الصوت.

وأما النواهي : فهي النهي عن الشرك ، والنهي عن تصعير الخد (الإعراض عمن تكلم تكبرا) والنهي عن المشي مرحا (اختيالا وتبخترا).

والتعليلات أو الأسباب هي :

١ . ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

٢ . ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٣ . ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٤ . ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

٥ . ﴿إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

٦ . ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾.

٧ . ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾

الإعراب :

﴿نِعَمَهُ ظاهِرَةً﴾ أراد : نعم الله ، جمع نعمة ، و ﴿ظاهِرَةً﴾ حال. وقرئ : نعمة ، ونعمته.

البلاغة :

﴿ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ بينهما طباق.

﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ﴾ إنكار وتوبيخ ، مع الحذف ، أي : أيتبعونهم ولو كان الشيطان. إلخ ...

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ﴾ أي ألم تعلموا أيها المخاطبون أن الله ذلل لكم جميع ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ، بأن جعله أسبابا محصلة لمنافعكم. ﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به ، كالثمار والأنهار والدواب والمعادن وما لا يحصى. ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أكمل وأوسع وأتمّ. ﴿نِعَمَهُ﴾ جمع نعمة : وهي كل نفع قصد به الإحسان. ﴿ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه ، فالظاهرة : كل ما يعلم بالمشاهدة كحسن الصورة وتسوية الأعضاء ، والباطنة : ما لا يعلم إلا بدليل ، أو لا يعلم أصلا ، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ، ولا يهتدي إلى العلم بها!!

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ بعض الناس كأهل مكة في صدر الإسلام. ﴿مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل أو بغير حجة. ﴿وَلا هُدىً﴾ أي ولا هداية من رسول. ﴿وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أنزله ، بل بالتقليد. ﴿بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ أي ما سار عليه الأسلاف ، وهو منع صريح من التقليد في الأصول كالاعتقاد. ﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي أيتبعونهم ، ولو دعاهم الشيطان إلى موجبات عذاب جهنم ، وهو الإشراك أو التقليد ، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، أي لا تبعوه ، والاستفهام للإنكار والتعجيب.

المناسبة :

بعد أن استدل الله تعالى بقوله : ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ على الوحدانية وذكر أن لقمان عرف ذلك بالحكمة ، لا بالنبوة ، عاد إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك ، مع مشاهدتهم دلائل التوحيد عيانا في عالم السموات والأرض ، وتسخير ما فيها لمنافعهم ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة.

التفسير والبيان :

﴿أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللهَ سَـخَّرَ لَكُـمْ مـا فِي السَّـماواتِ وَمـا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْـبَغَ عَلَـيْكُمْ نِعَمَـهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس دلائل التوحيد الناطقة بوحدانية الله سبحانه في كل شيء ، وإنعامه عليكم ، فهو الذي ذلل لكم جميع ما في السموات من شمس وقمر ونجوم ، تستضيئون بها في الليل والنهار ، وما خلق فيها من سحاب ينزل منه المطر ، لسقي الإنسان والحيوان والنبات ، ويسر لكم جميع ما في الأرض من قرار ومعادن ، وأنهار وبحار ، وأشجار وزروع ، وثمار ، ونحو ذلك من المنافع الغذائية ، وأكمل وأتم عليكم نعمه الظاهرة والباطنة أي المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ، ومنها إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وإزالة الشّبه والعلل والأعذار.

وقيل : الظاهرة : الإسلام ، والباطنة : الستر ؛ قال النبي ﷺ لابن عباس ـ وقد سأله عن هذه الآية ـ : «الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سيء عملك».

وقيل : الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات.

ومع هذا كله ، ما آمن الناس كلهم ، فقال تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلا هُدىً ، وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أي وبالرغم من ثبوت الألوهية بالخلق والإنعام ، فهناك فريق من الناس يجادل في توحيد الله وصفاته وإرساله الرسل ، كزعماء الوثنية في مكة وغيرها ، بغير دليل معقول ، ولا مستند أو حجة صحيحة على يد رسول ، ولا كتاب مأثور صحيح ينير الطريق الحق.

فقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ معناه : لا من علم واضح ، من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب مبين واضح.

وإنما حجتهم الوحيدة هو التقليد الأعمى ، واتباع الهدى والشيطان ، لذا تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة ، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين فيما اعتقدوه من دين. وهذا في غاية القبح ، فإن النبي ﷺ يدعوهم إلى كلام الله الهادي إلى الحق والخير ، وهم يأخذون بكلام آبائهم.

وهذا منع صريح من التقليد في أصول العقيدة ، لذا وبخهم الله على سوء مقالتهم فقال :

﴿أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ؟﴾ أي أيتبعونهم بلا دليل ، ولو كان اعتقادهم قائما على الهوى وتزيين الشيطان الذي يدعوهم إلى عذاب جهنم ، والله يدعو إلى النجاة والثواب والسعادة؟! وهذا كقوله تعالى : ﴿أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٧٠] أي ولو كان آباؤهم المحتجون بصنيعهم على ضلالة ، فلا عقل عندهم ولا هداية معهم؟! وهم خلف فيما كانوا فيه.

وهذا استفهام على سبيل التعجب والإنكار ، يتضمن التهكم عليهم ، وتسفيه عقولهم ، والسخرية من آرائهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ الدليل على وحدانية الله الخلق والإنعام ، فإنه خلق السموات بما فيها من شمس وقمر ونجوم وملائكة ، وذللها للناس ، جالبة لهم المنافع ، وخلق الأرض وما فيها من جبال وأشجار وثمار ومعادن وماء وهواء وبخار وذرة وما لا يحصى ، وكلها لنفع الإنسان. وأكمل النعم وأتمها على بني آدم ، سواء كانت ظاهرة مشاهدة محسوسة ، كالصحة وكمال الخلقة والمال والجاه والجمال ، وشرائع الإسلام ، أو معقولة مجردة كالمعرفة والعقل وحسن اليقين بالله تعالى ، وسواء كانت معروفة أو ستعرف علميا مع تطور الاكتشافات العلمية المتجددة في كل عصر.

٢ ـ بالرغم من كثرة الأدلة الدالة على توحيد الله من الخلق والإنعام ، فإن فريقا من الناس كالنّضر بن الحارث وأبيّ بن خلف يجادلون أو يخاصمون في التوحيد بغير حجة عقلية أو نقلية من سنة رسول أو بيان كتاب مضيء نيّر ، وإنما الحجة هي الشيطان فيما يلقى إليهم ، وإلا تقليد الأسلاف ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢١].

٣ ـ إذا أمر المشركون باتباع ما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات والشرائع المطهرة ، لم يجدوا جوابا إلا التمسك بتقليد الآباء والأجداد ، وبما يزين لهم الشيطان من الوساوس والأهواء ، فإنهم يتبعونه على ضلال.

سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾

البلاغة :

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ﴾ مجاز مرسل في ﴿وَجْهَهُ﴾ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ تشبيه تمثيلي ، شبّه من تمسك بالإسلام بمن أراد الصعود إلى قمة جبل ، فتمسك بأوثق حبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

﴿وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر.

﴿عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارة الغلظ للشدة ؛ لأنه إنما يكون للمادة الكثيفة ، فاستعير للمعنى.

المفردات اللغوية :

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ﴾ أي يفوض أمره إليه ، ويقبل على طاعته ، ويخلص عبادته إليه. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ متقن عمله. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ تعلق بأوثق وأمتن ما يتعلق به ، وهو الطرف الأوثق الذي يؤمن انقطاعه ، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى شاهق جبل ، فتمسك بأوثق عرا الحبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مرجعها ؛ إذ الكل صائر إليه.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ أي فلا يضرك في الدنيا والآخرة ، ولا تهتم بكفره. ﴿إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي مصيرهم إلى الله في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ نجازيهم بأعمالهم بالإهلاك والتعذيب. ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بحديث النفس الكائن في الصدور كما أنه عليم بما في غيرها ، فمجاز عليه. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ نمتعهم في الدنيا أيام حياتهم تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلزمهم في الآخرة. ﴿إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ ثقيل عليهم ، وهو عذاب النار ، لا يجدون عنه محيصا.

المناسبة :

بعد بيان حال الكافر المجادل في الله جهلا وعنادا ، أبان الله تعالى حال المسلم ، وأخبر بأن منتهى الأمور صائرة إليه ، ثم أردفه بتسلية الرسول ﷺ على ما يلقاه من إعراض المشركين عن دعوته عنادا ، وهددهم بالعقاب الشديد في الدنيا والآخرة ، مع التنبيه بأن عذاب الآخرة أشد وأثقل.

التفسير والبيان :

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي ومن يخلص العبادة والعمل إلى الله ، وينقاد لأمره ، ويتبع شرعه ، مع إتقان عمله باتباع ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه وزجر ، فقد تمسك بالحبال الواثقة ، أي تعلق بأوثق الوسائل الموصلة إلى رضوان الله ، وسيلقى الجزاء الحسن على عمله ، لأن مصير المخلوقات كلهم إلى الله ، فيجازي المتوكل عليه ، المخلص عبادته إليه أحسن الجزاء ، كما يعاقب المسيء بأشد العذاب.

ثم نصح الله رسوله بألا يهتم بكفر الكافرين ، فقال :

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لا تغتم ولا تجزع على كفر الكافرين الذين كفروا بالله ورسوله ، ولا تهتم بهم ، ولا تحزن عليهم ، فإن مصيرهم إلينا يوم القيامة وفي الدنيا ، فنجازيهم بالإهلاك والعذاب ، ولا تخفى عليه خافية منهم ، ولا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم ، فنخبرهم بما أضمرته صدورهم. وكلمة ﴿مَنْ﴾ تصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال : ﴿كُفْرُهُ﴾ ثم قال : ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ وما بعده على المعنى.

ثم بيّن مدى مقامهم في الدنيا ، فقال :

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نجعلهم يتمتعون في الدنيا بزخارفها تمتعا قليلا أو زمانا قليلا ، ثم نلجئهم ونلزمهم بعذاب شاق ثقيل شديد عليهم. والغلظ يكون في الماديات ، وأستعير للمعنى ، والمراد الشدة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أن الناس في الآخرة فريقان : فريق في الجنة ، وفريق في

السعير ، فمن أخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى ، وأتقن عمله ، بأن عبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن ربّه يراه ، فهو من الناجين الذين أخذوا موثقا متينا من الله أنه لا يعذبهم ، ومنتهى الأمور كلها ومصيرها إلى الله تعالى.

ومن أنكر وجود الله أو أنكر وحدانيته فأشرك به غيره ، فإن الله يجازيه ، والله عليم بكل ما أسرّ العبد وأعلن.

وإن بقاء العالم في الدنيا قليل ، فهم يتمتعون فيها مدة قليلة ، ثم يساقون ويلجأون ويلزمون إلى عذاب شديد ، هو عذاب جهنم.

إثبات وجود الله وسعة علمه

وشمول قدرته على البعث وكل شيء

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)

﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

الإعراب :

﴿لَيَقُولُنَ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي الأمثال ، وحذف واو الضمير لالتقاء الساكنين.

﴿وَالْبَحْرُ﴾ الواو واو الحال ، و ﴿الْبَحْرُ﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والجملة حالية ، وعامل الحال ما في ﴿أَقْلامٌ﴾ من معنى الفعل ؛ لأن (أقلاما) قام مقام (كاتبات) فكأنه قال : كاتبات والبحر يمده. ومن قرأ بالنصب ، فهو معطوف على ﴿ما﴾ أو منصوب بتقدير فعل يفسره ﴿يَمُدُّهُ﴾ وتقديره : يمد البحر يمده ، مثل : ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ﴾ [يس ٣٦ / ٣٩] أي قدرنا القمر قدرناه.

﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ خَلْقُكُمْ﴾ مبتدأ ، وكاف ﴿كَنَفْسٍ﴾ في موضع رفع خبر المبتدأ ، وتقديره : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كبعث نفس واحدة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ولا يجوز أن تعمل ﴿ما﴾ بسبب ﴿إِلَّا﴾ لأنها تشبه (ليس) في نفي الحال ، و ﴿إِلَّا﴾ تبطل منها معنى النفي ، وهو وجه الشبه الموجب للعمل ، وإذا زال وجه الشبه الموجب للعمل بطل العمل.

البلاغة :

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ خَتَّارٍ كَفُورٍ خَبِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ صيغ مبالغة ، وفيها ما يسمى توافق الفواصل أو السجع.

﴿فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر ، دل على المحذوف قوله تعالى : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَئِنْ﴾ اللام لام القسم. ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غير

الله ، بحيث اضطروا إلى الإقرار بوجوده. ﴿قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليهم بثبوت التوحيد ، وإلجائهم إلى الاعتراف بما يبطل اعتقادهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يجهلون إلزامهم بتلك الحجة. ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره. ﴿هُوَ الْغَنِيُ﴾ عن خلقه. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد ، المحمود في صنعه.

﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ أي ولو صارت جميع الأشجار أقلاما. وإنما قال ﴿شَجَرَةٍ﴾ بالإفراد دون اسم الجنس الذي هو شجر ، ليشمل كل شجرة على حدة ، حتى لا يبقى من جنس الشجر ، ولا واحدة ، إلا قد بريت أقلاما. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي والبحر المحيط يمده بسعته مدادا ، فاكتفى بذكر ﴿يَمُدُّهُ﴾ عن ذكر المداد ؛ لأنه من مدّ الدواة وأمدها. ﴿ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ﴾ أي معلوماته ، بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد ولا بأكثر من ذلك ؛ لأن معلوماته تعالى غير متناهية. ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج شيء عن علمه وحكمته.

﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ خلقا وبعثا ، أي كبعث نفس واحدة وخلقها ، إذ لا يشغله شأن عن شأن ، ولأنه يتم بكلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع. ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر ، لا يشغله إدراك شيء عن شيء. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم أيها المخاطب. ﴿يُولِجُ﴾ يدخل الليل في زمن النهار وبالعكس ، أي يضيف أحدهما إلى الآخر ، فالله يزيد في كل من الليل والنهار بما نقص من الآخر. ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ كل من الشمس والقمر النيرين يجري في فلكه. ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معلوم مقدر ، إلى نهاية دورة الشمس السنوية ، ودورة القمر الشهرية ، أو إلى يوم القيامة. ﴿بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿ذلِكَ﴾ المذكور من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع. ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته ، الواجب من جميع جهاته ، أو الثابت الألوهية. ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ﴾ أي وأن ما يعبدون من غيره هو المعدوم في حد ذاته الذي لا يوجد ، والزائل ، أو الباطل الألوهية. ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُ الْكَبِيرُ﴾ المترفع على خلقه وعلى كل شيء بالقهر ، والمتسلط عليه ، وهو العظيم.

﴿الْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿تَجْرِي﴾ تسرع. ﴿بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه وأنها تحمل الطعام والمتاع ونحوهما ، وهو استدلال آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه.

﴿لِيُرِيَكُمْ﴾ أيها المخاطبون بذلك. ﴿مِنْ آياتِهِ﴾ دلائله. ﴿لَآياتٍ﴾ علامات وعبرا. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على المشاق وعن معاصي الله ، فيتعب نفسه في التفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمته ، يعرف النعم ، ويتعرف ما نحها ، فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر.

﴿غَشِيَهُمْ﴾ علاهم وغطاهم. ﴿كَالظُّلَلِ﴾ كالظلال التي تظل من تحتها ، من جبال وسحاب وغيرها. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الدعاء بأن ينجيهم ، أي لا يدعون معه غيره بسبب ما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿مُقْتَصِدٌ﴾ متوسط بين الكفر والإيمان ، أو مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، ومنهم باق على كفره. ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا﴾ ينكرها ، ومنها الإنجاء من الموج. ﴿خَتَّارٍ﴾ غدار ، فإنه نقض للعهد الفطري. ﴿كَفُورٍ﴾ شديد الجحود للنعم.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٧):

﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ﴾ : أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٥] فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلا ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة ٢ / ٢٦٩] ، فنزلت : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ الآية.

واخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة :﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ فلما هاجر إلى المدينة أتاه أحبار يهود ، فقالوا : ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال : كلّا عنيت ، قالوا : فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : هي في علم الله قليل ، فأنزل الله : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري في كتاب العظمة وابن جرير عن قتادة قال : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فنزل : ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

نزول الآية (٢٨):

﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ﴾ : نزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي بن الأسدين ، ومنبّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبي ﷺ : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم تقول : إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة! فأنزل الله تعالى : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾.

المناسبة :

بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق السموات بغير عمد ، وبإمداد خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة ، أبان الله تعالى أن المشركين معترفون بوجود الله ، وأنهم يتضرعون إليه وحده وقت الشدة ، ثم يعودون إلى كفرهم بعد النجاة. ثم أثبت تعالى وحدانيته بملكه ما في السموات وما في الأرض ، ثم أقام الدليل على سعة علمه ، وشمول قدرته على كل شيء ، ومنه خلق الناس وبعثهم ، وتعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر في دورة محددة ، وتسيير السفن في البحار بتيسيره وتهيئة أسبابه ، علما بأن المشركين يعترفون بتلك الآيات.

التفسير والبيان :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي وتالله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله من قومك : من الذي خلق السموات والأرض؟ لأجابوا : هو الله الخالق ، فهم معترفون بأن الله خالق السموات والأرض ، غير منكرين له ، لوضوح الأمر ، وعدم وجود البديل ، بحيث اضطروا إلى إعلان هذا الاعتراف بالله ، ومع هذا فهم يعبدون معه شركاء ، يعترفون أنها مخلوقة لله ، ومملوكة له.

﴿قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي قل أيها الرسول : الحمد لله على اعترافكم ، إذ قامت الحجة عليكم بإلجائكم إليه ، وأن دلائل التوحيد واضحة ، لا يكاد ينكرها أحد ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنه ينبغي ألا يعبد مع الله غيره ، وأن هذه الحجة تلزمهم ، وتبين تناقضهم ، وأنهم لم ينتبهوا مع وجود هذا التنبيه.

وبعد انتزاع هذا الاعتراف الصريح بوجود الله وتوحيده ، استدل الله تعالى على ذلك بقوله :

﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي لله جميع ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وعبيدا وتصرفا ، وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة غيره ، لأنه الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، وهم مملوكون له ، محتاجون إليه ، وهو المحمود في الأمور كلها ، وعلى نعمه التي أنعم بها ، وعلى ما خلق وشرع.

ومنعا لإيهام قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ تناهي ملكه بحصره في الموجود في السموات والأرض ، أبان تعالى أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها ، فقال :

﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ، ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا (حبرا) وأمده سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، إن الله قوي لا يعجزه شيء ، حكيم في صنعه ، لا يخرج عن علمه وحكمته شيء ، كامل القدرة ، فيكون له مقدورات لا نهاية لها.

وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، كما لم يرد أن هناك

سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم ، والعرب تذكر السبعة والسبعين والسبع مائة ، وتريد بذلك الكثرة.

والخلاصة : أن الآية تخبر عن عظمة الله وكبريائه وجلاله وكلماته التامة ومعلوماته وأسراره التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال النبي ﷺ : «سبحانك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» فمعلوماته تعالى لا نهاية لها. ويكون المراد بكلمات الله : معلوماته ، وقيل : هي ما في المعدوم ، دون ما خرج من العدم إلى الوجود [١].

ونظير الآية : ﴿قُلْ : لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف ١٨ / ١٠٩] وليس المراد بقوله : ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر مثل فقط ، بل بأمثاله ، لأنه مفرد مضاف فيعم ، كما أن ﴿كَلِماتُ﴾ وإن كانت جمع قلة ، تفيد هنا الكثرة ، لأن جموع القلة إذا تعرفت بالألف واللام غير العهدية ، أو أضيفت ، عمّت ، وصارت لا تخص القليل ، والعام مستغرق جميع أفراده.

ولما بيّن الله تعالى كمال قدرته وعلمه وأن كلماته ومعلوماته لا يحيط بها أحد ، أوضح أن هذا الخلق غير المنحصر قد أحاط به علما ، وأنه قادر على البعث والمحشر كما قدر على الخلق أول مرة ، فقال :

﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هيّن عليه ، كما قال : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢] وقال تعالى أيضا : ﴿وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٥٠] أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشيء ، لا يحتاج

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ١٩٢

إلى تكرار الأمر وتوكيده ، وقال سبحانه : ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات ٧٩ / ١٣ ـ ١٤] فمن لا نفاد لكلماته يقول للموتى : كونوا ، فيكونوا.

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي كما أن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

وبعد بيان تسخيره تعالى ما في السموات وما في الأرض ، ذكر هنا بعض ما فيهما على وجه الخصوص ، بقوله : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ﴾ ثم ذكر بعض ما في السموات بقوله : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ثم أردفه ببعض ما في الأرض بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ألم تشاهد أن الله في شأن تعاقب الليل والنهار ، يزيد في زمن الليل على حساب النهار في الشتاء ، ويزيد في ساعات النهار على حساب الليل في الصيف ، فيأخذ من هذا ويضيفه إلى ذاك ، فيطول أحدهما ويقصر الآخر.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي ذلّل النيرين لمصالح خلقه ومنافعهم ، كل منهما يسير بسرعة إلى غاية محدودة ، أو إلى يوم القيامة ، وأن الله مطلع بدقة على جميع أعمالكم من خير وشر ، ويجازيكم عليها ، فهو الخالق العالم بجميع الأشياء.

ثم ذكر الله تعالى الهدف من بيان آياته فقال :

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي إنما يظهر الله لكم آياته ، ويبين عجائب قدرته وحكمته ، لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الثابت المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه

باطل زائل ، فهو الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، لأن جميع ما في السموات والأرض خلقه وعبيده ، ولا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه وقدرته ومشيئته ، وأن الله تعالى هو العلي الذي لا أعلى منه ، المرتفع على كل شيء ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، العظيم السلطان ، فكل شيء خاضع له.

وبعد ذكر الآيات السماوية الدالة على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته ، ذكر آية أرضية ، فقال :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أيضا أن الله سخر البحر لتجري فيه السفن بأمره ، أي بلطفه وإحسانه وتهيئة الأسباب ، ليرشدكم إلى معرفته ، ويظهر لكم شيئا أو بعضا من قدرته ، فإنه لو لا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن ، لما جرت.

إن فيما ذكر من الأدلة السماوية والأرضية لأدلة واضحة وعلامات نيّرة لكل صبّار (كثير الصبر) في الضراء ، شكور في الرخاء ، لأن المؤمن متذكر ربه ، فيصبر إذا أصابته نقمة ، ويشكر إذا أتته نعمة ، قال ﷺ فيما رواه البيهقي عن أنس ، وهو ضعيف : «الإيمان نصفان : فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر».

ثم ذكر الله تعالى تناقض المشركين واضطرابهم من اللجوء إليه حين الضراء ، ونسيانه حال السراء ، فقال :

﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي وإذا أحدقت بهم مخاطر الأمواج العالية التي تشبه الجبال والغمام ، رجعوا إلى الفطرة ، ودعوا الله دعاء حارّا ، مخلصين له الطاعة ، لا يشركون به غيره ، مستغيثين به وحده ، فلما رحمهم ونجوا بفضله من الأهوال المحدقة ، ووصلوا إلى شاطئ البر والسلامة ، فمنهم

مقتصد في الكفر ، منزجر بعض الانزجار ، متجه إلى توحيد الله ، ومنهم غدّار ناقض للعهد ، كافر بأنعم الله ، وما يكفر بآياتنا الكونية والقرآنية إلا كل كثير الغدر ، كفور بما أنعم الله عليه.

ونظير الآية : ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ لا يجد المشركون بدا عند سؤالهم عن خالق السموات والأرض من الإجابة بأنه هو الله تعالى ، فهم يعترفون بأن الله خالقهن ، فلم يعبدون غيره؟

! فالحمد لله على ما هدانا له من دينه ، وليس الحمد لغيره ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا ينظرون ولا يتدبرون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى ، ودلت الآية الثانية التي تلتها على أن جميع ما في السموات ، والأرض لله ملكا وخلقا ، وأن الله هو الغني عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم بالعبادة لينفعهم ، والله هو المحمود في صنعه.

٢ ـ دلت الآية الأخيرة : ﴿وَإِذا غَشِيَهُمْ﴾ على اعتراف آخر من المشركين بوجود الله ووحدانيته ، فإنهم إذا تعرضوا لمخاطر الغرق بسبب اضطراب البحر ، وارتفاع الأمواج ، لم يجدوا بديلا غير الله للجوء إليه ، فيدعونه موحدين له ، لا يدعون لخلاصهم سواه ، فإذا ما نجوا من البحر ، ووصلوا إلى البر والأمان ، فمنهم مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة ، موفّ بما عاهد عليه الله في البحر ، ومنهم كافر ، وقد دل على المحذوف قوله تعالى : ﴿وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي لا ينكر دلائل الآيات على توحيد الله إلا كل غدّار مغرق في الكفر ، جحود للنعم ، لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها.

٣ ـ إن معاني كلام الله سبحانه لا تنفد ، وإنها لا نهاية لها ، ولا يمكن حصرها ولا عدها ، وقد دلنا على ذلك هذا البيان القرآني : وهو لو كانت الأشجار أقلاما ، والبحار مدادا ، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب ، لأنه تعالى القديم الذي لا نهاية له ابتداء وانتهاء ، أما المخلوق فلا بد له من بداية ومن نهاية ، والمقصود من الكلمات :الكلام القديم ، والمراد بالآية الاعلام بكثرة معاني كلمات الله ، هي غير متناهية في نفسها ، وإنما قرّب الأمر بهذا المثال لأفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ، لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور.

وإذا كانت معاني كلام الله لا نهاية لها ، فعلم الله بحقائق الأشياء لا يمكن حصره ، وإنما هو واسع شامل.

والخلاصة : أن كلمات الله هي مقدوراته وعجائبه ، أو معلوماته.

٤ ـ ما ابتداء خلق جميع البشر إلا كخلق نفس واحدة ، وما بعثهم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة ، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقه للعالم كخلقه لنفس واحدة ، وإن الله سميع لما يقولون ، بصير بما يفعلون.

٥ ـ قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ آية سماوية دالة على قدرة الله تعالى ، وقوله : ﴿**وَسَخَّرَ ..**﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديرا للآجال ، وإتماما للمنافع ، وجعل الطلوع والغروب في وقت محدد لا يتجاوزه ولا يقصر عنه ، وينتهي وجودهما بانتهاء السموات والأرض يوم القيامة.

ومن قدر على هذه الأشياء ، فلا بدّ من أن يكون عالما بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقد فعل الله تعالى ذلك (الزيادة والنقص في الليل والنهار وتسخير

النيرين) لتعلموا وتقرّوا بأن الله هو الإله الحق ، وأن ما عداه باطل زائل لا وجود له ولا حقيقة له ، وأن الله هو العلي في مكانته ، الكبير في سلطانه.

٦ ـ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي﴾ آية أرضية دالة على قدرة الله تعالى ، فهو الذي جعل الماء قادرا على حمل السفن ، وسيّرها إما بالهواء ، وإما بتعليم الإنسان وإلهامه الاستفادة من الطاقة البخارية أو النفطية أو الذرية أو الكهربائية لجريها السريع.

كل ذلك ليرينا الله تعالى بعض آياته ، ويجعلنا نشاهد بعض مظاهر قدرته في البحار ، وفي ذلك علامات وعبر وعظات لكل صبّار على قضاء الله ، شكور على نعمائه ، قال ﷺ في الحديث المتقدم تخريجه : «الإيمان نصفان : فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر». وقال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين : الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الأمر بتقوى الله وبيان مفاتح الغيب

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾

الإعراب :

﴿وَاخْشَوْا يَوْماً﴾ منصوب على أنه مفعول ﴿وَاخْشَوْا﴾ ولا يجوز أن يكون ظرفا ، لأنه يصير الأمر بالخشية في يوم القيامة ، ويوم القيامة ليس بيوم تكليف ، وإنما هو يوم الجزاء.

﴿وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ﴾ مرفوع معطوف على ﴿والِدٌ﴾ المرفوع الذي هو فاعل ﴿يَجْزِي﴾ و ﴿هُوَ﴾ تأكيد لما في ﴿مَوْلُودٌ﴾ من الضمير ، ولا يجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل ، لأن الفصل لا يدخل بين النكرتين.

﴿ما ذا تَكْسِبُ غَداً ما ذا﴾ منصوب ب ﴿تَكْسِبُ﴾ لا ب ﴿تَدْرِي﴾ لأن الاستفهام ينتصب بما بعده لا بما قبله ، هذا إذا جعل (ما وذا) بمنزلة شيء واحد ، فإن جعلا بمنزلة كلمتين ، وجعلا بمنزلة (الذي) وجعل موضع ﴿ما ذا﴾ مرفوعا ، لم يجز نصبه ب ﴿تَدْرِي﴾ لما ذكر ، وإنما نحكم على موضع الجملة بالنصب بدخوله عليها.

المفردات اللغوية :

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ خافوا عقابه. ﴿لا يَجْزِي﴾ لا يقضي فيه ، أو لا يغني. ﴿وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ﴾ إن تغيير النظم بين ﴿يَجْزِي﴾ و ﴿جازٍ﴾ للدلالة على أن المولود أولى بألا يجزي ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالبعث وبالثواب والعقاب صدق لا يمكن إخلافه. ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ فلا تخدعنكم. ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ﴾ في حلمه وإمهاله. ﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان وكل ما غرّ الإنسان من مال وجاه ، والشيطان يرجّي بالتوبة والمغفرة ، فيجسّر على المعاصي.

﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ علم وقت قيام القيامة. ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ بوقت يعلمه. ﴿ما فِي الْأَرْحامِ﴾ من الذكورة والأنوثة ، والتمام والنقص ، والحياة والموت ، وغير ذلك من خواص الجنين وأحواله وأعراضه. ﴿ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ من خير أو شر ، وتنفيذ العزم على شيء وخلافه. ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي كما لا تدري في أي وقت تموت ، والله يعلمه وحده. ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ، يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم الباطن والظاهر.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٤):

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية هو الحارث بن عمرو [١] ، فقال : إن امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد ، وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

---

(١) في رواية قتادة : اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة.

المناسبة :

بعد ذكر دلائل التوحيد من أول السورة إلى آخرها ، أمر الله تعالى بتقوى الله والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة ، لأنه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة ، وأنذر الناس يوم المعاد ، وأخبر بأنه حق كائن ، ثم أردفه ختاما للسورة ببيان ما استأثر الله بعلمه ، وهي مفاتح الغيب الخمسة ، لأنه بعد هذا الإنذار كأن قائلا قال : فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن العلم بهذه الأمور لا يحصل لغير الله ، ولكن يوم المعاد كائن لا بد منه ، وإن لم يعلم الناس وقته ، والله قادر عليه.

التفسير والبيان :

﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً**﴾ أي يا أيها البشر من كفار ومؤمنين خافوا الله الذي خلقكم ورزقكم ، وسخر لكم هذا الكون ، واحذروا عقابه ، واخشوا يوما شديد الهول هو يوم القيامة الذي لا يغني فيه والد عن ولده ، فلو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، ولا مولود هو مغن عن والده أو نافع والده شيئا ، فلو أراد فداء والده بنفسه ، لم يقبل منه ، إذ لا يستطيع أحد أن يشفع بأحد إلا بإذن الله ، ولا جدوى عند الله إلا بالعمل الصالح الحاصل في الحياة الدنيا.

ثم أخبر الله تعالى عن حدوث هذا اليوم حتما ، فقال :

﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾ أي إن وعد الله بالبعث وبالثواب والعقاب أمر ثابت مؤكد حصوله ، ولا شك فيه ، ولا خلف لوعده.

ومقتضى التخويف الإعداد لهذا اليوم وترك التعلق بالدنيا ، فقال تعالى :

﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾ أي لا تخدعنكم زينة

الدنيا ، فتطمئنوا فيها ، وتميلوا إليها ، تاركين الاستعداد للآخرة ، ولا يخدعنكم الشيطان بحلم الله وإمهاله ، فيعدكم بالمغفرة ، ويحملكم على المعصية بتزيينها لكم ، وينسيكم الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [النساء ٤ / ١٢٠].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الدنيا غرّارة بزخارفها ومتاعها ، وأن الشيطان بوساوسه يقوي هذا الغرور بالدنيا ، لصرف الناس عن الآخرة والتزود لها بصالح الأعمال.

وقيل : الغرور : الدنيا ، وقيل : تمني المغفرة في المعصية ، والأماني الباطلة برحمة الله واعتماده على شفاعة شافع أو كونه مسلما محبا الله ورسوله بقلبه دون عمل ، قال سعيد بن جبير ﷺ : الغرة بالله : أن يتمادى الرجل في المعصية ، ويتمنى على الله المغفرة. وقد ردّ القرآن على هذه التمنيات بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ [النساء ٤ / ١٢٣].

ثم ذكر الله تعالى مفاتح الغيب الخمسة التي استأثر الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلام بها ، فقال :

١ . ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إن علم وقت الساعة (أي القيامة) مختص بالله سبحانه ، فلا يعلم أحد بوقته سواه ، لا ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، كما قال : ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٧].

٢ . ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي ويختص تعالى أيضا بمعرفة وقت إنزال المطر ومكانه المعين ، لا يعلمه إلا الله ، فإن أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه.

وأما نشرة الأرصاد الجوية في أيامنا فتعتمد على بعض الحسابات والأمارات ، وما ترصده بعض الأجهزة المخصصة لمعرفة نسبة الرطوبة وسرعة الرياح ، فليس ذلك غيبا ، وإنما هو تخمين وظن ، قد يحدث نقيضه ، كما أن معرفته تكون قبل مدة قريبة ، يلاحظ فيها اتجاهات الرياح والمنخفضات الآتية من الشمال أو من الغرب مثلا.

٣ . ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ أي لا يعلم أحد إلا الله ما في الأرحام من خواص الجنين وأحواله العارضة له من طبائع وصفات وذكورة وأنوثة ، وتمام خلقة ونقصها ، فإن توصل العلماء بسبب التحليل الكيميائي كون الجنين ذكرا أو أنثى ، فلا يعني ذلك غيبا ، وإنما بواسطة التجربة ، وتظل أحوال أخرى كثيرة مجهولة للعلماء ، لا تعلم إلا بعد الولادة. قال القرطبي : وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك [١].

٤ . ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ أي لا تعلم نفس ماذا تكسب في الغد من خير أو شر في دنياها وأخراها.

٥ . ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي وما تعلم نفس موضع موتها ، في بلدها أو غيرها من بلاد الله ، لا علم لأحد بذلك.

روي أن ملك الموت مرّ على سليمان ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، يديم النظر إليه ، فقال الرجل : من هذا؟ قال : ملك الموت ، فقال : كأنه يريدني ، وسأل سليمان أن يحمله على الريح ، ويلقيه ببلاد الهند ، ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان : كان دوام نظري إليه تعجبا منه ، لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٨٢

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي إن علم الله غير مختص بهذه الأمور الخمسة ، بل هو عليم مطلقا بكل شيء ، وليس علمه علما بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه ، يعلم بواطن الأمور وظواهرها.

ويلاحظ أنه جعل العلم لله في قوله : ﴿عِلْمُ وَيَعْلَمُ﴾ والدراية للعبد في قوله : ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ﴾ لما في الدراية من معنى الختل والحيلة ؛ والمعنى : أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها.

ونظير الآية : ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام ٦ / ٥٩].

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

ويلاحظ أن هذه الأمور الخمسة تشتمل على الدليلين المكررين في القرآن لإثبات البعث:

أحدهما ـ إحياء الأرض بعد موتها ، حيث قال تعالى هنا : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى﴾ [الروم ٣٠ / ٥٠] وقال تعالى : ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ١٩].

والثاني ـ الخلق ابتداء ، حيث قال هنا : ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ وقال في موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧] وقال :

﴿قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وجوب الخوف من الله تعالى وتوحيده ، وخشية يوم المعاد الذي لا بد من حصوله.

٢ ـ البعد عن الاغترار بزينة الحياة وزخارفها ، والاتكال عليها والركون إليها ، وترك العمل للآخرة.

٣ ـ إن الدنيا غرارة ، وإن الشيطان يغرّ الناس ويمنّيهم الدنيا ويلهيهم عن الآخرة ، فيصبح الإنسان مغرورا يعمل بالمعصية ويتمنى بالمغفرة!!

٤ ـ لا يعلم أحد إلا الله تعالى بأمور خمسة : هي وقت الساعة ، ووقت إنزال الغيث ومكانه ، وعلم ما في الأرحام من أحوال الجنين وأوصافه العارضة له ، وأعمال المستقبل القريب والبعيد ، ومكان وفاة الإنسان.

قال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ؛ فمن ادّعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه.

أما الأنبياء فيعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. وبذلك يبطل كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء [١] عالمين بالغيبيات.

---

(١) الأنواء : جمع نوء : وهو سقوط نجم في المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر من المشرق يقابله في ساعته ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة السجدة

مكية ، وهي ثلاثون آية.

تسميتها وفضلها :

سميت سورة السجدة لما فيها من وصف المؤمنين الذين يسجدون لله تعالى ويسبحونه عند سماع آيات القرآن العظيم : ﴿**إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [١٥].

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿**الم تَنْزِيلُ**﴾ السجدة ، و ﴿**هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ**﴾ [الإنسان ٧٦ / ١].

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿**الم تَنْزِيلُ**﴾ السجدة ، و ﴿**تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ [الملك ٦٧ / ١].

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها وهي سورة لقمان من ناحية اشتمال كل منهما على أدلة التوحيد وهو الأصل الأول للعقيدة ، وبعد أن ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة الأصل الثاني وهو الحشر أو المعاد ، وختم تلك السورة بهذين الأصلين ، بدأ هذه السورة ببيان الأصل الثالث وهو الرسالة أو النبوة ، فقال تعالى : ﴿**الم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ ..**﴾.

كذلك تعد بعض آيات هذه السورة شرحا وتفصيلا للسورة السالفة ، فقوله تعالى هنا : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٥] توضيح لقوله تعالى في بيان مفاتح الغيب هناك : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [٣٤].

وقوله سبحانه هنا : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [٢٧] تفصيل لقوله هناك : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [٣٤].

وقوله هنا : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [٧] شرح لقوله هناك : ﴿وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ﴾ [٣٤].

وقوله هنا : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [٥] شرح لقوله هناك : ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً﴾ [٣٤].

وقوله هنا : ﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله : ﴿قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [١٠ ـ ١١] إيضاح لقوله : ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [٣٤].

موضوعها :

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية وهو إثبات أصول الاعتقاد : «الإيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل والبعث والجزاء» ومحور الكلام إثبات (البعث) بعد الموت الذي أنكره المشركون والماديون ، واتخذوه سببا لتكذيب النبي ﷺ.

مشتملاتها :

افتتحت السورة بتقرير كون القرآن العظيم بلا أدنى شك هو كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ ، وإثبات رسالة النبي ﷺ ، وإبطال مزاعم المشركين بأن

الرسول افترى هذا القرآن ، وبيان أنه لم يأتهم رسول مثله قبله.

ثم أوردت السورة أدلة وحدانية الله وقدرته من تدبيره الكون ، وخلقه الإنسان ورعايته له في أطواره التي يمر بها ، ثم بعثه الخلق مرة أخرى ليوم مقداره ألف سنة مما تعدّون ، بأسلوب يرد على إنكار المشركين البعث والنشور ، لظنهم بسبب عجزهم أن التفتت إلى ذرّات مبعثرة مشتتة يحيل بعدئذ تجمعها وإعادتها إلى خلق جديد.

ثم وصفت السورة حال المجرمين الكافرين وحال المؤمنين الطائعين لله ، فالأولون تلبسهم الذلة والمهانة ، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، ويذوقون العذاب الأليم. والمؤمنون لا تفارقهم في الدنيا الطاعة في الليل والنهار ، ويدعون ربهم خوفا وطمعا ، وينفقون أموالهم في مرضاة الله ، ولهم في الآخرة جزاء عملهم الثواب الجزيل ، والفضل العظيم الذي تقرّ به أعينهم ، وجنات المأوى والاستقرار والخلود.

وعقّبت السورة على حال هذين الفريقين باستبعاد التسوية بينهما ؛ إذ لا يعقل مكافأة العصاة كمكافأة الطائعين.

ثم ختمت السورة بتقرير ما بدأت به ، فذكرت الرسالة ، وأبانت الهدف من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وهو هداية بني إسرائيل ، تنبيها على وجه الشبه بين رسالة محمد ورسالة موسى عليهما الصلاة والسلام.

ثم ذكرت التوحيد والقدرة وأقامت البرهان عليهما بإهلاك الأمم الظالمة في الماضي ، وأخيرا أكدت حدوث الحشر الذي استبعد الكفار حصوله.

فصار مطلع السورة ومضمونها وخاتمتها إثبات أصول العقيدة وهي كما ذكرت : التوحيد ، والرسالة ، والبعث.

إثبات النبوة (الرسالة)

﴿الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)﴾

الإعراب :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، لا رَيْبَ فِيهِ تَنْزِيلُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ : خبره. ويجوز جعل ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، ويجوز أن يكون ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿الْكِتابِ﴾ و ﴿مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ خبر المبتدأ ، و ﴿مِنْ﴾ : متعلقة بالخبر المحذوف. وإذا جعلت ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر المبتدأ كانت ﴿مِنْ﴾ متعلقة ب ﴿تَنْزِيلُ﴾ و ﴿مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ خبر ثان.

المفردات اللغوية :

﴿الم﴾ هذه الحروف الهجائية المقطعة سيقت كما بان سابقا للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن. ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ﴾ أي إنزال القرآن ، أو المنزّل. ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه. ﴿أَمْ﴾ بل. ﴿يَقُولُونَ : افْتَراهُ﴾ أي يقول المشركون : اختلقه محمدﷺ من عند نفسه ، منكرين كونه من رب العالمين. ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُ﴾ أي إن القرآن هو الحق الثابت المنزل من الله. ﴿ما أَتاهُمْ قَوْماً﴾ نافية. ﴿نَذِيرٍ﴾ منذر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك.

قال في الكشاف وأوجز البيضاوي كلامه : إنه تعالى أشار أولا إلى إعجاز القرآن ، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكارا له وتعجبا منه ، فإن ﴿أَمْ﴾ منقطعة [١] ، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه

---

(١) هذه أَمْ المنقطعة التي تقدّر بمعنى : بل وألف الاستفهام ، أي بل أيقولون؟! وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث.

الحق المنزل من الله ، وبيّن المقصود من تنزيله ، فقال : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إذ كانوا أهل الفترة ، لعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

التفسير والبيان :

﴿الم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ ، لا رَيْبَ فِيهِ ، مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ افتتحت هذه السورة بهذه الأحرف كغالب السور المكية لبيان إعجاز القرآن وعظمته ، والرد على المشركين المنكرين نزوله من عند الله ، والمكذبين برسالة النبي ﷺ. هذا القرآن العظيم لا شك في أنه منزل من عند الله على قلب محمد ﷺ ، فليس بسحر ولا شعر ولا سجع كاهن ، وإنما هو كلام رب العوالم جميعهم من إنس وجنّ ، وذلك رد على قولهم : ﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥].

﴿أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي بل إنهم يقولون زورا وبهتانا : اختلقه وافتعله محمد من عنده ، فرد الله عليهم : بل هو الحق الثابت أي هو حق من الله ربه ، أنزله إليك لتخوف وتنذر به قوما. أي قريشا ونحوهم. بأس الله وعذابه إن كفروا وعصوا ، علما بأنه لم يأتهم نذير قبلك ، فتبين لهم طريق الرشاد ، ولعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

وهذا إثبات لرسالة محمد ﷺ وبرهان واضح على صدقه ، وردّ لقول المشركين : ﴿إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا شك فيه أنه من عند

الله ، فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين ، كما يزعم المشركون الأفاكون الوثنيون ، والكفار المتعصبون لدين سابق.

وبعد أن أثبت الله تعالى أنه تنزيل من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه ، أضرب عن ذلك (أي انتقل) إلى قوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ثم كذبهم في دعوى الافتراء.

ثم بيّن الله تعالى مهمة القرآن والنبي ﷺ وهي إنذار الكافرين عذاب الله ، ومنهم قريش ، قال قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿قَوْماً﴾ يعني قريشا ، كانوا أمّة أمّية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ .

دلائل التوحيد والقدرة الإلهية

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٩)﴾

الإعراب :

﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ خلق : فعل ماض ، وموضع الجملة إما النصف صفة لكل ، وإما الجر

صفة لشيء ، ومعناه : أحسن كلّ شيء مخلوق له. ومن قرأ بسكون اللام جعله بدل اشتمال أي بدلا من قوله تعالى : ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أو مفعولا ثانيا ل ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى أفهم فيتعدى إلى مفعولين.

﴿مِنْ وَلِيٍ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ، أي ليس لكم ناصر مطلقا.

البلاغة :

﴿الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وكان الأصل أن يقال : وجعل له فعدل إلى ضمير الجماعة ، مراعاة لخطاب الإنسان الذي صار حيّا بنفخ الروح فيه مع ذريته.

المفردات اللغوية :

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأحد إلى الجمعة ، والأيام : جمع يوم ، وهو عند العرب جزء من اليوم ، ويراد به لغة : الوقت. ﴿اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ العرش : أعظم المخلوقات ، وهو لغة : سرير الملك ، والاستواء عليه : هو شيء يليق بالله عَزَّوَجَلَّ دون حصر ولا كيف ولا تحديد بجهة معينة. ﴿ما لَكُمْ﴾ أيها الكفار وغيركم. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غيره. ﴿مِنْ وَلِيٍ﴾ أي ناصر. ﴿وَلا شَفِيعٍ﴾ يشفع بكم ليدفع العذاب عنكم. والمعنى : ليس لكم غير الله ناصر ولا شفيع ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ، وينصركم في مواطن النصر. ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله فتؤمنوا؟!

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الدنيا مدة بقائها ، وينظم شؤونها وأحوالها الواقعة فيها تدبيرا وتنظيما شاملا مبتدئا من السماء ومنتهيا إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعد إليه ويرجع الأمر والتدبير ويثبت في علمه. ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا ، أي يصعد إليه في برهة من الزمان متطاولة وهو يوم القيامة ، وتقديره بألف سنة لشدة أهواله بالنسبة إلى الكافر ، وأما المؤمن فيكون أخف عليه من صلاة مكتوبة ، يصليها في الدنيا ، كما جاء في الحديث الثابت. ﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ أي ذلك الخالق المدبر يدبر الكون على وفق الحكمة ، وعلى وفق علمه الشامل الذي يعلم ما غاب عن الخلق وما حضر ، المنيع في ملكه ، الغالب على أمره ، الرحيم بأهل طاعته وتدبيره أمر العباد. قال البيضاوي : وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعي مصالح الناس تفضلا وإحسانا.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي أتقن ما خلقه ، موفرا له كل ما يحتاجه على وفق الحكمة والمصلحة. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ﴾ يعني آدم ﴿نَسْلَهُ﴾ ذريته ، سميت به ؛ لأنها تنسل منه أي تنفصل. ﴿مِنْ سُلالَةٍ﴾ نطفة. ﴿مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ ممتهن ضعيف ، وهو النطفة. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي وأتمّه. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفا ،

وإشعارا بأنه خلق عجيب ، وأن له شأنا ، والمعنى : جعله حيا حساسا بعد أن كان جمادا. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ لذريته. ﴿السَّمْعَ﴾ أي الإسماع. ﴿وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصص هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا. ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكرا قليلا ، و ﴿ما﴾ زائدة مؤكدة للقلة.

المناسبة :

بعد ما أثبت الله تعالى صحة الرسالة ، ذكر ما يجب على الرسول من الدعوة إلى توحيد الله ، وزوده بما يحتاجه من إقامة الأدلة والبراهين على ذلك ، لإنجاح مهمته.

التفسير والبيان :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن الله تعالى هو خالق الأشياء ، فخلق السموات والأرض وأبدعهما وفطرهما وما بينهما لا على مثال سابق ، في مدة ستة أيام ، أي في أجزاء ستة من الوقت ، ليست هي الأيام المعروفة ؛ لأنه قبل خلقها لم يكن ليل ولا نهار. وقال الحسن البصري : «من أيام الدنيا» ولو شاء لخلقها بلمح البصر ، ولكن أراد أن يعلّم عباده التأني في الأمور.

﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استولى على ملكه يدبر أمره ويحكم شأنه ، أو استوى استواء يليق بجلاله وعظمته على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، ولا يحده زمان ومكان ، ولا تدركه الأبصار إدراك إحاطة وشمول ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير.

﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ أي ليس لكم أيها الناس ، ولا سيما الكفار من غير الله ناصر يدفع عنكم عذابه ويلي أموركم ، ولا شافع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو المالك المطلق لكل شيء ، فيتولى ما فيه المصلحة ، ويدبر الأمور ، دون تدخل من أحد ، ولا حاجة لأحد ؛ لأنه وحده القادر على كل شيء ، والمهيمن على جميع الأشياء.

﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتدبرون وتتعظون ، فتؤمنوا بالله وحده لا شريك له. ولا نظير ولا وزير ، ولا عديل له ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه.

والمراد : حمل الناس على الإيمان بالله إلها وربا ، يعبد وحده ، ويطاع لذاته ، فهو المستعان على كل أمر ، وهو المانع من السوء ، والجالب للخير والنفع ، والمحقق للمصلحة ، دون حاجة لأحد ولا لشيء ، لذا قال مبينا الأمر بعد بيان الخلق : ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٤].

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يدبر أمر الكون كله في العالم العلوي والسفلي ، ثم يصعد إليه أثر الأمر وتنفيذه بواسطة الملائكة ، وهذا تمثيل لعظمة الله وامتثال المخلوقات جميعا لمراده وتدبيره ، كالحاكم المطلق الذي يصدر أوامره ، ثم يتلقى من أعوانه ما يدل على تنفيذها.

﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي ترفع الأمور الحاصلة في الدنيا صغيرها وكبيرها إلى الله تعالى يوم القيامة ليفصل فيها ويحكم في شأنها ، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي نعدّها في هذه الحياة.

والمراد بالألف : الزمن المتطاول الذي هو في لغة العرب أقصى نهاية العدد.

وفي موضع آخر وصف الله تعالى مقدار هذا اليوم بخمسين ألف سنة : ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٧٠ / ٤] قال القرطبي : المعنى أن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة ، قاله ابن عباس ، والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر.

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة [١].

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ٨٨

﴿ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المدبر لهذه الأمور هو العالم بجميع الأشياء ، يعلم ما يغيب عن الأبصار ، مما يجول في خلجات النفس ، وما لا تدركه العين المجردة ، ويعلم ما هو مشاهد تعاينه الأبصار ، وهو العزيز الذي قد عزّ كل شيء ، فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، القوي الشديد في انتقامه ممن كفر به وأشرك معه غيره ، وكذب رسله ، وهو الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين القانتين التائبين الذين يعملون الصالحات ، يرحمهم في تدبير شؤونهم في الدنيا وفي الآخرة.

وبعد إثبات الوحدانية بالآفاق من خلق السموات والأرض ، ذكر تعالى الدليل الدال عليها من الأنفس ، فقال :

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ أي إن ذلك المدبر للأمور العليم الخبير القوي الرحيم هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها ، وبدأ خلق أبي البشر آدم من طين ، والطين مكوّن من ماء وتراب.

وكذلك يعتمد الإنسان في تكوينه وبقاء حياته على الطين ؛ لأن المني ناشئ من الغذاء ، والغذاء إما من الحيوان وإما من النبات ، وكلاهما يعتمد على ما تخرجه الأرض الترابية.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ أي ثم جعل ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذي فيه البويضة التي تتلقح بنطفة الرجل ، فيتم التوالد والتناسل وبقاء النوع الإنساني من خلاصة من ماء ضعيف ممتهن عادة وهو المني.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي ثم بعد خلقه من تراب جعله سويا مستقيما ، فقوّم أعضاءه ، وعدّلها ، وأتمها ، ونفخ فيه الروح التي هي من أمر الله والتي لا يعرف حقيقتها إنسان ، فبدأ

يتحرك وينمو ، وأنعم عليكم بالحواس مفاتيح المعرفة وصمامات الأمان ، فمنحكم السمع الذي تسمع به الأصوات ، والأبصار التي تبصر بها المرئيات ، والعقول التي تفكرون بها ، وتميزون بين الخير والشر ، والحق والباطل.

وهكذا يلاحظ التدرج في الخلقة وأطوار الإنسان ، فهو ينشأ أولا من مادة هي الطين اللازب ، ثم تصبح هذه المادة ذات إفرازات حية ، يتم بها تكوين الجنين ، ثم تتحرك المادة بالروح التي هي من الحق تعالى ، فيصبح خلقا جديدا سويا في أحسن تقويم ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ أي أنكم أيها الناس لا تقابلون هذه النعم بالعرفان والوفاء ، والشكر والامتنان ، وإنما تشكرون ربكم قليلا على هذه النعم التي رزقكم الله تعالى ، باستعمال تلك الحواس في طاعة الله واتباع مرضاته.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ هناك دلائل كثيرة على توحيد الله وكمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، منها إبداع السموات والأرض وإيجادها بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئا ، في أجزاء من الزمن الله أعلم بمقدارها ، وقد قرّبها لعقولنا وعبر عن طولها بقوله ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الأيام الستة ، فقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سنيّ الدنيا.

وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدة ستة أيام من أيام الآخرة.

٢ ـ والاستواء على العرش استواء يليق بجلال الله وكماله دون تحديد ولا

حصر ، وهو الأصح أو التمكن والسلطة على الكون المخلوق حاصل مع خلق السموات والأرض ، فليست ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب ، وإنما هي بمعنى الواو.

٣ ـ إن الله عَزَّوَجَلَّ ولي المؤمنين الذي يتولى مصالحهم وناصرهم وشفيعهم ، فإذا تجاوز الناس رضاه لم يجدوا لأنفسهم وليا ، أي ناصرا ينصرهم ولا شفيعا يشفع لهم ، وعليه ، ليس للكافرين من ولي يمنع عنهم العذاب ، ولا شفيع يتوسط لهم فيرفع عنهم العقاب.

فهل من متذكر معتبر في قدرة الله ومخلوقاته؟!

٤ ـ ويأتي الأمر بعد الخلق ، للدلالة على عظمة الله ، فإن نفاذ أمر الله في الكون دليل على عظمته ، لذا كان الأمر والتدبير في الكون وإنزال القضاء والقدر ، ونفاذ هذا التدبير من مظاهر عظمة الله تعالى ، ومجموع هذه الأوامر النافذة كلها عائد إلى الله يوم القيامة ، فقوله : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ معناه يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ، ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ هو يوم القيامة ، وقد يكون لشدة أهواله وبحسب أحوال بعض الناس في مدة مقدارها خمسون ألف سنة ، كما قال تعالى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٧٠ / ٤].

ورأى الزمخشري في الكشاف أن المراد من الأمر : المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض ، ثم يصعد إليه المأمور خالصا في مدة متطاولة لقلة عمال الله والخلّص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة ؛ لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ، ثم يثبت ذلك الأمر الصاعد ويصير إلى الله في كل وقت إلى أن تبلغ المدة آخرها في يوم القيامة الذي هو من أيام الله ، ويوم الله كألف سنة ، ثم يدبر الله أيضا الأمر ليوم آخر ، وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة [١]

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٢٢ ـ ٥٢٣

٥ ـ الله تعالى في خلقه وتدبيره وحسمه أمر الدنيا بالقيامة يعلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم ، فلا تفوته مصلحة ، ولا تخفى عليه خافية من أعمال المخلوقات. وفي هذا الكلام معنى التهديد والوعيد ، يراد به أن أخلصوا أفعالكم وأقوالكم ، فإني أجازي عليها.

٦ ـ لله القدرة البالغة التي لا توصف عظمتها وحدودها ، فقد خلق أصل الإنسان من طين ، ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك من ماء ممتهن ضعيف ، ثم أكمله وأتمه وعدّله ونفخ فيه الروح ، وخلق فيه حواس السمع والبصر والعقل أدوات المعرفة ووسائل إدراك الحق والهدى ، وتلك نعم عظمي تستحق الشكر والوفاء بالمعروف ، لكن أكثر الناس كافرون لا يشكرون ، وقليل من عباده الشكور.

ويلاحظ أن الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ؛ لأن الإنسان يسمع أولا الأمور فيفهمها ، ثم يبصر الأمور ، ثم يحصل له بعد السمع والبصر الإدراك التام والذهن الكامل ، فيستخرج الأشياء مما سمع ورأى.

وسبب ذكر السمع مصدرا ، والأبصار والأفئده اسما ، فجمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع : هو لحكمة هي أن الإنسان لا يسمع في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ، ولا اختيار لمحل السمع وهو الاذن ، ويدرك في زمان واحد صورتين فأكثر بالعين ويعيهما ويستبينهما في القلب ، ولمحل البصر وهو العين شبه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون غيره ، وكذلك الفؤاد محل الإدراك له نوع اختيار ، فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة ، وفي الأبصار والأفئدة الاسم الذي هو محل القوة.

إثبات البعث وحال الكفار يوم القيامة

﴿وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿أَإِذا ضَلَلْنا إِذا﴾ : ظرف متعلق بفعل مقدر ، تقديره : أنبعث إذا ضللنا في الأرض ، أي غبنا وبلينا.

﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ إِذِ﴾ تتعلق ب ﴿تَرى﴾ و ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ مبتدأ ، وناكسو رؤوسهم : خبره ، و ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا﴾ تقديره : يقولون : ربنا أبصرنا ، فحذف القول ، كما هو المعتاد الكثير في كلام العرب.

البلاغة :

﴿أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ، أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استفهام إنكاري بقصد الاستهزاء.

﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾ فيه إضمار تقديره : يقولون : ربنا أبصرنا وسمعنا.

﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور للاختصاص ، أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ..﴾ حذف جواب «لو» للتهويل. أي لرأيت أمرا مهولا.

﴿نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ﴾ بينهما مشاكلة : وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فإن الله تعالى لا ينسى ، وإنما المراد نتركك في العذاب ترك الشيء المنسي.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالُوا﴾ أي منكرو البعث. ﴿ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾ غبنا فيها وبلينا وهلكنا ، بأن صرنا ترابا مختلطا بتراب الأرض لا نتميز منه. ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أنبعث أو يجدد خلقنا ، والقائل أبي بن خلف ، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. وهو استفهام إنكار غرضه الاستهزاء. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ أي بل هم بالبعث جاحدون.

﴿قُلْ﴾ لهم. ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي يقبض أرواحكم ملك الموت ، حتى لا يبقى أحد منكم. ﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي تعودون أحياء للحساب والجزاء ، فيجازيكم ربكم بأعمالكم. ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون. ﴿ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ﴾ خافضوها ومطأطئوها حياء وخزيا. ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾ أي يقولون : يا ربنا أبصرنا ما وعدتنا من البعث وسمعنا منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه. ﴿فَارْجِعْنا﴾ إلى الدنيا لنعمل صالحا فيها. ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن ، ولم يبق لنا شك بما شاهدنا ، ولكن لا ينفعهم ذلك ، ولا يرجعون. وجواب ﴿وَلَوْ تَرى ..﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمرا فظيعا مهولا.

﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ أي ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له والاختيار من النفس. ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي ثبت قضائي وسبق ﴿الْجِنَّةِ﴾ الجن. ﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ أي تقول لهم خزنة النار إذا دخلوها : ذوقوا العذاب بتركك الإيمان باليوم الآخر ، فهذا سبب العذاب. ﴿إِنَّا نَسِيناكُمْ﴾ تركناكم في العذاب ترك المنسي. ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ﴾ أي عذاب جهنم الدائم. ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر وتكذيب الرسل. وقد كرر الأمر للتأكيد. وفي التعليل بأمرين : وهما الأفعال السيئة من التكذيب والمعاصي ، وترك التفكر في أمر الآخرة دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك.

المناسبة :

بعد بيان الوحدانية ودليلها في قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ

﴿وَالْأَرْضَ﴾ وبيان الرسالة وبرهانها في قوله سبحانه : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أخبر الله تعالى عن البعث وطريق إثباته للرد على المشركين المنكرين له ، وهذا على عادة القرآن كلما ذكر أصلين من أصول الاعتقاد الثلاثة ذكر الأصل الثالث ، وهو هنا الحشر في قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ﴾.

التفسير والبيان :

﴿وَقالُوا : أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ : أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي يخبر الله تعالى عن المشركين الذين استبعدوا المعاد حيث قالوا : أءذا صارت أجسامنا ترابا في الأرض ، أيمكن أن نعود خلقا جديدا بعد تلك الحال؟!

وهذا الاستبعاد إنما هو بتقديرهم وقياسهم حيث قاسوا قدرة الله على قدراتهم ، فهم يرون أن البعث بعيد بالنسبة إلى قدراتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الإله الخالق الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، والذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولهذا قال تعالى منكرا قياسهم وآراءهم :

﴿بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين لم ينكروا قدرة الله على ما يشاء فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار البعث ، فهم جاحدون لقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

فرد الله عليهم بقوله :

﴿قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي قل للمشركين يا محمد : إن ملك الموت الموكّل بقبض الأرواح يقبض أرواحكم في الوقت المحدد لانتهاء الأجل ، ثم في نهاية الدنيا بعد الموت ستعودون أحياء كما كنتم قبل الوفاة ، وذلك يوم المعاد وبعد القيام من القبور ، للحساب والجزاء ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته.

وهذا إثبات للبعث مع التهديد والوعيد ، وبيان أن القادر على خلق الناس أول مرة قادر على إحيائهم مرة أخرى.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المشركين حين معاينة البعث والحساب يوم القيامة فقال :

﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي ولو تشاهد أيها الرسول حين يقوم هؤلاء المشركون بين يدي ربهم خافضي رؤوسهم من الحياء منه والخزي والعار لرأيت عجبا وأمرا فظيعا ، فتراهم يقولون : ربّنا نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، لقد أبصرنا الحشر وسمعنا تصديقك للرسل فيما كذبناهم فيه ، فارجعنا إلى دار الدنيا نعمل ما يرضيك من صالح الاعتقاد والقول والعمل ، فهم يلومون أنفسهم حين دخول النار ، كما أخبر تعالى عنهم : ﴿وَقالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك ٦٧ / ١٠]. قال الزجاج في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى﴾ : المخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته.

وإنا الآن قد أيقنا بوحدانيتك ، واستحقاقك العبادة دون غيرك ، وتحققنا أن وعدك بالبعث حق ولقاءك حق ، وأنك القادر على الإحياء والإماتة.

ولكن الله يعلم أنه لو أعادهم إلى الدنيا ، لكانوا فيها كفارا كما كانوا ، يكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٧ ـ ٢٨].

وقال تعالى هنا :

﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ أي ولو أردنا أن نوفق كل نفس

ونلهمها الهداية إلى الإيمان والعمل الصالح لفعلنا ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس ١٠ / ٩٩].

ولكن حكمتنا قضت ترك أمر الإيمان والعمل الصالح للاستعدادات والخيار ، دون الإكراه والاضطرار ، كما قال سبحانه :

﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولكن ثبت قضائي ، وسبق أنه لا بد من ملء جهنم من صنفي الجن والإنس الذين هم أهل لها بحسب استعدادهم وسوء اختيارهم ، وفحش اعتقادهم وعملهم ، فهم الظالمون أنفسهم ، وقد علم الله مسبقا قبل خلقهم أن مآلهم إلى النار ، فحقّ الوعيد ، وحق الجزاء.

لذا استحقوا أيضا التوبيخ ، فقال تعالى :

﴿فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، إِنَّا نَسِيناكُمْ ، وَذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم بيوم القيامة ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، وعملكم عمل الناسي له ، لذا فإنا سنعاملكم معاملة الناسي ؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ، ولا يضل عنه شيء ، وهذا ما يسمى بأسلوب المقابلة أو المشاكلة ، مثل قوله : ﴿وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ [الجاثية ٤٥ / ٣٤] وقوله : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٠].

ويقال لهم أيضا على سبيل التأكيد : وذوقوا عذاب النار الدائم الذي تخلدون فيه بسبب كفركم وتكذيبكم وسوء أعمالكم ، كما قال تعالى : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً ، جَزاءً وِفاقاً ، إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً ، وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً ، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً﴾ [النبأ ٧٨ / ٢٤ ـ ٣٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ أنكر المشركون البعث ؛ لأنهم قاسوا قدرة الله الخالق على قدرة العبد المخلوق العاجز ، فقالوا : أءذا هلكنا وصرنا ترابا نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟

٢ ـ الحقيقة أن المشركين لا يجحدون قدرة الله تعالى بالإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ، ولكنهم اعتقدوا ألا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

٣ ـ من مظاهر قدرة الله سبحانه أنه المميت الذي يتوفى الأنفس ويقبض الأرواح عند انتهاء آجالها ، وأن ملك الموت واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله يتصرف كل تصرفه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه ، فيخلق الله على يديه قبض الأرواح ، ذكر ابن عطية حديثا أن «البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت» كأنه يعدم حياتها ، وكذلك الأمر في بني آدم ، فالله هو الفاعل حقيقة ، والملك واسطة ووكيل ، قال تعالى : ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٤] وقال سبحانه : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾ [الملك ٦٧ / ٢] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٦] فملك الموت يقبض ، والأعوان يعالجون ، والله تعالى يزهق الروح ، لكنه لما كان ملك الموت متولّي ذلك بالوساطة والمباشرة ، أضيف التوفّي إليه ، كما أضيف الخلق للملك.

روي أن ملك الموت لما وكله الله تعالى بقبض الأرواح قال : «ربّ جعلتني أذكر بسوء ، ويشتمني بنو آدم ، فقال الله تعالى له : إني أجعل للموت علل وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها ، فلا يذكرك أحد إلا بخير».

٤ ـ استدل بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿**وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ أي بقبض الأرواح على جواز الوكالة.

٥ ـ إن حال المشركين يوم القيامة يدعو للعجب ، فهم عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم خافضو الرؤوس من الحياء والندم ، والخزي ، والذل والغم والحزن ، ويقولون : ربّنا أبصرنا ما كنا نكذب ، وسمعنا ما كنا ننكر ، فارجعنا إلى الدنيا نعمل العمل الصالح الذي يرضيك ، إنا مصدّقون بالبعث وبالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق.

قال سفيان الثوري : فأكذبهم الله تعالى ، فقال : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨].

وقال محمد بن كعب القرظيّ : لما قالوا : ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا ، فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردّ عليهم بقوله : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا ، فلم يختلف منهم أحد ﴿وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي حق القول مني لأعذبنّ من عصاني بنار جهنم ، وعلم الله تعالى أنه لو ردّهم لعادوا.

وهذه الهداية : معناها خلق المعرفة في القلب. وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المجرى بالتكليف إليه ، وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره.

وقالت الإمامية في تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع ؛ لقطعهم بأن المراد : هداها إلى الإيمان.

وللإمامية جواب آخر : هو أن هداية الله سبحانه بالإلجاء والإجبار

والإكراه ممنوعة ، والمراد الهداية إلى الإيمان والطاعة بالاختيار ، حتى يصح التكليف ، فمن شاء الله آمن وأطاع اختيارا ، لا جبرا ، قال الله تعالى : ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير ٨١ / ٢٨] وقال : ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الدهر ٧٦ / ٢٩] ثم عقّب هاتين الآيتين بقوله تعالى : ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الدهر ٧٦ / ٣٠] فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا ان يشاء الله.

وتوسط أهل السنة فلم يقولوا بالإجبار كالمجبرة ، ولا بالاختيار المطلق كالقدرية ، وخير الأمور أوساطها ، وقالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، كالتفرقة بين حركة الارتعاش غير الإرادية وحركة الاختيار ، وسموا هذه المنزلة الوسطى كسبا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز ، وهو قوله سبحانه : ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦].

٦ ـ يقال للمجرمين يوم القيامة على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم رسل الله ، وإنكاركم البعث ، وترككم العمل له كالناسين ، والله يعاملكم معاملة الناسي والمنسيين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، وذوقوا العذاب المخلّد ، وهو الدائم الذي لا انقطاع له في جهنم بسبب أعمالكم في الدنيا من المعاصي.

صفة المؤمنين في الدنيا وجزاؤهم عند ربهم في الآخرة

﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦)

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾

الإعراب :

﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ ..﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿خَرُّوا﴾. وكذلك جملة ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ منصوبة على الحال ، وكذلك ﴿سُجَّداً﴾ حال ، وكذلك موضع ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكذلك موضع ﴿مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ كلها منصوبات على الحال من ضمير ﴿خَرُّوا﴾ و ﴿سَبَّحُوا﴾.

﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ إما منصوبان على المفعول لأجله أو منصوبان على المصدر.

﴿ما أُخْفِيَ لَهُمْ ما﴾ : إما اسم موصول بمعنى الذي ، وصلته ﴿أُخْفِيَ﴾ والعائد مقدر ، أي لهم ، وهو منصوب ب ﴿تَعْلَمُ﴾. وإما استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿أُخْفِيَ﴾ خبره. هذا على قراءة ﴿أُخْفِيَ﴾ فعل مضارع. وأما على قراءة ﴿أُخْفِيَ﴾ المبني للمجهول ، يكون ﴿ما﴾ منصوبا ب ﴿أُخْفِيَ﴾ أي فلا تعلم نفس أي شيء أخفي لهم ، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿تَعْلَمُ﴾ لأن الاستفهام له صدر الكلام ، فلا ينصب بما قبله وإنما ينصب بما بعده.

البلاغة :

﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ بينهما طباق.

﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ كناية عن كثرة العبادة ليلا.

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِنا﴾ القرآن ﴿ذُكِّرُوا﴾ وعظوا ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ سقطوا ساجدين ، خوفا من عذاب الله ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ نزّهوه عما لا يليق به ، كالعجز عن البعث ، حامدين له ، خوفا من عذاب الله ، وشكرا على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى ، فقالوا : سبحان الله وبحمده ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة ، كما يفعل من يصرّ مستكبرا.

﴿تَتَجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ﴾ جمع جنب ، وهو شق الإنسان ﴿عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ الفرش ومواضع النوم ، جمع مضجع ، وهو مكان النوم أو الاضطجاع ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه ﴿خَوْفاً﴾ من سخطه وعقابه ﴿وَطَمَعاً﴾ في رحمته ، فسرها النبي ﷺ بقيام العبد من الليل ﴿يُنْفِقُونَ﴾ يتصدقون ، أو ينفقون في وجوه الخير.

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ما أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ خبئ لهم ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي من شيء تقرّ به عيونهم وتسرّ ، يقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة : «يقول الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ذخرا ، بله [١] ما أطلعكم عليه ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».

سبب النزول :

نزول الآية (١٦):

﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ﴾ : أخرج البزار عن بلال قال : كنا نجلس في المسجد ، وناس من أصحاب النبي ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ لكن في إسناده ضعيف. وذكره الواحدي النيسابوري عن مالك بن دينار قال : سألت أنس بن مالك عن هذه الآية فيمن نزلت ، فقال : كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وهذا مروي عن قتادة وعكرمة.

وأخرج الترمذي وصححه عن أنس : أن هذه الآية نزلت في انتظاره الصلاة التي تدعى «العتمة» أي العشاء.

وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ في قوله : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ قال : هي قيام العبد أول الليل.

وقال الحسن البصري ومجاهد ومالك والأوزاعي : نزلت في المتهجدين الذين يقومون الليل إلى الصلاة.

ويدل على صحة هذا السبب ما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم ، وابن جرير والحاكم وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : «كنت مع النبي ﷺ في سفر [٢] ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي

---

(١) بله : اسم فعل مبني على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم أعظم.

(٢) في غزوة تبوك.

الله ، أخبرني عما يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار ، قال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت ؛ ثم قال :

ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ . حتى بلغ . ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقلت : بلى ، يا رسول الله ، فقال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت : بلى ، يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ، ثم قال : كفّ عليك هذا ، فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال : ثكلتك أمّك يا معاذ ، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم . أو قال على مناخرهم . إلا حصائد ألسنتهم».

المناسبة :

بعد بيان حال الكافرين في موقف الحساب يوم القيامة من ذلة وخزي وخجل ، وما يتعرضون له من عذاب شديد مخلّد ، أبان الله تعالى حال أهل الإيمان في الدنيا من طاعة ربهم وتعظيمه وحمده والتقرب إليه بالنوافل ، وما أعد لهم من نعيم وسرور ، جزاء على أعمالهم.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إنما يصدّق بآيات القرآن والآيات الكونية وبالرسل المرسلين

الذين إذا وعظوا بها واستمعوا لها بعد تلاوتها عليهم ، سقطوا بأعضائهم وجباههم ساجدين لله ، تذللا وخضوعا ، وإقرارا بالعبودية ، ونزّهوه في سجودهم عما لا يليق به من أوضار الشرك كاتخاذ الصاحبة والولد والشريك ، حامدين ربهم على آلائه ونعمه ، أي جامعين بين التسبيح والتحميد بأن يقولوا : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربي الأعلى ، وهم لأن قلوبهم عامرة بالإيمان لا يستكبرون عن طاعة ربهم ، واتباع الآيات والانقياد لها ، كما يفعل الكفرة الجهلة الفجرة الذين يتولون مستكبرين ، فلهم عذاب أليم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠].

هذه أوصاف المؤمنين : العبادة ، والتقديس مع الحمد ، والطاعة والانقياد ، ثم ذكر الله تعالى لهم أوصافا أخرى : هي التهجد أو قيام الليل ، والدعاء الخالص لله ، والإنفاق في وجوه الخير : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي تترفع جوانبهم عن أماكن النوم والراحة ، يبادرون إلى قيام الليل تهنأ نفوسهم بمناجاة ربهم ، وتقرأ عينهم وترتاح ضمائرهم بالعبادة ، ويدعون ربهم دعاء خالصا موقنين بالإجابة ، خوفا من العقاب ، وطمعا بالرحمة وجزيل الثواب ، وينفقون بعض أموالهم في سبل الخير والبر ومرضاة الله ، فيجمعون بين فعل القربات الشخصية والقربات الاجتماعية.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبّه وأهله إلى صلاته ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ؛ ورجل غزا في سبيل الله تعالى ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار ، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه ، رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي ، فيقول الله عزّ وجلّ للملائكة : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه».

وذكر الثعلبي مرفوعا عن أسماء بنت يزيد قال النبي ﷺ : «إذا جمع الله الأولين والآخرين ، جاء مناد ، فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلّهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقومون ، وهم قليل ، ثم يرجع ، فينادي : ليقم الذين كانوا يحمدون الله على كل حال في السرّاء والضّرّاء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرّحون جميعا إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس».

ثم ذكر الله تعالى جزاء أولئك المؤمنين الموصوفين بما تقدم فقال :

﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي فلا يعلم أحد على الإطلاق من الملائكة والرسل عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، جزاء عدلا مقابلا لصالح أعمالهم التي أخفوها فلم يراءوا بها الناس ، فأخفى الله ثوابهم.

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وروى الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : «إنه لمكتوب في التوراة : لقد أعدّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلم ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، وإنه في القرآن : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ من صفات المؤمنين أنهم يخرون سجدا لله تعالى على وجوههم ، تعظيما

لآياته ، وخوفا من سطوته وعذابه ، وأنهم يقرنون التسبيح أي التنزيه بالتحميد ، فيقولون في سجودهم : سبحان الله وبحمده ، سبحان ربي الأعلى وبحمده ؛ أي تنزيها لله تعالى عن قول المشركين.

وهم أيضا ينقادون لأمر ربهم ، فلا يستكبرون عن عبادته ، كما استكبر أهل مكة وأمثالهم بعدهم عن السجود لله تعالى.

٢ ـ ومن صفات المؤمنين أيضا : ملازمة قيام الليل ، أي صلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل ، وقيل عن قتادة وعكرمة : التنفل ما بين المغرب والعشاء. ومع تجافي جنوبهم عن المضاجع هم أيضا في كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم ، خوفا من العذاب ، وطمعا في الثواب ، ويتصدقون بفضول أموالهم وتلك هي النوافل بعد أداء الزكاة المفروضة.

وقد وردت أحاديث كثيرة ذكرت بعضها في فضل قيام الليل.

٣ ـ إن جزاء أولئك المؤمنين مفتوح وعظيم جدا ، لا يعلم حقيقته غير الله عزّ وجلّ ، فلا يدري أحد ما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك. وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلا ، كما جاء مبيّنا في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : «سأل موسى عليه السلام ربّه فقال : يا ربّ ، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال : هو رجل يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : أي ربّ ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول : رضيت ربّ ، فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله معه ، ومثله ومثله ومثله ، فقال في الخامسة : رضيت ربّ ، فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذّت عينك ، فيقول : رضيت ربّ.

قال : فأعلاهم منزلة؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر. قال : ومصداقه من كتاب الله قوله تعالى : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

جزاء المؤمنين وجزاء الفاسقين

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)﴾

البلاغة :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى .. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة ، وذلك بين الوصفين والجزاءين.

﴿الْأَدْنى الْأَكْبَرِ﴾ بينهما طباق ؛ لأن الأكبر هو الأقصى.

المفردات اللغوية :

﴿مُؤْمِناً﴾ مصدقا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿فاسِقاً﴾ كافرا خارجا من الإيمان والطاعة وأحكام الشرع ، فهو أعم من الكفر ، وقد يرادفه كما في آية : ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ [النور ٢٤ / ٥٥] وأصل الفسق : الخروج ،

يقال : فسقت الثمرة : إذا خرجت من قشرها ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ المؤمنون والفاسقون في الشرف والمثوبة ، وجمع الفعل بعد كلمتي ﴿مُؤْمِناً﴾ و ﴿فاسِقاً﴾ للحمل على المعنى.

﴿جَنَّاتُ الْمَأْوى﴾ جنات المسكن الحقيقي ، أما مساكن الدنيا فمرتحل عنها ﴿نُزُلاً﴾ المراد هنا : ثوابا وجزاء ، وأصل النزل : ما يعد للضيف من الطعام والشراب والمبيت ، ثم أطلق على كل عطاء ﴿بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

﴿فَسَقُوا﴾ بالكفر وتكذيب الرسل ﴿أُعِيدُوا فِيها﴾ يراد به خلودهم فيها ﴿ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ ..﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم ﴿الْعَذابِ الْأَدْنى﴾ أي الأقرب والأقل ، وهو عذاب الدنيا الذي تعرضوا له بالجدب سبع سنين والقتل والأسر والأمراض ﴿دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي قبل عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل من بقي منهم يتوبون عن الكفر ، روي أن الوليد بن عقبة فاخر عليا يوم بدر ، فنزلت هذه الآيات.

﴿بِآياتِ رَبِّهِ﴾ الآيات القرآنية والكونية ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها﴾ فلم يتفكر فيها. و ﴿ثُمَ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها ، مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة ، بعد التذكير بها عقلا ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي من المشركين منتقمون.

سبب النزول :

نزول الآية (١٨):

أخرج الواحدي وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب : أنا أحدّ منك سنانا ، وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة منك ، فقال له علي : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت ﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾ قال : يعني بالمؤمن عليا ، وبالفاسق الوليد بن عقبة.

المناسبة :

بعد بيان حال المجرم والمؤمن ، سأل العقلاء : هل يستويان؟ وبعد الجواب

أو البيان بأنهما لا يستويان ، ذكر الله تعالى تفاوتهما في المنزلة والحكم يوم القيامة ، عملا بمقتضى عدله وكرمه.

التفسير والبيان :

﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً؟ لا يَسْتَوُونَ﴾ أي هل يستوي المؤمن بالله ورسوله ، المطيع لأمر ونهيه ، والكافر الخارج عن طاعة ربه ، المكذب رسل الله إليه؟ والجواب : لا يستوي المؤمنون والفاسقون عند الله يوم القيامة.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢١] وقوله سبحانه : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٨] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠].

ثم ذكر الله تعالى جزاء الفريقين في الآخرة فقال :

١ ـ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى ، نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إن الذين صدقت قلوبهم بآيات الله ورسله ، وعملوا صالح الأعمال ، فلهم جنات المأوى التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ، ثوابا وجزاء وتكريما لهم على أعمالهم الحسنة وأفعالهم الطيبة التي فعلوها في الدنيا. وقوله في حق المؤمنين ﴿فَلَهُمْ﴾ بلام التمليك زيادة إكرام.

٢ ـ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ﴾ أي وأما الذين فسقوا أي كفروا بالله ، وخرجوا عن الطاعة ، وعملوا السيئات ، فمأواهم النار التي يأوون إليها ويستقرون فيها ، ثم ذكر تعالى سوء حالهم فيها ، فقال :

﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها﴾ أي كلما عزموا على الخروج منها من شدة العذاب والأهوال ، أعيدوا فيها ، ودحروا إليها ، أي أنهم مخلّدون فيها ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ ، أُعِيدُوا فِيها﴾ [الحج ٢٢ / ٢٢].

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم.

ويقال لهم تقريعا وتوبيخا وتهديدا :

﴿وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تذوقوا وتحملوا عذاب النار الذي كذبتم به في الدنيا فإن الله أعدّه للمشركين به.

وهناك عذاب آخر سابق له :

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ولنذيقن الكفار والعصاة شيئا من العذاب الأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا من المصائب والآفات كالجوع والقتل والسبي ، قبل مجيء وحدوث العذاب الأشد الأعظم وهو عذاب القيامة ، ليرجعوا عن ضلالهم إلى الهدى والرشد ، ويثوبوا عن الكفر ، ويؤمنوا بربهم ، ويصدقوا برسولهم.

والترجي في قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ محال على الله تعالى ، فيراد به تعليل ذلك الفعل بأمر الرجوع ، كما يقال : فلان اتجر ليربح ، أو يكون معناه : لنذيقنهم إذاقة الراجين ، أو إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه.

ثم ذكر الله تعالى سببا عاما للعقاب وهو ظلم الناس ، فقال :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن ذكّره الله بآياته القرآنية ومعجزات رسله ، وبيّنها

له ووضحها ، ثم تركها بعد ذلك وجحدها ، وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها ، فإننا سننتقم أشد الانتقام من الكفار الذي كفروا بالله واقترفوا المعاصي والمنكرات.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق ، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾» (١).

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ ليس في حكم الله وعدله ولا في ميزان العقل السليم أن يسوّى بين المؤمن والفاسق في الثواب والجزاء في يوم القيامة.

٢ ـ يترتب على نفي المساواة بين المؤمن والكافر منع القصاص ـ في رأي الجمهور غير الحنفية ـ بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. ورأى أبو حنيفة قتل المسلم بالذمي ، وقال : أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب ، وفي الدنيا في العدالة.

وحمله الجمهور على عمومه ، إذ لا دليل يخصه.

٣ ـ مقر المؤمنين في الآخرة ثوابا وجزاء : جنات المأوى ، أي يأوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى ؛ لأن ذلك الموضع يتضمن جنات.

ومقام الفاسقين الخارجين عن الإيمان إلى الكفر النار ، وهم فيها خالدون ،

---

(١) قال ابن كثير عن هذا الحديث : وهذا حديث غريب جدا.

فكلما دفعهم لهب النار إلى أعلاها ، ردّوا إلى موضعهم فيها ؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها.

وتقول خزنة جهنم لهم ، أو يقول الله لهم : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ، ذوقا حسيا ومعنويا.

ويلاحظ من قوله تعالى : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر ، أما الكفر إذا جاء فلا التفات بعده إلى الأعمال ، لذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ ولم يقل : وعملوا السيئات ؛ لأن المراد من ﴿فَسَقُوا﴾ كفروا.

٤ ـ للكافرين أيضا عذاب آخر في الدنيا وهو مصائب الدنيا وأسقامها ، مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا. وينتظرهم العذاب الأكبر وهو عذاب يوم القيامة.

وذلك العذاب إنذار ، لعله يرجع من بقي منهم إلى الرشاد والهداية ؛ فإن عذاب الدنيا لا يقارن بعذاب الآخرة ؛ لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا مديدا ؛ لأنه يعقبه الموت ، أما عذاب الآخرة فهو شديد ومديد.

٥ ـ لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكرت له آيات ربه أي حججه وعلاماته ، ثم أعرض عنها ، وترك قبولها ، فإن الله منتقم أشد الانتقام من المشركين ؛ لتكذيبهم وإعراضهم.

عقد الصلة بين الرسالتين

إنزال التوراة على موسى عليه السلام وموقف اليهود منها

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ لِقائِهِ﴾ الهاء عائدة إلى الكتاب ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول ، والفاعل مقدر ، وتقديره : من لقاء موسى الكتاب ، ويصح أن تكون عائدة إلى موسى ، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، والمفعول به محذوف وهو ﴿الْكِتابَ﴾ وتقديره : فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب ، وهو التوراة ، ويصح أن تكون عائدة إلى «ما لاقى موسى» وتقديره : فلا تكن في مرية من لقاء ما لاقى موسى من التكذيب والإنكار من قومه.

﴿لَمَّا صَبَرُوا لَمَّا﴾ ظرف زمان بمعنى «حين» في موضع نصب ، والعامل فيه ﴿يَهْدُونَ﴾ ومن قرأ بالتخفيف وكسر اللام ، كانت ﴿لَمَّا﴾ مصدرية ، وتقديره : لصبرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ هو هنا : ضمير فصل ؛ لأن ﴿يَفْصِلُ﴾ فعل مضارع ، ولو كان فعلا ماضيا لم يجز ، فإنهم يجيزون : زيد هو يقوم ، قال تعالى : ﴿وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٠] وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ [التوبة ٩ / ١٠٤] ولا يجيزون : زيد هو قام. وإنما جاز لأن الفعل المضارع أشبه الأسماء شبها أوجب له الإعراب ، بخلاف الفعل الماضي.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ التوراة ، كما آتيناك. ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ﴾ لا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل ٢٧ / ٦]

فإنا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه ، فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه. ويحتمل : من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ، وقد التقيا ليلة الإسراء ، قال ﷺ : «رأيت ليلة أسري بي موسى عليه السلام رجلا آدم طوالا جعدا ، كأنه من رجال شنوءة».

﴿وَجَعَلْناهُ﴾ أي الكتاب المنزل على موسى. ﴿هُدىً﴾ هاديا. ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنا﴾ إياهم ، أو بتوفيقنا لهم. ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي لصبرهم على طاعة دينهم وعلى البلاء في الدنيا. ﴿وَكانُوا بِآياتِنا﴾ الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا. ﴿يُوقِنُونَ﴾ يصدقون ، لإمعانهم النظر فيها. ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي ، فيميز الحق من الباطل والمحق من المبطل. ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

المناسبة :

بعد تقرير الأصول الثلاثة في أول السورة وهي التوحيد والبعث والرسالة ، عاد في آخرها إلى الأصل الثالث مرة أخرى وهو الرسالة المذكورة أولا في قوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

واختار موسى لقربه من محمد ﷺ ووجود من كان على دينه ، إلزاما لهم ، وإنما لم يختر ذكر عيسى عليه السلام ؛ لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته. وأما النصارى ، فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام ، فذكر المجمع عليه.

التفسير والبيان :

﴿لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ، فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ يخبر الله تعالى عبده ورسوله محمدا ﷺ بأنه آتى موسى عليه السلام التوراة ، فلا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب ، فإنا آتيناك القرآن كما آتينا موسى التوراة ، فأنت لست ببدع من الرسل قط ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٩] والصلة قائمة بين الرسالتين والمهمة واحدة ، فإن التوراة جعل أيضا هاديا ومرشدا لبني إسرائيل ، كما أنك مرشد لأمتك ، كما قال تعالى : ﴿وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ، وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢].

والمقصود بالآية حمل اليهود على الإيمان برسالة محمد ﷺ ، وتحريض المشركين وغيرهم على التصديق بتلك الرسالة ، فإن التشابه بين الرسالتين قائم والمهمة واحدة ، وكذلك تسلية الرسول ﷺ عن حزنه الشديد بسبب إعراض قومه عن رسالته ، فإن موسى عليه السلام لقي من قومه الأهوال وأنواع الأذى ، فقالوا : ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء ٤ / ١٥٣] ، وقالوا : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا﴾ [المائدة ٥ / ٢٤] ، واتخذوا العجل إلها ونحو ذلك.

﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ﴾ أي وجعلنا من بني إسرائيل قادة يدعون الناس إلى الخير والإيمان ، بإذننا وتوفيقنا وإعانتنا لهم ؛ لأنهم صبروا على طاعة دينهم وتصديق رسلهم واتباعهم ، وعلى البلاء الذي تعرضوا له في الدنيا ، كإيذاء فرعون لهم واستعباده إياهم ، وكانوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والقدرة مصدقين على وجه اليقين.

وهذا إيماء آخر إلى أن القرآن هاد للناس كالتوراة ، وأن أتباعه هداة مخلصون ، وهو أمر بالصبر والإيمان بأن وعد الله حق.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يقضي يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه من أمور الاعتقاد والدين والحساب والثواب والعقاب ، والأعمال ، فيثيب المطيع بالجنة ، ويعاقب العاصي بالنار.

وهذا باعث آخر على الإيمان الصحيح والعمل الصالح ، وتهديد ضمني لمن يعرض عن هداية الله التي صارت متمثلة بالقرآن بعد فقد التوراة وافتقاد الأصل الصحيح للإنجيل.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ كما أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، فالإيمان بهما والعمل بأحكامهما واجب ، إلا أن فقد التوراة جعل العمل بالقرآن من الناحية الواقعية متعينا ، كما أن المنزل عليه القرآن خاتم النبيين ، ونسخت رسالته بنص القرآن وتشريعه الرسالات السماوية السابقة ، حتى لو فرض بقاء شيء ثابت صحيح منها.

٢ ـ إن أتباع محمد ﷺ هم الدعاة إلى دين الله وشرعه ، كما أن أتباع موسى عليه السلام كانوا قادة يقتدى بهم في الدين ، ويدعون الناس إلى الإيمان بالأصل الصحيح للتوراة والإنجيل ، وإطاعة الله فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وذلك كله بإذن الله وتوفيقه. فحيث جعل الله كتاب موسى هدى ، وجعل منهم أئمة يهدون ، كذلك يجعل القرآن المنزل على محمد ﷺ كتاب هدى ، ويجعل من أمته صحابة يهدون.

٣ ـ إن اتخاذ بعض الناس أئمة سببه الصبر على الطاعة للدين ، والرضا بأمر الله ، والعمل على إعلاء كلمة الله ، والصبر على البلاء والمحن في سبيل الله تعالى ، فإن جعل الأئمة هادين يحصل بالصبر ، وهذا أمر بالصبر والإيمان بأن وعد الله حق.

٤ ـ إن الله سبحانه هو القاضي العدل والحاكم المطلق بحق بين المؤمنين والكفار ، فيجازي كلا بما يستحق ، ويفصل بين المختلفين من أمة واحدة ، كما يفصل بين المختلفين من الأمم.

تأكيد ثبوت التوحيد والقدرة والحشر

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل ﴿يَهْدِ﴾ مقدر وهو المصدر ، أي أولم يهد الهدى لهم. وقيل : إن الفاعل هو الله تعالى ، أي أولم يهد الله لهم. وقرى «نهد» وتقدير الفاعل : نهد نحن لهم. و «كم» في موضع نصب ب ﴿أَهْلَكْنا﴾.

﴿مَتى هذَا الْفَتْحُ هذَا﴾ مبتدأ ، و ﴿الْفَتْحُ﴾ صفته ، و ﴿مَتى﴾ خبره ؛ لأن الفتح مصدر وهو حدث ، و ﴿مَتى﴾ ظرف زمان ، وظروف الزمان يجوز أن تكون أخبارا عن الأحداث ، لوجود الفائدة في الإخبار بها عنها.

البلاغة :

﴿إِنَّا مُوقِنُونَ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ سجع لمراعاة الفواصل ورؤوس الآيات.

المفردات اللغوية :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي أولم يتبين لكفار مكة كثرة من أهلكناهم من القرون أي الأمم الماضية بكفرهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ﴾ أي يمرّ أهل مكة في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام وغيرها على ديارهم ، فيعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ﴾ دلالات على قدرتنا ﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ.

﴿الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ اليابسة التي لا نبات فيها ؛ لأنه جرز نباتها ، أي قطع وأزيل ، لا التي لا تنبت ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعامُهُمْ﴾ كالتبن والورق ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ هذا ، فيستدلون به على كمال قدرته وفضله ، فيعلموا أنا نقدر على إعادتهم؟

﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين ﴿الْفَتْحِ﴾ النصر أو الفصل بالحكم ، أي متى هذا الحكم الحاسم بيننا وبينكم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في الوعد به ﴿قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ بإنزال العذاب بهم يوم القيامة ، فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم. وقيل : يوم بدر ، أو يوم فتح مكة ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تبال بتكذيبهم ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصرة عليهم أو إنزال العذاب بهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليك ، أو الموت أو القتل.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٩):

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ : أخرج ابن جرير عن قتادة : قال الصحابة : إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم ، فقال المشركون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين؟ فنزلت.

المناسبة :

في القسم الأخير من السورة عود على بدء في تقرير الأصول الثلاثة وهي الرسالة والتوحيد والبعث ، فبعد أن ذكر تعالى بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ تقرير رسالة محمد ﷺ وإعادة بيان ما سبق في قوله : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ..﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد وبرهانه وإثبات القدرة الإلهية بالمشاهدات المحسوسة بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ..﴾ ثم أعاد ذكر الحشر وإثباته بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ﴾؟

التفسير والبيان :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ، إِنَّ فِي

﴿ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ أي أولم يتبين لهؤلاء المكذبين بالرسل كثرة من أهلكنا من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم ، وهؤلاء المكذبون يمرون أثناء أسفارهم في مساكن وديار أولئك المكذبين ، ويشاهدون آثار تدميرهم كعاد وثمود وقوم لوط ، لم تبق منهم باقية ولا أثر ، كقوله تعالى : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ [مريم ١٩ / ٩٨] وقوله : ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها﴾ [هود ١١ / ٦٨] وقوله : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا﴾ [النمل ٢٧ / ٥٢] وقوله : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ ، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٥].

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾؟ أي إن في تدمير أولئك القوم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لدلائل على قدرتنا ، وعبرا وعظات يعتبرون ويتعظون بها ، فهلا يسمعون عظاتنا ، ويتذكرون تذكيرنا لهم ، سماع تدبر واتعاظ وتفكر؟ والخلاصة : أن مساكن المهلكين دالة على حالهم.

وبعد بيان القدرة على الإهلاك ، بيّن الله تعالى القدرة على الإحياء ، فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ أي أولم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث أننا قادرون على الإحياء ، فنسوق الماء من السماء أو السيول إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ، فنخرج به زرعا أخضر تأكل منه أنعامهم من التبن والشعير والحشيش ، وتتغذى منه أجسامهم ، وتتقوى به أبدانهم ، أفلا يبصرون هذا بأعينهم ، فيعلموا أننا قادرون على الإعادة بعد الموت ، كإحياء الأرض بعد موتها؟

ثم ذكر تعالى تساؤل المشركين عن يوم البعث والحشر ، فقال :

﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي ويتساءل هؤلاء

الكفار عن ميعاد وقوع بأس الله وعذابه بهم استبعادا وتكذيبا وعنادا ، قائلين : متى تنتصر علينا يا محمد ، ومتى ينتقم الله لك منا ، وأنت وصحبك ما نراكم إلا مختفين خائفين ذليلين؟ إن كنتم صادقين في تهديدكم ووعيدكم على الكفر وعبادة الأوثان.

فأجابهم الله تعالى موبخا لهم :

﴿قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين برسالتك : إن يوم الحكم الفاصل والقضاء والفصل النافذ هو يوم القيامة الذي لا ينفع فيه إيمان الكافر ولا توبته ، ولا هم يؤخرون فيه بالإعادة إلى الدنيا للتوبة والإيمان وإصلاح العمل ؛ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ، فلا تستعجلوه ، فهو كائن حتما.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي أعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين ، ولا تبال بتكذيبهم ، وتابع تبليغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر النصر من الله الذي وعدك به ، فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد.

إنك أنت منتظر نصر الله ، وهم منتظرون الغلبة عليك والموت أو القتل ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ : شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور ٥٢ / ٣٠] وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة ربك ، وسيجدون سوء ما ينتظرونه فيك من عقاب الله بهم وتعذيبه إياهم في الدنيا والآخرة ، وما علموا أن الله عاصمك منهم ومؤيدك بنصره.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن إهلاك الأمم الظالمة العاتية دليل على قدرة الله ووحدانيته ، وفي ذلك عبرة للمعتبر ، والمشركون الذين يشاهدون آثار الدمار والهلاك ، لا يسمعون آيات الله وعظاته فيتعظون ، إذ ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشيء ويفهمه ، ولا قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم.

٢ ـ إن سوق الماء بقدرة الله إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لإحيائها بالنبات الأخضر والزرع النضر دليل آخر على قدرة الله على الإحياء وإعادة البشر لحياة البعث والنشور ، ولكن الكفار لا يتأملون هذا بعين البصيرة ولا يبصرون هذا بحق ، فيعلمون أن الله قادر على الحشر وعلى إعادتهم إلى الحياة يوم القيامة.

وفي هذين الدليلين من الإهلاك والإماتة ، والأحياء والاعادة إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله تعالى.

٣ ـ إن حماقة المشركين دفعتهم إلى استعجال العذاب والعقاب يوم القيامة. ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عزّوجلّ بيننا يوم القيامة ، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ، فقال الكفار على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى يوم الفتح ، أي هذا الحكم؟

٤ ـ كان الرد الحاسم على هؤلاء الحمقى أن يوم الفتح والحكم والفصل بين المؤمنين والكفار كائن حتما لا شك فيه ولا بد منه ، ولكن لا ينفع فيه الإيمان حينئذ ؛ لأن الإيمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ، وكذلك لا يؤخرون بالإعادة للدنيا ، ولا يمهلون للتوبة.

٥ ـ النتيجة المطلوبة أن الإعراض عن المكذبين بالقرآن والرسول بعد

البيانات المتكررة والبراهين المتلاحقة هو الواجب ، ولينتظر نبي الله والمؤمنون يوم الفتح وحكم الله عليهم ، وتحقيق النصر ، ولن يفيد الكفار المكذبين انتظار حوادث الزمان بالنبي ﷺ وأتباعه ، فإن الله عاصمه من الناس ، وناصر جنده المؤمنين ، والشعار حينئذ : انتظر عذابهم ، إنهم منتظرون هلاكك؟! وهم هالكون لا محالة.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة الأحزاب

مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الأحزاب لاشتمال الكلام فيها على وقعة الخندق أو الأحزاب الذين تجمعوا حول المدينة ، من مشركي قريش وغطفان ، بالتواطؤ مع المنافقين ويهود بني قريظة ، لحرب المسلمين ومحاولة استئصالهم ،كما سميت (الفاضحة) لأنها افتضحت المنافقين ، وأبانت شدة إيذائهم لرسول الله ﷺ في أزواجه وتألبهم عليه في تلك الموقعة.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بسورة السجدة التي قبلها في وجوه التشابه بين مطلع هذه وخاتمة تلك ، فإن السورة السابقة ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره ﷺ بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحي إليه من ربه ، والتوكل عليه.

موضوعها :

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المدنية ، التي تهتم بالجانب التشريعي للأمة ، ولا سيما تنظيم الأسرة النبوية ، وإبطال بعض عادات الجاهلية كالتبني والظهار واعتقاد وجود قلبين للإنسان ، وعدم إيجاب العدّة على المطلقة

قبل الدخول ، وفرض الحجاب على نساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين ، وبيان خطورة أمانة التكليف.

مشتملاتها :

اشتملت هذه السورة على بعض الآداب الاجتماعية ، والأحكام التشريعية وأخبار في السيرة عن غزوتي الأحزاب وبني قريظة وعن المنافقين.

أما الآداب الاجتماعية : فأهمها آداب الدعوة إلى الولائم ، والحجاب وعدم التبرج ، وتعظيم النبي ﷺ في بيته ومع الناس ، والقول السديد.

وأما الأحكام الشرعية فكثيرة : منها الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، ووجوب اتباع الوحي ، وحكم الظهار ، وإبطال عادة التبني وعادة التوريث بالحلف أو الهجرة ، وجعل الرحم والقرابة أساس الميراث ، وتعداد المحارم وعدد زوجات النبي ﷺ ، والصلاة على النبي ﷺ ، وفرض الحجاب الشرعي وتطهير المجتمع من مظاهر التبرج الجاهلية ، وعدم إلزام المطلقة قبل الدخول بالعدة ، وتخيير نساء النبي ﷺ بين الفراق والبقاء معه ، وتخصيص زوجاته بمضاعفة الأجر والثواب عند الطاعة ، ومضاعفة العذاب عند المعصية ، وتحريم إيذاء الله والرسول ﷺ والمؤمنين ، وخطورة أمانة التكليف ، وعقاب المسيء وإثابة المحسن.

وأما أخبار السيرة : ففي السورة بيان توضيحي عن (غزوة الأحزاب) أو (غزوة الخندق) وغزوة بني قريظة ، ونقضهم العهد مع النبي ﷺ ، وكشف فضائح المنافقين والتحذير من مكائدهم ، وتهديدهم مع المرجفين في المدينة على جرائمهم بالطرد والتعذيب ، وتذكير المؤمنين بنعم الله العظمى التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد اشتداد الخطب عليهم ، ورد كيد أعدائهم بالملائكة والريح ، حتى صار ذلك معجزة خارقة للعادة ، وبيان قصة زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، وزينب بنت جحش زوج النبي ﷺ.

الأمر بتقوى الله واتباع الوحي والتوكل على الله

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً (٣)﴾

البلاغة :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ أي دم على تقواه ، وليتق الله المؤمنون ، بأسلوب يقصد به تنبيه بالأعلى وهو النبي على الأدنى وهم المؤمنون ، فإنه تعالى إذا أمر رسوله بالتقوى ، كان المؤمنون مأمورين بها بطريق الأولى أو أنه أمر قصد به الثبات والاستدامة على التقوى. ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك وأوامر ربك. ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي إن الله كان وما يزال عالما بكل شيء قبل وجوده ، حكيما فيما يخلقه. ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي القرآن. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ وكل أمرك إلى تدبيره. ﴿وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ حافظا لك ، موكولا إليه كل الأمور ، والأمة تبع له في المذكور كله.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله ، على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوّفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات.

وذكر الواحدي في أسباب النزول : أن الآيات نزلت في أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السّلمي قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ (زعيم المنافقين) وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق ، فقالوا للنبي ﷺ ، وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزّى ومناة ، وقل : إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربّك ، فشقّ على النبي ﷺ قولهم ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم ، فقال : «إني قد أعطيتهم الأمان» فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه ، فأمر رسول الله ﷺ أن يخرجهم من المدينة ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

التفسير والبيان :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي يا أيها الرسول محمد ، داوم على تقوى الله وخف عقابه بإطاعة أوامره واجتناب محارمه ، ولا تسمع من الكافرين والمنافقين ولا تستشرهم في شيء ، واحترس منهم ، ولا تستجب لمطالبهم بتخصيص بعض المجالس والأوقات لهم وطرد الضعفاء ، إن الله عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإن أولئك الكفار أعداؤك الذين يريدون هلاكك.

وقوله : ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ﴾ نهي مؤكد لمضمون الأمر السابق ، أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم.

روي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، تابعه ناس من اليهود نفاقا ، وكان يلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصح خداعا ؛ فحذره الله منهم ، ونبهه إلى عداوتهم.

وقال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ،

ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله مخافة عذاب الله.

ثم أكد الله تعالى وجوب امتثال أوامر الله ، فقال :

﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي اعمل بمقتضى الوحي المنزل إليك من ربك من قرآن وسنة ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، يعلم بدقة بواطن الأشياء وظواهرها ، ثم يجازيكم عليها. وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ كانَ ..﴾ علة للأمر باتباع الوحي ، وإشارة إلى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك ، لا تخفي في نفسك تقوى غير الله.

ثم أمر تعالى رسوله بعد التزام الأوامر بتفويض الأمور إلى الله وحده ، فقال :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ أي فوض جميع أمورك وأحوالك إلى الله ، وكفى به وكيلا لمن توكل عليه ، وأناب إليه. والمقصود أن الله عاصمك وحسبك ، فهو وحده جالب النفع لك ، ودافع الضر عنك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إيجاب التقوى والمداومة عليها ومتابعة طاعة الله أمر عام مفروض على جميع البشر ، سواء أكانوا أنبياء ورسلا وملائكة أم غيرهم ، إلا أن الأنبياء والملائكة المعصومين من المعصية يؤمرون بالتقوى تعليما وإرشادا لغيرهم ، وتنبيها بالأعلى على الأدنى. ويلاحظ أن الله تعالى لم يخاطب نبيه محمدا ﷺ إلا بلفظ النبوة والرسالة : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ولم يخاطبه باسمه ، تعظيما لشأنه ، وإشادة بمقامه ، وتعليما لنا للأدب معه ، مع أنه تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم فقال : ﴿يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾ [هود ١١ / ٤٨] ﴿يا إِبْراهِيمُ ، قَدْ

﴿صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾ [الصافات ٣٧ / ١٠٤ ـ ١٠٥] ﴿يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف ٧ / ١٤٤].

٢ ـ الأمر بالشيء نهي عن ضده ، لذا منع الله سبحانه من طاعة الكافرين من أهل مكة ونحوهم والمنافقين من أهل المدينة وأمثالهم فيما نهى عنه ، والتحذير من الميل إليهم ، فإن الله عليم بكفرهم ونفاقهم ، حكيم فيما يفعل بهم ، والمقصود بذلك الاحتراس من مؤامراتهم ومكائدهم وخططهم المشبوهة.

والمراد بالكافرين من أهل مكة : أبو سفيان وأبو الأعور وعكرمة. والمراد بالمنافقين من أهل المدينة : عبد الله بن أبيّ ، وطعمة بن أبيرق ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

٣ ـ ومن الواجب أيضا اتباع الوحي من قرآن وسنة ، وفي ذلك زجر عن اتباع مراسم الجاهلية. وأمر بجهادهم ومنابذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ، فلا مساغ للاجتهاد في مورد النص. والخطاب للنبي ﷺ ولأمته.

٤ ـ على المؤمن بعد اتخاذ الأسباب والوسائل أن يعتمد على الله في جميع أحواله ، فهو الذي ينفع ويمنع ، ولا يضر معه معارضة أحد من البشر أو مخالفته ، وكفى بالله حافظا لجميع الأمور والأحوال.

والخلاصة : أن الله تعالى أراد بهذه الآيات غرس العزة والكرامة في نفوس المسلمين ، والثقة بالذات ، وعدم الالتفات إلى الأعداء ، ومن أجل تحقيق تلك الغايات ، قررت الآيات هذه الأحكام وهي أن الله عليم بالمصلحة والصواب ، حكيم لا يأمر ولا ينهى إلا على وفق الحكمة والصواب ، فالواجب الأول : امتثال الأمر وتنفيذ النهي ، والواجب الثاني : اتباع وحي الله ، فإن الله خبير بما يصلح أمور العباد ، والواجب الثالث : التوكل على الله حقا ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه ، وكفى بالله وكيلا.

تعدد القلب والظهار والتبني

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥)﴾

الإعراب :

﴿وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي ..﴾ أزواج : جمع زوج ، والزوج ينطلق على الذكر والأنثى ، يقال : هما زوجان ، وقد يقال للمرأة : زوجة ، واللغة الفصحى بغير تاء ، وهي لغة القرآن ، قال تعالى : ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة ٢ / ٣٥] ﴿وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٠].

و ﴿اللاَّئِي﴾ : فيه ثلاث قراءات ، بإثبات الياء ، وبحذفها ، وبجعل الهمزة بين بين تسهيلا بعد حذف الياء.

و ﴿تُظاهِرُونَ﴾ : يقرأ بتخفيف الظاء وتشديدها ، وأصلها : يتظاهرون.

﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ الْحَقَ﴾ منصوب على أنه مفعول به ل ﴿يَقُولُ﴾ أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي يقول القول الحق.

﴿وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ فِيما﴾ : إما مجرور بالعطف على ﴿فِيما﴾ في قوله : ﴿فِيما أَخْطَأْتُمْ﴾ وإما مرفوع بالابتداء ، أي ولكن ما تعمدت قلوبكم يؤاخذكم به.

البلاغة :

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ﴾ تنكير رجل للاستغراق والشمول ، وحرف الجر : لتأكيد

الاستغراق ، وذكر الجوف ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لزيادة تصوير الإنكار.

﴿أَخْطَأْتُمْ تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ جَعَلَ﴾ خلق ، وهذا رد على من زعم من الكفار أن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ﷺ . ﴿تُظاهِرُونَ مِنْهُنَ﴾ الظهار : أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، أو كظهر أحد محارمه ، أي أنت في التحريم علي كتحريم الأم ونحوها من المحارم. ﴿أُمَّهاتِكُمْ﴾ أي كالأمهات في التحريم ، فقد كان الظهار في الجاهلية طلاقا ، أما في الإسلام فتجب فيه الكفارة قبل الجماع. ﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ﴾ جمع دعيّ : وهو الذي تدّعى بنوته ، فيدعى لغير أبيه ابنا له ، وكان له أحكام الابن في الجاهلية وصدر الإسلام ، وفي الواقع هو ابن غيره. ﴿أَبْناءَكُمْ﴾ أي أبناء في الحقيقة. والمراد : ما جمع تعالى الزوجية والأمومة في امرأة ، ولا الدعوة والنبوة في رجل ، فكما لم يجعل الله قلبين في جوف لأدائه إلى تناقض : (وهو أن يكون كل منهما أصلا لكل القوى وغير أصل) لم يجعل الزوجة والدّعي اللذين لا ولادة بينهما وبينه أما ولا ابنا اللذين بينهما وبينه ولادة.

﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ ذلِكُمْ﴾ إشارة إلى كلّ ما ذكر ، و ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ أي مجرد قول في الظاهر ، لا حقيقة له في الواقع. ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَ﴾ أي يقول ما له حقيقة مطابقة للواقع. ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق. والمراد : نفي وجود القلبين ، ونفي الأمومة والبنوة عن المظاهر منها والمتبنى.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ أي لكن انسبوهم إليهم. ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ تعليل لما سبق ، و ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل تفضيل ، قصد به الزيادة مطلقا ، أي أعدل ، والمراد : البالغ في الصدق.

سبب النزول :

نزول الآية (٤):

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ﴾ : أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ يوما يصلي ، فخطر خطرة ، فقال المنافقون الذي يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين ، قلبا معكم وقلبا معه ، فأنزل الله : ﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة : قالوا : كان رجل يدعى ذا القلبين. قيل : إنه أبو معمر ، وقيل : إنه جميل بن أسد الفهري. وكانت الزوجة المظاهر منها كالأم ، ودعيّ الرجل : ابنه.

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري مثل الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، وزاد : وكان يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني. وأخرج عن مجاهد قال : نزلت في رجل من بني فهر قال : إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له : جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلا لبيبا حافظا لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو يوسف وهو معلّق إحدى نعليه بيده ، والأخرى في رجله ، فقال له : يا أبا معمر ، ما حال الناس؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك ، والأخرى في رجلك؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده [١].

نزول الآية :

﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ : نزلت في زيد بن حارثة ، كان عند الرسول ﷺ ، فأعتقه وتبناه قبل الوحي ، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد بن حارثة ، قالت اليهود والمنافقون : تزوج محمد ﷺ امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عنها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية [٢].

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ٢٠١

(٢) المرجع والمكان السابق.

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت في القرآن : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ فقال النبي ﷺ : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى بتقواه وطاعته والخوف منه ، ونهى عن طاعة الكفار والخوف منهم ، نفى تعدد القلب عند الإنسان ، وأبطل الظهار والتبني ، فإذا كان لا يجتمع في قلب إنسان الخوف من الله والخوف من غيره ، فليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصي بالآخر ، ولا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة ، ولا البنوة الحقيقية والتبني في رجل ، فجمع في الآيات بين أمر معروف حسي ، وبين أمرين معنويين.

التفسير والبيان :

﴿ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي إن الذات الإنسانية ووحدة التركيب العضوي واحدة في كل إنسان ، وما خلق الله لأي أحد قلبين ، فليس لأي رجل قلبان في صدره ، وإنما هو قلب واحد ؛ لأن القلب محل التوجيه والإرادة والعزم ، فإذا كان الإنسان مؤمنا بالله ورسوله ، فلن يكون كافرا أو منافقا ، أي أنه لا يجتمع في قلب واحد اعتقادان ، ولا يجتمع اتجاهان متضادان ، يأمر أحدهما أو ينهى بنقيض ما يطلبه الآخر.

والآية كما بان في سبيل النزول رد على ما كانت العرب تزعم أن اللبيب الأريب له قلبان ، فقيل لأبي معمر أو لجميل بن معمر الفهري أو لجميل بن أسد الفهري : ذو القلبين. والظاهر أنه أبو معمر الفهري جميل بن معمر الذي اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين لقوة حفظه.

والقلب : المضغة الصنوبرية في داخل التجويف الصدري ، وهو محل الخطرات والوساوس ، ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومحل الانزعاج والطمأنينة. والجعل : الخلق. وفائدة ذكر الجوف كفائدة ذكر الصدر في قوله : ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦] ليحصل للسامع زيادة التصور ، والإسراع في الإنكار.

﴿وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾ أي وما جعل الزوجات المظاهر منهن كالأمهات في الحرمة ، بأن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فذلك كذب موجب العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ..﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢].

وكان حكم الظهار في الجاهلية طلاقا يفيد التحريم المؤبد ، فجعل الإسلام الحرمة مؤقتة ، تزول بالكفارة (تحرير رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا قبل الجماع) كما جاء في أوائل سورة المجادلة ، لتحريم ما أحل الله تعالى.

﴿وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ﴾ أي وما جعل الله المدّعى بنوتهم بالتبني أبناء في الحقيقة ، فهم أبناء آبائهم الحقيقيين ، والتبني حرام ، وهذا أيضا إبطال لما كان عليه العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من جعل الابن بالتبني كالابن النسبي. وقد كان النبي ﷺ بعد إعتاق زيد بن حارثة مولاه قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له ؛ زيد بن محمد ، وتبنى الخطّاب عامر بن أبي ربيعة ، وأبو حذيفة سالما ، وكثير من العرب تبنى ولد غيره.

والخلاصة : أجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت في زيد بن حارثة.

وقد أبطل الله هذا الإلحاق الوهمي وهذا النسب المزعوم بهذه الآية ، وبقوله

تعالى بعدئذ في هذه السورة : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ..﴾ [٤٠].

وهذا هو المقصود بالنفي ، قدّم الله له نفي أمر حسي معروف وهو ازدواج القلب في الإنسان ، ثم أردفه بنفي أمرين معنويين هما اجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبني مع النسب ، فالثلاثة باطلة لا حقيقة لها ، لذا قال تعالى مؤكدا النفي :

﴿ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ﴾ أي ذلكم المذكور كله في الجمل الثلاث من ادعاء وجود قلبين في صدر واحد ، واجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبني مع النسب هو مجرد قول باللسان ، لا صلة له بالحقيقة ، فلا تصبح الزوجة بالظهار أما ، ولا المتبني ابنا. وزيادة قوله تعالى : ﴿بِأَفْواهِكُمْ﴾ للتنبيه على أنه قول صادر من الأفواه فقط ، من غير أن يكون له حقيقة في الواقع ، كما أن زيادة ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لتأكيد الإنكار وزيادة تصويره للنفوس.

﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي والله هو الذي يقرر الصدق والعدل ، ويقول الواقع ، ويرشد إلى السبيل الأقوم الصحيح والطريق المستقيم ، فدعوا قولكم ، وخذوا بقوله ﷻ . ثم فصل تعالى هذا الحق المقصود أصالة بالآية فقال :

﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ أي انسبوا أولئك الذين تبنيتموهم وألحقتم نسبهم بكم إلى آبائهم الحقيقيين ، فذلك أعدل في حكم الله وشرعه ، وأصوب من نسبة الابن لغير أبيه. فقوله ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل التفضيل ، وهو ليس على بابه ، أي لا يراد به المفاضلة بين اثنين ، بل قصد به الزيادة مطلقا ، ويجوز أن يكون على بابه على سبيل التهكم بهم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ﴾ أي فإن جهل آباء هؤلاء الأدعياء ، فهم إخوانكم في الدين إن كانوا قد أسلموا ، وهم مواليكم في الدين

أيضا أي أنصاركم ، إن كانوا عتقاء محرّرين ، فينادى الواحد منهم : يا أخي أو يا مولاي ، لذا قيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة. جاء في الحديث الذي رواه أحمد والشيخان عن أبي ذر : «ليس من رجل ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر» قال ابن كثير : هذا تشبيه وتهديد ووعيد أكيد في التبري من النسب المعلوم.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم بنسبة بعضهم إلى غير أبيه خطأ قبل النهي ، أو بعده نسيانا أو سبق لسان ، أو بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عزّ وجلّ : قد فعلت». وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» وفي الحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه عن أبي ذر : «إن الله تعالى تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

لا إثم في الخطأ ، ولكن الإثم على من تعمد الباطل ، فنسب الابن أو البنت إلى غير الأب المعروف ، فتلك معصية موجبة للعقاب. ولا إثم ولا تحريم فيما غلب عليه اسم التبني كالمقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبني ، فيقال له : المقداد بن الأسود ، والأسود : هو الأسود بن عبد يغوث ، كان قد تبناه في الجاهلية ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو ، ومع ذلك بقي الإطلاق عليه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية : «لو دعوت رجلا لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه ، لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه».

وأخرج الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إن الله تعالى بعث محمدا

ﷺ بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. ثم قال : قد كنا نقرأ : «ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم» وأن رسول الله ﷺ قال : «لا تطروني كما أطري عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنما أنا عبد الله ، فقولوا : عبده ورسوله» وربما قال معمر : «كما أطرت النصارى ابن مريم».

وروى أحمد في حديث آخر : «ثلاث في الناس كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم».

﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي وكان الله وما يزال ساترا لذنب المخطئ ، والمتعمد إذا تاب ، رحيما بهما فلا يعاقبهما ، فمن رحمته أنه رفع الإثم عن المخطئ ، وقبل توبة المسيء عمدا.

قصة زيد بن حارثة في السيرة والسنة النبوية :

أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ﴾ فقال النبي ﷺ : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل. وقد سبي من قبيلته «كلب» وهو صغير.

وكان من أمره ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان في أخواله بني معن من بني ثعل من طيّ ، فأصيب في نهب من طيّ ، فقدم به سوق عكاظ ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها ، فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاما ظريفا إن قدر عليه ، فلما قدم وجد زيدا يباع فيها ، فأعجبه ظرفه ، فابتاعه ، فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاما ظريفا عربيا ، فإن أعجبك فخذيه ، وإلا فدعيه ، فإنه قد أعجبني ، فلما رأته خديجة أعجبها ، فأخذته.

فتزوجها رسول الله ﷺ ، وهو عندها ، فأعجب النبي ﷺ ظرفه ، فاستوهبه منها ، فقالت : أهبه لك ، فإن أردت عتقه ، فالولاء لي ، فأبى عليها عليه الصلاة والسلام ، فوهبته له ، إن شاء أعتق ، وإن شاء أمسك.

قال : فشب عند النبي ﷺ ، ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام ، فمرّ بأرض قومه ، فعرفه عمه ، فقام إليه ، فقال : من أنت يا غلام؟ قال : غلام من أهل مكة ، قال : من أنفسهم؟ قال : لا ، قال : فحرّ أنت أم مملوك؟ قال : بل مملوك ، قال : لمن؟ قال : لمحمد بن عبد المطلب ، فقال له : أعربي أنت أم عجمي؟ قال : عربي ، قال : ممن أصلك؟ قال : من كلب ، قال : من أي كلب؟ قال : من بني عبد ودّ ، قال : ويحك ، ابن من أنت؟ قال : ابن حارثة بن شراحيل. قال : وأين أصبت؟ قال : في أخوالي ، قال : ومن أخوالك؟ قال : طي ، قال : ما اسم أمك؟ قال : سعدى ، فالتزمه ، وقال : ابن حارثة.

ودعا أباه ، فقال : يا حارثة ، هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال : كيف صنع مولاك إليك؟ قال : يؤثرني على أهله وولده ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول الله ﷺ ، فقال له حارثة : يا محمد ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العاني ، وتطعمون الأسير ، ابني عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإنك ابن سيد قومك ، وإنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت ، فقال رسول الله ﷺ : أعطيكم خيرا من ذلك ، قالوا : وما هو؟ قال : أخيّره ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختاري فكفوا عنه.

فقالوا : جزاك الله خيرا ، فقد أحسنت. فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : «يا زيد ، أتعرف هؤلاء»؟ قال : نعم. هذا أبي وعمي وأخي ، فقال ﷺ :

«فهم من قد عرفتهم ، فإن اخترتهم ، فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم». فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا ، أنت معي بمكان الوالد والعم ، قال : أبوه وعمه : أيا زيد ، أتختار العبودية؟ قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه ، قال : «اشهدوا أنه حر ، وأنه ابني يرثني وأرثه» ، فطابت نفس أبيه وعمه ، لما رأوا من كرامة زيد عليه ﷺ ، فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ**﴾ فدعي زيد بن حارثة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١ ـ أعلم الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا أحد بقلبين ، وإنما هو قلب واحد ، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر ، ولا يجتمع في القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار.

وفي هذا رد على بعض أهل مكة الذين كانوا يقولون : إن لي في جوفي قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ.

وهو ردّ أيضا على المنافقين الذين هم على درجة من النفاق ، متوسطة بين الإيمان والكفر ؛ إذ ليس هناك إلا قلب واحد فيه إيمان أو كفر.

٢ ـ أبطل الله تعالى في هذه الآية حكم الظهار الجاهلي ، وهو قول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فتصبح محرمة على التأبيد ، أما في الإسلام فالحرمة مؤقتة تنتهي بالكفارة.

٣ ـ التبني حرام في الإسلام ؛ لأنه يصادم الحقيقة ، والأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسبا ، ويحرم على الإنسان أن يتعمد دعوة الولد لغير

أبيه ، على النحو الذي كان في الجاهلية. فإن لم يكن كذلك ، كما يقول الكبير للصغير تلطفا أو تحننا وشفقة : يا ابني أو يا بنيّ ، فالظاهر عدم الحرمة ، لكن أفتى بعض العلماء بكراهته سدا لباب التشبه بالكفار.

٤ ـ نسبة الإنسان إلى أبيه من التبني خطأ ، بأن يسبق اللسان إليه من غير قصد ، لا إثم ولا مؤاخذة فيها ، لقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

كذلك لا إثم في نسبة شخص كان في الأصل منسوبا إلى أبيه بالتبني ، وجرى الإطلاق على سبيل الشهرة ، كالحال في المقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبني ، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود ؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبنّاه في الجاهلية وعرف به ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو ؛ ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه ، ولم يحكم أحد بعصيان من ناداه بذلك ، وكذلك سالم مولى أبي حذيفة ، كان يدعى لأبي حذيفة ، وغير هؤلاء.

وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة ؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه : زيد بن محمد ؛ إذ لم يشتهر به بعد التحريم والنهي ، فإن قاله أحد متعمدا عصى ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٥ ـ وكما يحرم التبني ، يحرم انتساب الشخص إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، بل هو من الكبائر إذا كان على النحو الجاهلي ، فقد كان الرجل منهم ينتسب إلى غير أبيه وعشيرته ، وجاء في السنة الوعيد الشديد عليه ، أخرج الشيخان وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي ﷺ قال : «من ادّعى إلى غير أبيه ، وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام».

وأخرج الشيخان أيضا : «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»

وأخرجا أيضا عن أبي ذرّ أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ، إلا كفر». والكفر : إذا اعتقد إباحة ذلك ، فإن لم يعتقد إباحته ، فمعنى كفره : أنه أشبه فعله فعل الكفار أهل الجاهلية ، أو أنه كافر نعمة الله والإسلام عليه.

٦ ـ هناك فرق بين التبني المنهي عنه والاستلحاق الذي أباحه الإسلام ، فالتبني : هو ادعاء الولد مع القطع بأنه ليس ابنه ، وأما الاستلحاق الشرعي : فهو أن يعلم المستلحق أن المستلحق ابنه أو يظن ذلك ظنا قويا ، بسبب وجود زواج سابق غير معلن. فإن كان من زنى فلا يجوز الاستلحاق.

٧ ـ يباح أن يقال في دعاء من لم يعرف أبوه : يا أخي أو يا مولاي إذا قصد الأخوة في الدين والولاية فيه ، وكان المدعو تقيا. فإن كان فاسقا فلا يدعى بذلك ، ويكون حراما ؛ لأننا نهينا عن تعظيم الفاسق.

٨ ـ دل قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَ﴾ على أنه ينبغي أن يكون قول الإنسان إما عن حقيقة يقرها العقل السليم أو عن شرع ثابت ، فمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا ، وكانت الزوجة سابقا زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه ، فإنا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش أي رابطة الزوجية.

٩ ـ قوله تعالى : ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يدل على أنه سبحانه يغفر الذنوب للمستغفر ، ويرحم المذنب التائب.

مكانة النبي ﷺ ومهمته وتشريع الميراث بقرابة الرحم

﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (٦) وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (٨)﴾

الإعراب :

﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر ، أي إنهن بمنزلة الأم في التحريم ، فلا يجوز لأحد أن يتزوج بهن ، احتراما للنبي ﷺ .

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا ..﴾ أن وصلتها : في موضع نصب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة :

﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه ، أي وأزواجه مثل أمهاتهم في الحرمة والتعظيم.

﴿أَوْلى بِبَعْضٍ﴾ مجاز بالحذف ، أو أولى بميراث بعض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ عطف الخاص على العام للتشريف والتنويه بشأنهم ، بالرغم من دخول محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام في جملة النبيين.

﴿مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ استعارة ، استعار الغلظ في الأجسام الحسية للشيء المعنوي ، وهو بيان حرمة الميثاق وخطورته وعظمه ، للوفاء به.

﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ﴾ التفات من التكلم للغيبة لتبكيت المشركين وتقبيح فعلهم.

المفردات اللغوية :

﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها في الدين والدنيا ، فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم ، فهو أرأف بهم وأعطف عليهم فيما دعاهم إليه مما دعتهم أنفسهم إليه إذ هو يدعو إلى النجاة وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك. ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ أي منزّلات منزلة الأمهات في حرمة زواجهن واستحقاق التعظيم ، وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات ، ولذلك قالت عائشة : لسنا أمهات النساء. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ﴾ ذوو القرابات. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الإرث بالحلف والمؤاخاة ، وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين. ﴿فِي كِتابِ اللهِ﴾ فيما فرض الله تعالى وشرع أو في اللوح المحفوظ. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ بيان لأولي الأرحام ، أو صلة لأولي ، أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ، والمهاجرين بحق الهجرة ، وبعبارة أخرى : الإرث بقرابة الرحم مقدم على الإرث بالإيمان والهجرة الذي كان أول الإسلام ، فنسخ. ﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ أي كان المذكور في الآيتين ثابتا في اللوح المحفوظ ، أو في القرآن.

﴿وَإِذْ أَخَذْنا﴾ أي واذكر. ﴿مِيثاقَهُمْ﴾ أي عهودهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين القويم ، والميثاق : العهد المؤكد. ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي بأن يعبدوا الله ، ويدعوا إلى عبادته ، وذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة من عطف الخاص على العام ؛ لأنهم مشاهير أصحاب الشرائع وأولو العزم من الرسل. وقدم نبينا تعظيما له. ﴿وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ ميثاقا شديدا عظيم الشأن بالوفاء بواجب التبليغ لما أنزل إليهم من ربهم. وقيل : ميثاقا مؤكدا باليمين.

﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة أولئك الأنبياء الصادقين الذين صدقوا عهدهم عن صدقهم في تبليغ الرسالة وعما قالوه لقومهم ، تبكيتا للكافرين برسالاتهم. ﴿وَأَعَدَّ﴾ تعالى ، معطوف على ﴿أَخَذْنا﴾ والمعنى : أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ، لأجل إثابة المؤمنين ، وتبكيت الكافرين ، وأعد للكافرين بهم عذابا مؤلما.

المناسبة :

بعد أن أبطل الله تعالى حكم التبني الخاص وأن محمدا ﷺ ليس أبا لزيد بن حارثة ، أبان تعالى أن أبوة محمد ﷺ عامة لكل الأمة ، وأزواجه بالنسبة للرجال في حكم حرمة الأمهات ، وهي أشرف من أبوة النسب ؛ لأنها إنقاذ أبدي من

الهلاك ، قال مجاهد : كل نبي أبو أمته. ثم أردف ذلك بعلو منزلته وسمو مهمته وهو تبليغ دعوة الله ، وفاء بالميثاق (العهد المؤكد) الذي أخذه الله عليه وعلى سائر الأنبياء من قبله.

التفسير والبيان :

﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن النبي محمدا ﷺ أرأف بجماعة المؤمنين من أمته وأعطف عليهم من أنفسهم ؛ إذ هو يدعوهم إلى النجاة ، وأنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، كما قال ﷺ : «أنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها تقّحم الفراش» [١] ولأنه ينزّل لهم منزلة الأب ، فالنفس قد تأمر بالسوء ، وأما محمد ﷺ فهو لا يأمر إلا بالخير ولا ينطق إلا بالوحي.

فإذا كان زيد يعتز بدعوته لمحمد ﷺ ؛ لأنها تكسبه جاها كبيرا في الدنيا والآخرة ، فإن المؤمنين أصبحوا جميعا يعتزون بأبوة محمد ﷺ العامة لهم ، وقد نزلت الآية تسلية لزيد ، وبيانا للانتقال من الأبوة الخاصة لزيد إلى الأبوة العامة ، والرأفة الشاملة التي تعم المسلمين جميعا ، لا فرق فيها بين الابن الصلبي وغيره فهو يرعاهم حق الرعاية ويهديهم الطريق المستقيم.

وجعلت الولاية مطلقة لتشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية.

وما دام محمد ﷺ أولى من النفس ، فهو أولى من جميع الناس بطريق الأولى ، وحكمه مقدّم على اختيارهم لأنفسهم ، ومحبته مقدمة أيضا على حب النفس التي بين الجنبين ، كما قال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء ٤ / ٦٥].

---

(١) نص الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة : «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه». قال العلماء : الحجزة للسراويل ، والمعقد للإزار.

وثبت في صحيح البخاري وغيره : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» وروى البخاري في صحيحة أيضا عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأيّما مؤمن ترك مالا ، فلترثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا ـ عيالا ـ فليأتني ، فأنا مولاه».

وفي الصحيح أيضا أن عمر رضي الله عنه قال : «يا رسول الله ، والله لأنت أحبّ إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : لا ، يا عمر ، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : الآن يا عمر».

ومبعث هذا ما علم الله تعالى من توافر شفقة النبي ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم.

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي إن أزواج النبي ﷺ منزلات منزلة الأمهات في الحرمة والاحترام ، أي في تحريم زواجهن بعد النبي ﷺ ، واستحقاق التكريم والتعظيم والتوقير ، وأما في غير ذلك فهن أجنبيات ، فلا يقال لبناتهم أخوات المؤمنين ، ولا يحرمن على المؤمنين ، ولا يحل النظر إليهن ولا الخلوة بهن ، ولا ارثهن ونحو ذلك.

وهذا بالنسبة للرجال ، فهم كأمهاتهم ، وأما النساء فلا يقال لهن عند البعض : أمهات المؤمنات ، لذا قالت عائشة رضي الله عنها لمن قالت لها : يا أمه : أنا أم رجالكم ، لا أم نسائكم. وسيأتي بيان الخلاف.

ويثبت هذا الوصف لجميع أزواج النبي ﷺ ، حتى المطلّقة ، لكن صحح إمام الحرمين وغيره قصر التحريم على المدخول بها فقط. واختار الرازي والغزالي

القطع بحل المرأة التي اختارت الدنيا من أزواج النبي ﷺ بعد نزول آية التخيير الآتية.

ثم بيّن الله تعالى بقوله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ﴾ حكم الميراث ، وبقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ﴾ حكم الوصية ، ليبين الفرق بين ولاية النبي ﷺ للمؤمنين ، وولاية المؤمنين لأقاربهم ، فالنبي ﷺ لا يورث ، فلا توارث بينه وبين أقاربه ، لولايته العامة ، والمؤمنون يرث بعضهم من بعض إذا كانوا ذوي قرابة ، وهم أولى ببعضهم في النفع بميراث وغيره ، إلا في حال بر صديق أو محتاج بالوصية ، فيصير أولى من قريبه ، فتقطع الوصية الإرث ، فقال :

﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ أي وذوو القرابات مطلقا ، سواء أكانوا أصحاب فروض أم عصبات أم ذوي أرحام أولى بمنافع بعضهم بالتوارث وغيره من بقية المؤمنين المهاجرين والأنصار ، أي بحق الدين وهو الإيمان ، أو بحق الهجرة ، وذلك في فرض الله وشرعه وما كتبه على عباده ، أو في القرآن ، أو في اللوح المحفوظ.

وقوله : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ كما ذكر الزمخشري إما بيان راجع لأولي الأرحام (أي الأقرباء) والمعنى : وأولو القرابة من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بنفع بعض أو بميراثه من الأجانب. وإما لابتداء الغاية ، والمعنى : وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الولاية في الدّين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة [1]. وعلى هذا المعنى الثاني وهو المشهور تكون الآية إبطالا لما كان في بدء الإسلام من التوارث بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين ، فكان المهاجري يرث الأنصاري ، دون قراباته وذوي رحمه ، بسبب الأخوّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ ، فقد آخى بين أبي بكر رضي الله عنه وخارجة بن زيد ، وآخى

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٣١

بين عمر وشخص آخر ، وآخى بين عثمان ورجل من بني زريق ، وآخى بين الزبير وكعب بن مالك [١].

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن ابن عباس : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» والمراد : بطل حكم الهجرة وزالت الأحكام المترتبة عليها كالتوارث بها.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ أي ذهب الميراث بالتآخي ، وبقي حكم الوصية والنصر والبر والصلة والإحسان ، أي إلا أن توصوا إلى أصدقائكم الذين توالونهم وتودونهم من المؤمنين والمهاجرين وصية ، والمعروف هنا : الوصية ، ومن المعلوم أن الدّين والوصية مقدّمان شرعا على الميراث ، كما قال تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء ٤ / ١١].

ومعنى الآية : إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم.

﴿كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾ أي إن هذا الحكم (وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض) حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغير ، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ما ، لمصلحة مؤقتة ، وحكمة بالغة ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جار في قدره الأزلي ، وقضائه القدري التشريعي.

وبعد بيان مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين ، أبان الله تعالى سمو مهمته وعلو منزلته في تبليغ الشرائع ، والدعوة إلى دين الله ورسالة ربه ، ووفائه بتلك المهمة ، عملا بمقتضى ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ، وكأنه تعالى من بداية السورة إلى هنا قال لنبيه تعليما للأمة ، اتق الله ، ولا تخف أحدا ، واذكر

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٦٨

أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون شرائع الله ، ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع ، فقال :

﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ أي واذكر أيها الرسول أننا أخذنا العهد المؤكد على جميع الأنبياء ولا سيما أولو العزم منهم وهم الخمسة المذكورون في الآية في أنهم يبلغون رسالة الله إلى أقوامهم ، ويقيمون دين الله تعالى ، ويتناصرون ويتعاونون فيما بينهم بإكمال بعضهم رسالة من تقدمه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ ، مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قالَ : أَأَقْرَرْتُمْ ، وَأَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي؟ قالُوا : أَقْرَرْنا ، قالَ : فَاشْهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٨١] أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله ﷺ ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبي بعده.

ثم أكد الله تعالى ذلك الميثاق بعينه ، فوصفه بالشدة والغلظ مبالغة في حرمته وعظمته وثقل تبعته (مسئوليته) والمعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق ميثاقا غليظا ، فالميثاق الثاني هو الأول مؤكدا باليمين ، أو مكررا لبيان صفته ، من طريق استعارة الغلظ من صفة الأجسام المادية إلى الأشياء المعنوية ، مبالغة في بيان حرمته وعظمه وخطورته ، كما بينت.

وقد خص الله تعالى بالذكر خمسة رسل هم أولو العزم ، تنويها بشأنهم ، وتبيان أهمية رسالاتهم ، من باب عطف الخاص على العام ، كما في آية أخرى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٣].

ثم ذكر الله تعالى أنه سائل الأنبياء عن التبليغ والمؤمنين عن الإجابة والمكذبين عن التكذيب ، فقال :

﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ اللام في ﴿لِيَسْئَلَ﴾ قيل : إنها لام الصيرورة ، أي أخذ الميثاق على الأنبياء ، ليصير الأمر إلى السؤال عما فعلوا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٦]. قال الرازي : يعني أرسل الرسل ، وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ؛ لأن الصادق محاسب ، والكافر معذب [١]. والظاهر ـ كما قال أبو حيان ـ أنها لام التعليل ، لام كي ، أي بعثنا الرسل ، وأخذنا عليهم المواثيق في التبليغ ، لكي يجعل الله خلقه فرقتين : فرقة يسألها عن صدقها ، على معنى إقامة الحجة ، فتجيب بأنها قد صدقت الله في إيمانها وجميع أفعالها ، فيثيبها على ذلك ؛ وفرقة كفرت ، فينالها ما أعد لها من العذاب ، فالصادقون المسؤولون على هذا المعنى : هم المؤمنون ، والهاء في ﴿صِدْقِهِمْ﴾ عائدة عليهم ، ويجوز أن يراد : وليسأل الأنبياء ، أو ليسأل عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم أو ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، وفي هذا تنبيه : أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف بمن سواهم؟ [٢] أو ليسأل المبلّغين الذين بلغتهم الرسل. وعلى هذا ، يكون المعنى : وأخذنا من الأنبياء ميثاقهم في تبليغ الدعوة إلى دين الله ، لكي نسأل المرسلين عن قيامهم بواجب التبليغ ، ومعرفة ما أجابتهم به أممهم ، ولأجل إثابة المؤمنين على إيمانهم وصدقهم ، وعقاب الكافرين من أممهم المكذبين رسلهم الذين أعد الله لهم عذابا شديدا مؤلما موجعا هو عذاب جهنم. فقوله تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ﴾ معطوف على قوله : ﴿أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥ / ١٩٧

(٢) البحر المحيط : ٧ / ٢١٣

١ ـ النبي ﷺ أرأف وأعطف وأشفق على المؤمنين من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة.

٢ ـ آية ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أزال الله تعالى بها أحكاما كانت في صدر الإسلام ؛ منها : أنه ﷺ كان لا يصلّي على ميّت عليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال كما جاء في الصحيحين : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفّي وعليه دين فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالا فلورثته». وفي الصحيحين أيضا «فأيكم ترك دينا أو ضياعا فأنا مولاه» والضياع : مصدر ضاع ، ثم جعل اسما لكل ما يتعرض للضياع من عيال وبنين لا كافل لهم ، ومال لا قيّم له. وسميت الأرض ضيعة ؛ لأنها معرضة للضياع ، وتجمع ضياعا.

قال بعض العلماء : يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداء بالنبي ﷺ ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه ، حيث قال : «فعلي قضاؤه».

٣ ـ جعلت أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين في وجوب التعظيم والبرّ والإجلال ، وحرمة النكاح على الرجال ، وتحريم النظر إليهن ، وحجبهن عن الرجال ، بخلاف الأمهات. وهذه الأمومة لا توجب ميراثا كأمومة التبني ، وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس ، ولا أخواهن أخوال المؤمنين وخالاتهم ، فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهي أخت عائشة ، ولم يقل : هي خالة المؤمنين. ولا يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين.

وهن في قول أمهات الرجال خاصة ، لا أمهات الرجال والنساء ، عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمّه ؛ فقالت لها : لست لك بأمّ ، إنما أنا أمّ رجالكم. قال ابن العربي : وهو الصحيح [1].

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٤٩٧

وقال القرطبي : لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء ، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء ؛ تعظيما لحقّهن على الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية : ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة ؛ فيكون قوله : ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ عائدا إلى الجميع [1].

٤ ـ قوله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾ ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ، وللتوارث بالهجرة ؛ لأن المراد بأولي الأرحام ذوي القرابة مطلقا أيا كان نوعهم ، والمراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمهاجرين قريشا ، وقد فسر الإمام الشافعي رضي الله عنه الآية بذلك ، وتبعه في هذا أبو بكر الرازي الجصاص من الحنفية. إلا أن الجصاص يرى فيها دليلا للحنفية على توريث ذوي الأرحام ، لا من حيث إن الآية قد أريد منها هذا النوع الخاص من الوارثين ، بل من حيث إن الآية اقتضت أن ذا القرابة مطلقا أولى من غيره ، وأما تقديم بعض ذوي القرابة على بعض ، فهذا له أدلته الخاصة.

ويقتضي ذلك أن يكون ذو الرحم (هو الصنف الذي يدلي إلى الميت بواسطة الأنثى) أولى من بيت المال ، فتكون الآية حجة على من قدم بيت المال عليهم.

وظاهر الآية يدل على أن ذا الرحم أولى من مولى العتاقة ، ويرى بعضهم أن مولى العتاقة مقدم على ذوي الأرحام ، وهو أولى من الرد ؛ لأنه من العصبات ، والعصبات أولى بالميراث من غيرهم ، وقد روي أن ابنة حمزة أعتقت عبدا ، ومات وترك بنتا ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم نصف ميراثه لابنته ونصفه لابنة حمزة. ونوقش

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٢٣

هذا بأنه لم يقل لنا الرواة : هل كان للميت ذو رحم ، حتى يتم الدليل. وقال النبي ﷺ فيما رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر : «الولاء لحمة كلحمة النسب» ونوقش هذا أيضا بأن التشبيه يقتضي مطلق الاستحقاق ، ولكنه لا يدل على تقديمه على غيره.

٥ ـ قال قوم : لا يجوز أن يسمّى النبي ﷺ أبا ؛ لقوله تعالى : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ ولكن يقال : مثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال ﷺ فيما رواه أبو داود : «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم». وقال القرطبي : والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أب للمؤمنين ، أي في الحرمة لا في النسب ، وأما قوله تعالى : ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ فهو في النسب. وقرأ ابن عباس : «من أنفسهم ، وهو أب لهم ، وأزواجه أمهاتهم» وهي في مصحف أبيّ.

٦ ـ لا مانع من الإحسان لغير الوارثين في الحياة ، والوصية عند الموت لهم ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ أي إن ذلك جائز.

وقال محمد بن الحنفية : «إنما نزلت في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني» [1] أي أنه تجوز الوصية للقريب والوليّ وإن كان كافرا ؛ لأن الكافر ولي في النسب لا في الدين ، فيوصى له بوصية. ويكون معنى الآية : وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بميراث بعض ، إلا إذا كان لكم أولياء من غيرهم ، فيجوز أن توصوا إليهم.

٧ ـ رسالات الأنبياء في الأصول العامة كأصول الاعتقاد والأخلاق واحدة ، وهم متناصرون متعاونون فيما بينهم ، ويكمّل بعضهم رسالة البعض الآخر ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ...﴾ الآية ، أي أخذنا عهدهم على الوفاء بما أوحي إليهم ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدّق بعضهم بعضا ، وذلك

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٣٥٥

حكم قديم مسطور حين كتب الله ما هو كائن ، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء ، وهو عهد وثيق عظيم على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا.

وقد خص الله تعالى خمسة أنبياء بالذكر (وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى). تفضيلا لهم ؛ لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم ، ولأنهم أصحاب الشرائع والكتب. وقدّم محمدا ﷺ في الذكر ؛ لما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ...﴾ فقال : «كنت أولهم في الخلق ، وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم» [(١)].

٨ ـ قوله تعالى : ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه [(٢)] :

أحدها ـ ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، وفي هذا تنبيه ؛ أي إذا كان الأنبياء يسألون ، فكيف من سواهم؟

الثاني ـ ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم.

الثالث ـ ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع ـ ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، كما قال تعالى : ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٦].

وفائدة سؤال الأنبياء : توبيخ الكفار ، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة ٥ / ١١٦].

---

(١) لكن فيه راو ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٢٨

غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ

فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ (١٠) ﴿إِذْ﴾ : في موضع نصب على البدل من ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى : ﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ و ﴿إِذْ﴾ هذه منصوبة ب ﴿اذْكُرُوا﴾.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ (١٠) يقرأ ﴿الظُّنُونَا﴾ بإثبات الألف ، لأنها فاصلة ، وفواصل الآيات تشبه رؤوس الأبيات. ويقرأ بترك الألف على الأصل.

﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ و ﴿إِذْ قالَتْ﴾ (١٢ ، ١٣) : ﴿إِذْ﴾ فيهما منصوب بفعل مقدر ، أي اذكر.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ﴾ (١٣) الواو : واو الحال ، والجملة بعدها في موضع نصب على الحال من الطائفة المرفوعة ب ﴿قالَتْ﴾. وقال بعضهم : تم الكلام عند قوله : ﴿فَارْجِعُوا﴾ وليست الواو واو الحال.

و ﴿إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ﴾ أي ذات عورة ، فحذف المضاف.

﴿عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ ، لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ (١٥) ﴿عاهَدُوا اللهَ﴾ : بمنزلة القسم ، و ﴿لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ : جوابه.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ (١٩) : إما منصوب على الحال من واو ﴿يَأْتُونَ﴾ أو منصوب على الذم.

﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ، كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (١٩) : ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ من رؤية العين. و ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ : إما حال من واو ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أو حال بعد حال. و ﴿كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ تقديره : تدور أعينهم دورانا كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت ، فحذف المصدر وهو «دورانا» وما أضيفت الكاف إليه وهو دوران ، وما أضيف «دوران» إليه وهو «عين» وأقيم «الذي» مقام «عين» وإنما وجب هذا التقدير ليستقيم معنى الكلام ؛ لأن تشبيه الدوران بالذي يغشى عليه تشبيه العرض بالجسم ، والأعراض لا تشبه بالأجسام ، و ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي من حذر الموت.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (١٩) : ﴿أَشِحَّةً﴾ : منصوب على الحال من واو ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ وهو عامله.

﴿بادُونَ فِي الْأَعْرابِ﴾ (٢٠) : الجار والمجرور إما مرفوع على أنه خبر بعد خبر ، أي كائنون في جملة الأعراب ، وإما منصوب على الحال من ضمير ﴿بادُونَ﴾.

﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ﴾ (٢١) : الجار والمجرور بدل من لكم أو في موضع رفع ؛ لأنه صفة بعد صفة ل ﴿أُسْوَةٌ﴾ أي أسوة حسنة كائنة لمن كان. ولا يتعلق ب ﴿أُسْوَةٌ﴾ إذا جعل مصدرا بمعنى التأسي ؛ لأنها وصفت والمصدر إذا وصف لم يعمل.

﴿وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً﴾ (٢٢) أي ما زادتهم الرؤية إلا إيمانا ، وإنما جعل الفعل ﴿زادَهُمْ﴾ بالتذكير ؛ لأن الرؤية بمعنى النظر.

﴿ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ (٢٣) : ﴿ما﴾ هنا : مصدرية ، في موضع نصب ب ﴿صَدَقُوا﴾ أي صدقوا الله في العهد ، أي وفّوا به.

البلاغة :

﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ و ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ تشبيه تمثيلي ؛ لأن وجه الشبه منتزع من

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ مبالغة في التمثيل ، صور القلوب في خفقانها واضطرابها ، كأنها وصلت إلى الحلقوم.

﴿لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ كناية عن الفرار من الزحف.

﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ﴾ استعارة مكنية ، شبه اللسان بالسيف المصلت ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق أي الضرب ، بطريق هذه الاستعارة ، و ﴿حِدادٍ﴾ ترشيح.

﴿مَسْطُوراً بَصِيراً غُرُوراً فِراراً يَسِيراً كَثِيراً﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير.

﴿هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ إطناب بتكرار اسم الله والرسول ﷺ للتعظيم والتشريف.

﴿قَضى نَحْبَهُ﴾ استعارة ، أستعير النحب وهو النّذر للموت نهاية كل حي ؛ كأنه نذر لازم في رقبة كل إنسان.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قوله : ﴿إِنْ شاءَ﴾ اعتراض للدلالة على أن العذاب أو الرحمة بمشيئة الله تعالى.

المفردات اللغوية :

﴿إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش بقيادة أبي سفيان ، وغطفان بقيادة عيينة بن حصن ، وبنو أسد بإمرة طليحة ، وبنو عامر بزعامة عامر بن الطّفيل ، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي ، وبنو النّضير من اليهود برئاسة حييّ بن أخطب وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضا وسيدهم كعب بن أسد ، وقد نقض هؤلاء اليهود عهدهم مع النبي ﷺ وتواطؤوا مع قريش. وبلغ مجموع الأحزاب عشرة آلاف ، أو زهاء اثني عشر ألفا.

﴿فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ ريح الصبا ﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها﴾ هم الملائكة ﴿وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق ، وعلى قراءة : يعملون تخزيب المشركين ومحاربتهم ﴿بَصِيراً﴾ رائيا مطلعا تمام الاطلاع ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من أعلى الوادي ، من جهة المشرق ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من جهة المغرب ﴿زاغَتِ الْأَبْصارُ﴾ مالت عن مستوى نظرها ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها حيرة ودهشة ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ﴾ المراد أنها فزعت فزعا شديدا ، والحناجر : جمع حنجرة : وهي منتهى الحلقوم وهو مدخل الطعام والشراب والتنفس ، وتصوير ذلك : أن الرئة تنتفخ من شدة الرعب ، فترتفع بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ أي تظنون مختلف الظنون من نصر ويأس ، فالمؤمنون المخلصون خافوا الزلل وضعف الاحتمال ، والمنافقون

ومرضى القلوب كذبوا بوعد الله ، وتشككوا فيه ، وأعلنوا بطلانه.

﴿ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا وامتحنوا ، فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ اضطربوا كثيرا من شدة الفزع وكثرة العدو ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد ، وهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بالإغراءات وزرع الشّبه في قلوبهم ، لحداثة عهدهم بالإسلام ﴿ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنصر أو الظفر وإعلاء دينه ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ إلا وعدا باطلا لا حقيقة له ، أو خداعا.

﴿طائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿يا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهل المدينة ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ﴿لا مُقامَ لَكُمْ﴾ أي لا إقامة ولا مكانة لكم هاهنا ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم في المدينة هاربين ، وذلك بعد أن خرجوا مع النبي ﷺ إلى «سلع» : جبل خارج المدينة للقتال ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَ﴾ في الرجوع ﴿يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ﴾ قاصية غير حصينة ، يخشى عليها الاقتحام من الأعداء ﴿وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً﴾ أي ما يريدون إلا هروبا من القتال مع المؤمنين.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المدينة ﴿مِنْ أَقْطارِها﴾ نواحيها وجوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ طلب منهم الداخلون الشرك والردة ، ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْها﴾ لأعطوها وفعلوها ، وقرئ : لأتوها أي لجاؤوها ﴿وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾ ما أخّروها ، أو ما أخروا إعطاء الفتنة إلا لوقت يسير ﴿لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ﴾ المراد لا ينهزمون ولا يفرون من الزحف. والأدبار : جمع دبر وهو ما قابل القبل ، ويطلق على الظهر ﴿وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ عن الوفاء به ، ومجازي عليه. وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا ، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله.

﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ﴾ إذا فررتم لا تتمتعون في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا أو زمانا قليلا ﴿يَعْصِمُكُمْ﴾ يمنعكم أو يجيركم ﴿إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ هلاكا وهزيمة ﴿أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فيه محذوف أي : أو يصيبكم بسوء إن أراد الله بكم خيرا ، فقد يكون المصاب خيرا ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ مواليا ينفعهم ﴿وَلا نَصِيراً﴾ ناصرا يدفع الضر عنهم.

﴿الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المثبّطين منكم عن رسول الله ﷺ ، وهم المنافقون ﴿وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ﴾ من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ إِلَيْنا﴾ تعالوا ، وأقبلوا إلينا ، أو قرّبوا أنفسكم إلينا ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لا يأتون الحرب والقتال إلا إتيانا أو زمانا قليلا ، رياء وسمعة ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بما ينفعكم بالمعاونة أو النفقة في سبيل الله ، جمع شحيح ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ حريصين على مال الغنائم ، يطلبونها ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ تدير أعينهم أحداقهم ﴿الَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي كنظر أو دوران عين المغشي عليه من سكرات الموت خوفا ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ زالت حالة الخوف وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ آذوكم بالكلام ورموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ﴾ أي ألسنة ذربة سليطة قاطعة

كالحديد يطلبون الغنيمة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ حقيقة ﴿فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ﴾ أبطل ثمرة أعمالهم ﴿وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ أي وكان ذلك الإحباط هينا سهلا على إرادة الله ، فإذا أراد شيئا كان ، ولم يمنعه عنه أحد. ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ﴾ من الكفار ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ إلى مكة ، لخوفهم منهم ، المعنى : يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ، وقد انهزموا ، ففروا إلى داخل المدينة ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ﴾ كرة أخرى ﴿يَوَدُّوا﴾ يتمنوا ﴿بادُونَ فِي الْأَعْرابِ﴾ كائنون معهم في البادية ﴿يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ﴾ أخباركم مع الكفار ، وما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة ﴿ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي ما كان قتالهم إلا قتالا ظاهريا قليلا ، رياء وخوفا من التعيير.

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة صالحة ، يتأسى به ، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي يرجو ثواب الله أو لقاءه ، ونعيم الآخرة ﴿وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ قرن بالرجاء كثرة ذكر الله المؤدية إلى ملازمة الطاعة ، فإن المؤتسي بالرسول ﷺ من كان كذلك ، بخلاف غيره.

﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ﴾ من الكفار الذين تجمعوا لحرب النبي ﷺ والقضاء عليه ﴿قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الابتلاء والنصر ، بقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ..﴾ [البقرة ٢ / ٢١٤] وقوله ﷺ : «إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر» «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم». ﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ في الوعد والابتلاء ﴿وَما زادَهُمْ﴾ ذلك الذي رأوه من الخطب أو البلاء ﴿إِلَّا إِيماناً﴾ تصديقا بوعد الله ﴿وَتَسْلِيماً﴾ لأمره ومقاديره.

﴿صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين ﴿قَضى نَحْبَهُ﴾ مات أو قتل في سبيل الله شهيدا ، ووفّى نذره ، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ، والنحب : النذر ، فجعل كناية عن الموت ﴿مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ الشهادة ، كعثمان وطلحة ﴿وَما بَدَّلُوا﴾ العهد ولا غيروه ، بخلاف حال المنافقين ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليل للمنطوق وهم المؤمنون المخلصون ، وللمعرّض به وهم المنافقون ، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء ، كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى ، لكن التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم ، والمراد به التوفيق للتوبة ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾ لمن تاب.

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيظين ﴿لَمْ يَنالُوا خَيْراً﴾ غير ظافرين ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكانَ اللهُ قَوِيًّا﴾ على إيجاد ما يريد ﴿عَزِيزاً﴾ غالبا على كل شيء ﴿ظاهَرُوهُمْ﴾ ظاهروا الأحزاب أي عاونوهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ يعني من بني قريظة ﴿مِنْ صَياصِيهِمْ﴾ من حصونهم ، جمع صيصة وهي كل ما يتحصن به

﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى ﴿الرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ منهم وهم المقاتلة ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾ فريقا منهم وهم الذراري : أي النساء والأطفال. ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها﴾ بعد ، وهي خيبر ، أخذت بعد قريظة.

سبب النزول :

نزول الآية (٩):

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ : أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة قال : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، ونحن صافون قعودا ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة أسفل منا ، نخاف على ذرارينا ، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمة ، ولا أشد ريحا منها ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون ، إذ استقبلنا النبي ﷺ رجلا رجلا حتى أتى علي ، فقال : ائتني بخبر القوم ، فجئت ، فإذا الريح في عسكرهم ، ما تجاوز عسكرهم شبرا ، فو الله ، إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم ، وهم يقولون : الرحيل الرحيل ، فجئت ، فأخبرته خبر القوم ، وأنزل الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الآية.

نزول الآية (١٢):

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عمرو المزني قال : خطّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ، فأخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة ، فأخذ رسول الله ﷺ المعول ، فضربها ضربة ، صدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة [١] ، فكبّر ، وكبّر المسلمون ، ثم ضربها الثانية ، فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، فكبّر

---

(١) جانبي المدينة.

وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة ، فكسرها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، فكبّر ، وكبّر المسلمون ، فسئل عن ذلك ، فقال : ضربت الأولى ، فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم ، ثم ضربت الثانية ، فأضاءت لي قصور الحمر من أرض الروم ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة ، فأضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، فقال المنافقون : ألا تعجبون؟ ويحدّثكم ، يمنّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق [١] ، لا تستطيعون أن تبرزوا ، فنزل القرآن : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾.

نزول الآية (٢٣):

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ﴾ : أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن أنس قال : غاب عمي أنس بن النضر عن بدر ، فكبر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرينّ الله ما أصنع ، فشهد يوم أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى بالتقوى بحيث لا يبقى في نفس المؤمن خوف من أحد ، ذكر مثالا واقعيا من وقعة الأحزاب ، حيث تجمع المشركون من قريش ومن عاونوهم من اليهود والأحباش عشرة آلاف حول المدينة بقصد القضاء على

---

(١) الفرق : الخوف.

النبي وصحبه ، فدفع الله القوم عن المؤمنين من غير قتال وآمنهم من الخوف ، مما يدل على أنه لا يخاف العبد غير ربه ، فإنه القادر على كل ممكن ، الكاف أمره.

أضواء من السيرة على غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق :

في شوال من السنة الخامسة للهجرة اجتمع حول المدينة عشرة آلاف ، أو اثنا عشر ألفا ، أو خمسة عشر ألفا من الكفار الوثنيين وأهل الكتاب ، للقضاء على النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وكان المشركون من قريش والأحباش في أربعة آلاف بقيادة أبي سفيان ، وبني أسد بقيادة طليحة ، وغطفان في ستة آلاف بزعامة عيينة بن حصن ، وبني عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وسليم يقودهم أبو الأعود ، وكان يهود بني النضير برئاسة حيي بن أخطب وابني أبي الحقيق ، ويهود بني قريظة وسيدهم كعب بن أسد الذي كان بينه وبين الرسول ﷺ عهد ، فنبذه بسعي حيي بن أخطب.

وكان سبب الوقعة اليهود ، فقد خرج نفر من بني النضير وبني قريظة ، فقدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاؤوا غطفان وقيسا وعيلان وبني مرة وأشجع ، فدعوهم إلى الحرب في المدينة ، فتوافق المعسكران : الوثني والكتابي على تكوين جيش موحد بقيادة أبي سفيان ، فنزلوا أمام المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف ، حتى نزلوا بظهر سلع.

ولما سمع الرسول ﷺ بمسير فئات الأحزاب ، أمر بحفر خندق حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي ، وعمل في حفره الرسول ﷺ والمسلمون ، في السهل الواقع شمال غرب المدينة ، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو ، وأما الجوانب الأخرى فكانت محصنة بالجبال. وبلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع ، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة ، وعرضه تسعة فأكثر.

فلما رأى المشركون وأحزابهم الخندق قالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، فوقعت مصادمات ، وحاول بعض المشركين اقتحام الخندق ، فرمي بالحجارة ، واقتحمه بعضهم بفرسه فهلك أو قتل ، منهم الفارس المشهور عمرو بن ودّ العامري الذي تبارز مع علي ﷺ ، فقتله ، وفرّ صاحباه عكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب ، ومن فوارسهم نوفل بن مغيرة. واستشهد سعد بن معاذ ﷺ في غزوة بني قريظة.

ثم وقعت مكيدة محكمة بين الأحزاب ، فبينما رسول الله ﷺ وأصحابه في خوف وشدة ، إذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : «إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة».

فأتى بني قريظة ، وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقيّة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ؛ لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى قريشا وغطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتّحدون معه على قتالكم ؛ لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا.

ولما أراد أبو سفيان وقادة غطفان خوض معركة حاسمة مع المسلمين ، تباطا اليهود ، وطلبوا منهم رهائن من رجالهم ، فامتنعوا وصدّقوا حديث نعيم بن مسعود ، وتحقق اليهود من صدق حديث نعيم أيضا ، فتخاذل اليهود والعرب ، وتفرقت الكلمة.

ودب الضعف في الأحزاب ، وزاد من قلقهم واضطرابهم أن أرسل الله عليهم

ريحا شديدة البرد في ليلة شاتية ، فأكفأت قدورهم ، وطرحت آنيتهم.

فرجع أبو سفيان مع قريش إلى بلادهم ، وتبعته غطفان ، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان حتى يأتي بخبرهم ، ومكث النبي ﷺ قائما يصلي ، ودعا لحذيفة بالسلامة والحفظ حتى يعود ، كما دعا رافعا يديه ويقول : «يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّي وغمي وكربي ، فقد ترى حالي وحال أصحابي» فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخرّ رسول الله ﷺ على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتني ورحمت أصحابي.

وصدق الله إذ يقول : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٩] ويقول : ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً**﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٢٥].

وانتهت الحرب بين المسلمين والمشركين ، قال رسول الله ﷺ : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم».

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة ، وقتل من المشركين أربعة.

التفسير والبيان :

تضمنت الآيات في مجال التذكير بنعمة الله وإحسانه إلى عباده المؤمنين بنصرهم في غزوة الخندق موضوعات خمسة : هي وصف الغزوة (الآيات : ٩ ـ ١١) وموقف المنافقين واليهود من المسلمين (الآيات : ١٢ ـ ٢١) وموقف المؤمنين في التضحية والفداء (الآيات : ٢٢ ـ ٢٤) ونصر المؤمنين وهزيمة الكافرين (الآية : ٢٥) وتأديب يهود بني قريظة (الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧).

أولا . وصف الغزوة :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله اذكروا بالشكر والحمد نعم الله التي أنعم بها عليكم حين وقعتم في حصار جنود وحشود هائلة من قريش وغطفان واليهود الذين جاؤوا لإبادتكم واستئصال شوكتكم وإنهاء وجودكم ، فبعثنا عليهم ريحا باردة في ليلة شاتية ، وملائكة لم تروها زلزلتهم وألقت الرعب في قلوبهم ، فأكفأت القدور ، وقلبت البيوت والأواني ، حتى بادر رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان ، النجاء النجاء ، وقال طليحة بن خويلد الأسدي : إن محمدا قد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، وقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع (الخيول) والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله ، وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وكان الله مطلعا عليما على جميع أعمالكم من حفر الخندق ومقاساة الشدائد ، والاستعداد للقتال ، والتحرز من العدو ، وهو يجازيكم عليها ، ولا يبخس منها شيئا.

ثم ذكّرهم بإحكام حصار الأحزاب عليهم ، فقال :

﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي واذكروا حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق ، ومن أسفل الوادي من جهة المغرب ، الأولون من قريش والأحباش وبني كنانة وأهل تهامة ، والآخرون من بني قريظة ، كما ذكر حذيفة. وقيل : الأولون من أهل نجد وبني أسد

وبني نصر ، والآخرون : من قريش ، وأما يهود بني قريظة فمن وجه الخندق.

﴿وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ أي وإذ مالت الأبصار عن سننها ، فلم تلتفت إلى العدو لكثرته ، وبلغت القلوب الحناجر كناية عن شدة الخوف والفزع ، وتظنون مختلف الظنون ، فمنكم مؤمن ثابت الإيمان لا يتزحزح عن موقفه ، واثق بنصر الله وبوعده ، ومنكم منافق مريض الاعتقاد ، ظن أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وينتصر المشركون ، ويسودون المدينة. قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم ينصرون.

﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ أي حينئذ اختبر الله المؤمنين ، فظهر المخلص من المنافق ، وحركوا واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وتهديد العدو ، فمن ثبت منهم هم المؤمنون حقا ، ومن استبد القلق بهم هم المنافقون.

والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له ، بل لحكمة أخرى ، هي أن الله تعالى عالم بما هم عليه ، لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الأنبياء والملائكة.

ثانيا ـ موقف اليهود والمنافقين من المسلمين :

ثم أعلن الله تعالى موقف المنافقين ومؤيديهم ، فقال :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أي واذكروا حين قال المنافقون الذين أسلموا في الظاهر ولم تؤمن قلوبهم ، وضعفاء العقيدة لحداثة عهدهم بالإسلام : ما وعدنا الله ورسوله من النصر على العدو إلا وعدا باطلا لا وجود ولا حقيقة له. والقائل : جماعة من اليهود والمنافقين نحو من سبعين رجلا ، مثل معتّب بن قشير وطعمة بن أبيرق ، فقال معتب حين رأى الأحزاب : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن

يتبرّز فرقا (خوفا) ما هذا إلا وعد غرور [١]. وأما مريض الاعتقاد فتحدث بما توسوس به نفسه لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

﴿وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ : يا أَهْلَ يَثْرِبَ ، لا مُقامَ لَكُمْ ، فَارْجِعُوا﴾ أي واذكروا أيضا حين قالت طائفة من المنافقين ، وهم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه ، أو عبد الله بن أبيّ وأصحابه : يا أهل المدينة ، لا وجه لإقامتكم مع محمد وعسكره ، ولا مسوغ لها مع هذه الحال من الذل والهوان ، ولا قرار لكم هاهنا ولا مكان تقيمون فيه ، فارجعوا إلى بيوتكم ومنازلكم في المدينة ، لتسلموا من القتل والفناء. ويثرب : اسم للبقعة التي هي المدينة أو طيبة أو طابة. والطائفة : تطلق على الواحد فأكثر.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ، وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً﴾ أي وبسبب إشاعة الفتنة وبثّ روح الضعف عزم جماعة من المنافقين على الرجوع وهم بنو حارثة بن الحارث ، وطلبوا الإذن من النبي ﷺ في العودة إلى بيوتهم وترك القتال قائلين : إن بيوتنا سائبة ضائعة ليست بحصينة ، أي فيها خلل يخاف منه دخول العدو والسارق ليأخذ المتاع ويفزع النساء والأولاد ، فكذبهم الله بقوله : ﴿وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي ليس فيها خلل أو ثغرة ، بل هي حصينة وليست كما يزعمون ، وإنما قصدهم الفرار بسبب الخوف ، والهرب من الزحف مع جيش المؤمنين الصادقين.

ثم بيّن الله تعالى مدى ضعف الإيمان ورقّته في قلوبهم وأن ذلك الفرار ليس لحفظ البيوت ، فقال :

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها ، وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً﴾ أي ولو دخل الأعداء عليهم من كل جانب من جوانب المدينة ، أو

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٣٣ ، البحر المحيط : ٧ / ٢١٧

البيوت ، ثم طلب منهم الردة والعودة صراحة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ، لجاؤوها أو لأعطوها من أنفسهم ولفعلوا ذلك سريعا ، ولم يحافظوا على الإيمان ولم يستمسكوا به ، وما مكثوا في استجابتهم وعطائهم ما طلب منهم إلا زمنا يسيرا من أدنى خوف وفزع ، وهو مقدار ما يكون السؤال والجواب من غير توقف. أو ما تلبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا.

وهذا دليل واضح على ضعف الإيمان في نفوسهم ، فلا عجب إذا بادروا إلى التراجع والتسلل من المعركة. وهذه سمة المترددين الجبناء الذين اعتادوا على الهرب من مواقف الصمود ولقاء الشجعان ، لذا قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ ، وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ أي ولقد كان هؤلاء وهم بنو حارثة عاهدوا الله يوم أحد من قبل هذا الخوف ألا يولوا الأدبار ، ولا يفرون من الزحف ، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا لمثل ذلك. ثم هددهم تعالى وأوعدهم بقوله: ﴿وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً﴾ أي إن الله سيسألهم عن ذلك العهد والوفاء به يوم القيامة ، ويجازيهم على نقضه وخيانة رسول الله ﷺ ، وذلك أمر لا بدّ منه. وقوله : ﴿مَسْؤُلاً﴾ معناه: مطلوبا مقتضى حتى يوفى به.

ثم بيّن الله تعالى لهم عدم جدوى فعلهم ، ووبخهم ، فقال :

﴿قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي أخبرهم أيها الرسول أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطوّل أعمارهم ، فلن ينفعهم الهرب من لقاء الموت أو القتل في ميدان المعركة ، فإن المقدّر كائن لا محالة ، وربما كان فرارهم سببا في تعجيل أخذهم غرّة ، وإذا ظلوا أحياء ونفعهم الفرار ونجوا من الموت كما يظنون ، لم يكن تمتعهم بالتأخير بمتاع الدنيا بعد هربهم وفرارهم إلا تمتيعا قليلا أو زمانا يسيرا : ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا

﴿قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء ٤ / ٧٧]. قال الربيع بن خيثمة : وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار ؛ لأن مجيء الأجل لا بدّ منه.

ثم أبان الله تعالى ما تقدم معرّفا لهم قدرته الكاملة عليهم ، فقال :

﴿قُلْ : مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي وقل لهم أيضا أيها الرسول : لا أحد يستطيع أن يمنعكم من مراد الله بكم ، أو دفع السوء عنكم إذا قدره الله عليكم ، أو تحقيق النفع والخير إذا أراده لكم. وقوله : ﴿أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ معناه : أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة ، فاختصر الكلام. وقوله : ﴿سُوءاً﴾ أي هلاكا ، وقوله : ﴿رَحْمَةً﴾ أي خيرا ونصرا وعافية.

وأكد هذا بقوله :

﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ أي ولا يجد هؤلاء المنافقون ومؤيدوهم من ضعفاء العقيدة ولا غيرهم مجيرا ولا مغيثا ولا نصيرا ينصرهم أو يشفع لهم.

ثم حذرهم بدوام علمه بالخائنين ، فقال :

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنا﴾ قد : هنا للتحقيق وليس للتقليل ، والمعنى : إن الله ليعلم علما محيطا شاملا الذين يثبطون المسلمين عن شهود الحرب ، تخذيلا ونفاقا ، ويعلم القائلين لأصحابهم وخلطائهم من أهل المدينة : تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وقرّبوا أنفسكم إلينا ، واتركوا محمدا والحرب معه. وهلّم : لغة أهل الحجاز ، يسوّون فيه بين الواحد والجماعة ، وأما تميم فيقولون : هلم يا رجل ، وهلموا يا رجال ، وهلمن يا نساء. والذي عليه النحويون أن هلم ليس صوتا ، وإنما هو مركب مختلف في

أصل تركيبه ، فقيل : هو مركب من ها التي للتنبيه ولم ، وهو مذهب البصريين ، وقيل : من هل وأم ، وهو متعد ولازم ، فالمتعدي كقوله : ﴿قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٥٠] أي أحضروا شهداءكم ، واللازم كقوله : هلم إلينا ، وأقبلوا إلينا ، وقوله : ﴿وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ﴾ إما المنافقون قالوا للمسلمين : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس [١] ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا ، وإما يهود بني قريظة قالوا لإخوانهم من المنافقين : تعالوا إلينا وفارقوا محمدا ، فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا. وإما رجل من أصحاب النبي ﷺ قال لشقيقه في قلب المعركة : هلم إلي ، قد تبع بك وبصاحبك ، أي قد أحيط بك وبصاحبك.

﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي ولا يأتي المنافقون القتال إلا زمنا قليلا أو شيئا قليلا إذا اضطروا إليه ، خوفا من الموت ، كقوله تعالى : ﴿ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٢٠].

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى لهم ، فقال :

١ ـ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هذه صفة البخل ، أي بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم ، فلا يعاونونكم في الحرب بنفس ولا بمال ولا بمودة وشفقة ، وكذا عند قسمة الغنيمة. وأشحة : جمع شحيح على غير القياس ، والقياس : أشحاء ، مثل خليل وأخلاء. والصواب : أن يعم شحهم كل ما فيه منفعة المؤمنين.

٢ ـ ﴿فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وهذه صفة الجبن والخوف ، والبخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بيّن سببه وهو الجبن ، والمعنى : فإذا بدأ حدوث الخوف ببدء المعركة والقتال ،

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد ، وهو جمع آكل.

رأيتهم ينظرون إليك أيها النبي في تلك الحالة ، كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا وضعفا ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال.

٣ . ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ﴾ وهذه صفة سلاطة اللسان والإيذاء بالكلام والتفاخر الكاذب ، والمعنى : فإذا تحقق الأمن غلبوكم باللسان وآذوكم بالكلام ، وتفاخروا بأنهم أهل النجدة والشجاعة ، وهم في ذلك كاذبون.

وسبب هذه الصفة ، كما قال تعالى :

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي وهم مع ذلك ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير ، فهم قليلو الخير في الحالتين ، كثيرو الشر في الوقتين ، يبخلون أولا وآخرا ، أي أنهم حين البأس جبناء ، وحين الغنيمة بخلاء ، قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا ، قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق.

ثم ذكر الله تعالى سبب مرضهم وجميع صفاتهم وهو ضعف الثقة بالله ، فقال : ﴿أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ، فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ أي إن أولئك المنافقين هم في الواقع غير مصدقين بالله ورسوله ، ولم يؤمنوا حقيقة ، وإن أظهروا الإيمان لفظا ، فأبطل الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين ، وكان ذلك الإحباط سهلا هينا عند الله ، بمقتضى عدله وحكمته.

وتساءل الزمخشري بقوله : هل يثبت للمنافق عمل ، حتى يرد عليه الإحباط؟ فأجاب : لا ، ولكنه تعليم لمن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يواطئه القلب ، وأن ما يعمل المنافق من الأعمال يجزى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان ، وأن كل عمل يوجد منه باطل [١].

---

(١) الكشاف : ٢ / ٥٣٤

ثم ذكر الله تعالى أن صفاتهم القبيحة في الجبن والبخل والخوف ملازمة لهم على الدوام ، وليست مجرد أمر عارض مؤقت ، فقال :

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يظنون من شدة الخوف والفزع أن أحزاب الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة لم يرحلوا ولم ينهزموا ، وأن لهم عودة إلى الحصار والحرب ؛ فكأنهم عند حضورهم غائبون عن الساحة حيث لا يقاتلون ، مع أن الأحزاب رحلوا وانهزموا ولن يعودوا.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ ، يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ﴾ أي وإن يعد الأحزاب إلى قتالكم ، يتمنوا أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة وبين المقاتلين ، بل يكونون في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم للشماتة بكم ، وانتظار وقوع السوء بكم ، وجبنا وخورا في العزائم.

﴿وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي ولو كان هؤلاء المنافقون معكم في ساحة المعركة لما قاتلوا إلا قتالا يسيرا وزمنا قليلا ، لاستيلاء الجبن والضعف عليهم.

ثم لفت نظرهم ونظر غيرهم إلى ضرورة التأسي بالقائد رسول الله ﷺ ، فقال :

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ هذا أمر من الله تعالى بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب وغيره في أقواله وأفعاله وأحواله ، وصبره ومصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عَزَّوَجَلَّ ، والمعنى : لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة ومثل أعلى يحتذي به ، فهلا اقتديتم وتأسيتم بشمائله ﷺ ، فهو مثل أعلى في الشجاعة والإقدام والصبر والمجالدة ، إذا كنتم تريدون ثواب الله وفضله ، وتخشون الله وحسابه ،

وتذكرونه ذكرا كثيرا في الليل والنهار ، حبا به وتعظيما له ، وخوفا من عقابه ، وطمعا في ثوابه وجزائه ، فإن ذكره دافع إلى طاعته ، والتأسي برسوله.

وهذا عتاب للمتخلفين ، وإرشاد للناس جميعا أن يتأسوا برسول الله ﷺ في السراء والضراء وحين البأس ولقاء الشجعان ونزال الأبطال.

ثالثا ـ موقف المؤمنين :

ثم بعد بيان حال المنافقين أبان الله تعالى حال المؤمنين عند لقاء الأعداء ، فقال :

﴿وَلَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا : هذا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ أي ولما شاهد المؤمنون المصدقون بموعود الله لهم ، المخلصون في القول والعمل الأحزاب المتجمعة حول المدينة قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار بمجابهة الأعداء ثم النصر القريب ، وصدق الله ورسوله الوعد بالنصر ، وما زادهم تجمع الأعداء وتلك الحال من الشدة والضيق إلا إيمانا بالله ، وتصديقا لرسوله ﷺ ، وتسليما لقضائه وقدره وانقيادا لأوامره وطاعة رسوله ﷺ ، واعتقادا جازما أن النصر من عند الله تعالى بعد أن يتخذ العباد الأسباب ، ويستعدوا للحرب ، ويقاتلوا فعلا ؛ لأن الجهاد تكليف من الله لعباده ، وتعطيل التكليف معصية ، ومجرد الاعتماد على قدرة الله وإمداده بالعون والنصر دون عمل من عباده : سوء فهم وجهل وتمنيات شيطانية خادعة.

والتحذير من هذه المفاهيم المخطئة متكرر في القرآن ، قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتى نَصْرُ اللهِ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٤] وقال سبحانه : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا ، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢].

وعن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ لأصحابه : «إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا» أي في آخر تسع ليال أو عشر. وقال ﷺ أيضا : «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم».

وفي الآية دلالة على وجوب الثقة بوعد الله ورسوله ، وقوله تعالى : ﴿**وَما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً**﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص.

وبعد بيان حال المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف الله تعالى المؤمنين الذين استمروا على العهد والميثاق ، فوفوا بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت ، فقال :

﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ أي وهناك في مقابلة المنافقين جماعة من المؤمنين المخلصين الصادقين ، صدقوا العهد مع الله ، ووفوا بما عاهدوا عليه من الصبر في حال الشدة والبأس ، فمنهم من انتهى أجله واستشهد كيوم بدر وأحد ، ومنهم من ينتظر قضاء الله والشهادة وفاء بالعهد ، وما بدلوا عهدهم وما غيّروه ، بخلاف المنافقين الذين قالوا : لا نولي الأدبار ، فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم. وقوله : ﴿**قَضى نَحْبَهُ**﴾ معناه قاتل فوفى بنذره ، والنحب : النذر.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه : ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ**﴾.

وروى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال : «غاب عمي أنس بن النضر عن بدر ، فشقّ عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرينّ الله عزوجل

ما أصنع ، قال أنس : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو ، أين؟ واها لريح الجنة ، إني لأجده دون أحد ، فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه . فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فنزلت هذه الآية : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وذكر في الكشاف : نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم .

ثم ذكر تعالى علة ابتلاء المؤمنين وغيرهم وإيلامهم في الحرب ، فقال :

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي إنما يختبر الله عباده بالخوف ولقاء الأعداء ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر كل واحد منهما بالفعل ، ويكافئ الصادقين في إيمانهم بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ، وصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا وعودهم ، ويعذب المنافقين الذين كذبوا ونقضوا العهد وأخلفوا أوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه.

والكل تحت مشيئة الله في الدنيا ، إن شاء بقوا على ما هم عليه حتى يلقوه ، فيعذبهم ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى الإقلاع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ، أي إن الهداية إلى الإيمان والتوبة بمراد الله ومشيئته.

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه قال :

﴿إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ حيث ستر ذنوبهم ، ورحمهم ورزقهم الإيمان ووفقهم إلى التوبة ، ولا يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة. وهذا حث على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان.

ونظير الآية كثير ، منها : قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٣١] وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٧٩].

رابعا ـ نهاية المعركة أو الإجلاء :

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ أي إن الله تعالى أجلى الأحزاب عن المدينة ، وردهم خائبين خاسرين مع غيظهم ، لم يشفوا صدرا ، ولم يحققوا أمرا ، ولم ينالوا أي خير من غنيمة أو أسر أو نصر حاسم ، بما أرسل عليهم من الريح الباردة والجنود الإلهية ، فتفرقت جموعهم ، وتشتت شملهم ، ولم يحققوا خيرا لأنفسهم ، لا في الدنيا من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة من الآثام في إعلان عداوتهم للرسول ﷺ ومبارزته ، وهمهم بقتله ، واستئصال زمرته وجيشه ، ومن همّ بشيء ، وبدأ بتنفيذ همه بالفعل ، فهو في الحقيقة كالفاعل.

وكفى الله المؤمنين القتال ، أي لم يحوجهم إلى قتال ومبارزة حتى يجلوا عن بلادهم ، بل كفى الله وحده شرهم ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولهذا كان رسول الله ﷺ ـ فيما أخرجه الشيخان ـ يقول : «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده».

وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : «دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب ، فقال : اللهم منزّل الكتاب ، سريع الحساب ،

اهزم الأحزاب ؛ اللهم اهزمهم وزلزلهم».

وقال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم» فلم تغز قريش بعد ذلك ، بل غزاهم رسول الله ﷺ بعد ذلك ، حتى فتح الله تعالى مكة.

وكان الله قويا عزيزا ، أي غير محتاج إلى قتالهم ، قادرا على استئصال الكفار وإذلالهم ، ردهم بحوله وقوته خائبين ، لم ينالوا خيرا ، وأعز الله الإسلام وأهله.

خامسا ـ حصار بني قريظة :

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل الله يهود بني قريظة الذين هم من أهل الكتاب والذين عاونوا الأحزاب من حصونهم وقلاعهم.

وذلك لأنهم بمسعى حيي بن أخطب النضيري نقضوا عهدهم الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ؛ إذ لم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعزّ الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر ، ويحك يا حيي ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك ، فلم يزل يفتل له في الذروة والغارب (أي يخادعه) حتى أجابه ، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون أسوتهم.

فلما أيد الله تعالى رسوله والمسلمين ، وكبت أعداءهم ، وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجعوا إلى المدينة ، أرسل الله جبريل عليه السلام ، فأوحى إلى

رسول الله ﷺ قائلا : «إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة» فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ﷺ فيما رواه الشيخان : «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق ، وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة ، فلم يعنّف واحدا من الفريقين.

وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم رضي الله عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم نازلهم رسول الله ﷺ ، وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه ؛ لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية.

فلما جاء سعد قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون إعظاما وإكراما واحتراما له في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم ، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت».

فقال رضي الله عنه : وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ : «نعم» قال : وعلى من في هذه الخيمة؟ قال : «نعم» قال : وعلى من هاهنا؟ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ ، وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله ﷺ : «نعم».

فقال رضي الله عنه : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم وأموالهم ، فقال له رسول الله ﷺ : «لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة

أرقعة» أي سبع سموات. أو «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله».

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد ، فخدّت في الأرض ، وجيء بهم مكتّفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبع مائة إلى الثمان مائة ، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ، وأموالهم ، لذا قال تعالى :

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ أي وألقى في نفوسهم الخوف الشديد ، لمما لأتهم المشركين على حرب النبي ﷺ ، وإخافتهم المسلمين ، وقصدهم قتلهم ، فانعكس الحال عليهم ، وأسلموا أنفسهم للقتل ، وأولادهم ونساءهم للسبي ، فريقا تقتلون ، وهم الرجال المقاتلة ، وتأسرون فريقا ، وهم النساء والصبيان.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أي جعل الله لكم أراضيهم المزروعة ومنازلهم المعمورة وأموالهم المدخرة ، وأرضا أخرى لم تطأها أقدامكم بعد وهي التي ستفتح في المستقبل ، بعد بني قريظة ، مثل خيبر ومكة وبلاد فارس والروم.

وكان الله صاحب القدرة المطلقة على كل شيء ، فهو كما ورّثكم أرض بني قريظة ، ونصركم عليهم ، قادر على أن يورثكم غير ذلك ، وينصركم على أقوام آخرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت هذه الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية :

١ ـ إن النصر الحاسم للمسلمين على المشركين في غزوة الخندق والأحزاب ، وعلى يهود بني قريظة ناقضي العهد نعمة عظمي تستوجب الشكر والحمد لله تعالى ؛ لأنه نصر دبره الله عزّ وجلّ بإرسال الريح والملائكة ، وقد صدقت فيه

عزيمة المؤمنين على خوض المعركة ، والدفاع عن مدينتهم عاصمة الإسلام.

٢ ـ إن السلطان يشاور أصحابه وخاصته في أمر القتال ؛ لأنه لما سمع رسول الله ﷺ باجتماع الأحزاب وخروجهم إلى المدينة ، شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ، فرضي رأيه ، وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا ، وقال الأنصار : سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ : «سلمان منا آل البيت». وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ ، وهو يومئذ حرّ ، فقال : يا رسول الله ، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا ؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين.

وفي هذا الخبر أيضا وجوب التحصن من العدوّ بما أمكن من الأسباب ، وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يد على من سواهم. أخرج البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق ، حتى وارى عنّي الغبار جلد بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ويقول :

اللهمّ لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

٣ ـ دلت أخبار السيرة السالفة الذكر ورواية النسائي عن البراء وغيره أن رسول الله ﷺ ضرب صخرة أثناء حفر الخندق ضربات ثلاثا ، أضاءت له الضربة الأولى مدائن كسرى وما حولها ، وأنارت له الثانية مدائن قيصر وما حولها ، وأبدت له الثالثة مدائن الحبشة وما حولها ، ورأى سلمان بعينه ذلك ، وتلك معجزة لرسول الله ﷺ بشّر بها بفتح هذه البلاد ، وقال عند ذلك فيما رواه مالك : «دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم».

٤ ـ أعلن بنو قريظة بتواطئهم مع الأحزاب من قريش وغطفان نقضهم العهد مع الرسول ﷺ ، فقال لهم الرسول : «نقضتم العهد يا إخوة القرود ، أخزاكم الله ، وأنزل بكم نقمته» وحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى أموالهم وذراريهم. وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة.

٥ ـ كان تجمع الأحزاب على المدينة وحصارها مثار قلق واضطراب ، ومبعث بلاء وشدة خوف ، فانتابتهم الظنون ، وأظهر المنافقون كثيرا مما يسرّون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ، فإنا نخاف عليها ، وممن قال ذلك : أوس بن قيظي. ومنهم من قال : يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك : معتّب بن قشير أحد بني عمرو بن عوف.

فأقام المشركون في حصارهم المدينة بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ، لم يكن بينهم وبين المسلمين إلا الرمي بالنّبل والحصى ، فلما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتد على المسلمين البلاء ، بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري ، وإلى الحارث بن عمرو المرّي ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان ، ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم. وكان ذلك مراوضة ولم تكن عقدا. فلما وافقا استشار النبي ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراء أو قرى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!! فسرّ رسول الله ﷺ بذلك ، وقال : «أنتم وذاك».

وقال لعيينة والحارث : «انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف». وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة ، فمحاها.

٦ ـ اختراق الخندق : اخترق فوارس من قريش الخندق ، منهم عمرو بن ودّ العامري من بني عامر بن لؤي ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهريّ ، حتى صاروا بين الخندق وبين سلع ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثّغرة التي اقتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، فنادى عمرو : من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقال له : يا عمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تدعى إلى إحدى خلّتين إلا أخذت إحداهما؟ قال : نعم. قال : فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال : لا حاجة لي بذلك. قال : فأدعوك إلى البراز. قال : يا ابن أخي ، والله ، ما أحبّ أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له علي : أنا والله أحبّ أن أقتلك ، فحمي عمرو ونزل عن فرسه ، فعقره ، وصار نحو علي ، فتنازلا وتجاولا ، حتى رئي علي على صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله علي ، اقتحموا بخيلهم الثّغرة منهزمين هاربين.

ورمي يومئذ سعد بن معاذ ، فقطع منه الأكحل [1] ، ومات شهيدا في غزوة بني قريظة ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : «اهتز لموته عرش الرحمن» يعني سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه ، واهتزوا له.

٧ ـ مشروعية الخدعة في الحرب ، لما فعل نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الذي استطاع بدهائه وحيلته بذر بذور الفرقة بين العرب وبين اليهود ، ونجح في خدعته ، كما تقدم بيانه.

٨ ـ الاجتهاد جائز ، سواء أصاب المجتهد أو أخطأ ، فقد أقرّ النبي ﷺ كلّا

---

(١) الأكحل : عرق في وسط الذراع.

من الفريقين : الذي صلى العصر في الطريق إلى بني قريظة ، والذي أخّر الصلاة حتى فات وقتها ، عملا بقول النبي ﷺ : «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فتخوف ناس فوت الوقت ، فصلوا دون بني قريظة ، وقال آخرون : لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ ، وإن فاتنا الوقت ، فما عنف واحدا من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين.

٩ ـ قسم ﷺ أموال بني قريظة ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهما ، قيل : وهي أول غنيمة قسّم فيها للفارس والراجل ، وأول غنيمة جعل فيها الخمس. وفي قول آخر : إن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش. ووفّق ابن عبد البر بين القولين : أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ الآية [الأنفال ٨ / ٤١]. وكان عبد الله بن جحش قد خمّس قبل ذلك في بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ، وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

١٠ ـ أرسل الله على الأحزاب ريح الصّبا يوم الخندق ، حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم ، وأنزل الملائكة لتفريق الجموع ، ولم تقاتل يومئذ ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والشيخان : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور». وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ ، وكان المسلمون قريبا منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافية منها ، ولا خبر عندهم بها.

قال المفسرون : بعث الله تعالى الملائكة ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرّعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر ؛ حتى كان سيّد كل خباء يقول : يا بني فلان هلمّ إلي ، فإذا اجتمعوا قال لهم : النّجاء النّجاء ، لما بعث الله تعالى عليهم من الرّعب.

١١ ـ لن يمنع حذر من قدر ، فمن حضر أجله ، مات أو قتل ، ولا ينفعه الفرار ، ويكون تمتعه في الدنيا بعد الفرار إلى انقضاء الأجل زمنا قليلا ، وكل ما هو آت فقريب.

١٢ ـ للمنافقين خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة ، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة ، بخلاء بأنفسهم وأحوالهم وأموالهم ، جبناء يخافون من لقاء الشجعان ، سليطو اللسان يؤذون غيرهم بالكلام يتفاخرون بما هو كذب وزور ، والحقيقة أنهم كفرة ، لم يؤمنوا بقلوبهم ، وإن كان ظاهرهم الإسلام ، لوصف الله عَزَّوَجَلَّ لهم بالكفر في قوله : ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ وهم كغيرهم من الكفار حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فلا ثواب لهم ؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها ، وإحباط أعمالهم على الله هيّن يسير.

ولجبنهم يظنون الأحزاب لم ينصرفوا ، وكانوا قد انصرفوا ، وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال ، يتمنوا أن يكونوا مع أعراب البادية ، حذرا من القتل. وانتظارا لإحاطة السوء والهلاك بالمسلمين ، يتساءلون ويتحدثون : أما هلك محمد وأصحابه! أ

ما غلب أبو سفيان وأحزابه! ولو كانوا في ميدان المعركة ما قاتلوا إلا رياء وسمعة.

١٣ ـ قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية عتاب للمتخلفين عن القتال ، معناه : كان لكم قدوة في النبي ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق ، والتأسي لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم الآخر ، ويرجو لقاء الله بإيمانه ، ويصدّق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال ، ويذكر الله ذكرا كثيرا ، خوفا من عقابه ، ورجاء لثوابه.

وهل التأسي بالرسول ﷺ على سبيل الإيجاب أو الاستحباب! قولان :

أحدهما ـ على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

الثاني ـ على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

قال القرطبي : ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين ، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

١٤ ـ موقف المؤمنين نقيض موقف المنافقين ، فهم مصدقون واثقون بوعد الله ورسوله ﷺ ، ولم تزدهم المحنة والابتلاء والنظر إلى الأحزاب إلا إيمانا بالله وتسليما للقضاء.

١٥ ـ التجسس على الأعداء أمر جائز شرعا ، فقد أمر النبي ﷺ حذيفة بن اليمان بأن يتعرف أخبار الأحزاب وانصرافهم عن المدينة ، قائلا له : «انطلق حتى تدخل في القوم ، فتسمع كلامهم ، وتأتيني بخبرهم ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى تردّه إلي ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني».

والدعاء لله تعالى مطلوب في أي وقت ولأي حاجة ، وبخاصة وقت الشدة ، فقد انطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : «يا صريخ المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همّي وغمّي وكربي ، فقد ترى حالي وحال أصحابي».

فنزل جبريل وقال : «إن الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك» فخرّ رسول الله ﷺ على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : «شكرا شكرا كما رحمتني ، ورحمت أصحابي». وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحا ؛ فبشر أصحابه بذلك.

١٦ ـ تتلاحق مواكب الشهداء وتتوالى على درب الجهاد في سبيل الله ، فمنهم من يستشهد في معركة ، ومنهم من ينتظر أجله في معركة أخرى ، وهذا أمارة الخير ، ودليل على استدامة الكفاح والإخلاص جيلا بعد جيل.

١٧ ـ أمر الله بالجهاد ليجزي الصادقين في الآخرة بصدقهم ، ويعذب في الآخرة المنافقين ، وذلك بمشيئة الله ، فإن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة ؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت.

١٨ ـ كانت الهزيمة الساحقة في غزوة الخندق لجيوش الأحزاب ، إذ ردّ الله أولئك الكفار إلى ديارهم ، فرجع أبو سفيان إلى تهامة ، ورجع عيينة بن بدر إلى نجد ، ونصر الله جيش الإيمان بغير قتال كبير ، بأن أرسل على الأحزاب ريحا وجنودا ، حتى رجعوا ، ورجعت بنو قريظة إلى حصونهم أو قلاعهم ، فكفى أمر قريظة بالرعب ، وكان الله قويا أمره ، عزيزا لا يغلب.

١٩ ـ وهزم بنو قريظة هزيمة نكراء بعد أن عاونوا الأحزاب : قريشا وغطفان ، وأنزلوا من حصونهم ، وشاع الذعر والهلع في صفوفهم ، وكان مصيرهم قتل رجالهم ، وأسر نسائهم وأطفالهم ، وتوريث المسلمين أراضيهم وبساتينهم ومنازلهم وأموالهم المدخرة.

وبشر الله المؤمنين بأنهم سيرثون بلاد فارس والروم ، وكل أرض تفتح إلى يوم القيامة ، والله على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير ، وعلى ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ، لا ترد قدرته ، ولا يجوز عليه العجز بحال.

تخيير زوجات النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة

ومقدار ثوابهن وعقابهن

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ

﴿لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (٣٠)﴾

الإعراب :

﴿فَتَعالَيْنَ﴾ أصله من العلو ، إلا أنه كثر استعماله في معنى «انزل» فيقال للمتعالي : تعال ، أي انزل.

البلاغة :

﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة أي الطباق بين جملتين.

المفردات اللغوية :

﴿لِأَزْواجِكَ﴾ هن تسع ، وطلبن منه من زينة الدنيا ما ليس عنده. ﴿الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ السعة والتنعم فيها. ﴿وَزِينَتَها﴾ زخارفها. ﴿أُمَتِّعْكُنَ﴾ أعطكن المتعة وهي متعة الطلاق وهي مال يعطى للمطلقة. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ أطلقكن من غير ضرار وبدعة ، والتسريح : الطلاق ، روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة ، فنزلت ، فبدأ بعائشة ، فخيرها ، فاختارت الله ورسوله ﷺ ، ثم اختارت الباقيات اختيارها ، فشكر لهن الله ذلك ، فأنزل ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٢].

وتعليق التسريح بإرادتهن الدنيا يدل على أن المخيّرة إذا اختارت زوجها لم تطلق ، خلافا لرواية عن علي ، ويؤيده قول عائشة : «خيرنا رسول الله ﷺ ، فاخترناه ، فلم يعدّ طلاقا» فإذا اختارت نفسها فإنه طلقة رجعية عند الشافعية ، وبائنة عند الحنفية. وتقديم التمتيع على التسريح : من الكرم وحسن الخلق.

﴿وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ الجنة. ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَ﴾ بإرادة الآخرة. ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾ الجنة ، يستحقر دونه الدنيا ، ومن في قوله ﴿مِنْكُنَ﴾ للتبيين ؛ لأنهن كلهن كن محسنات.

﴿بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز. ﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلي عذاب غيرهن ؛ لأن الذنب منهن أقبح ، كما أن ثوابهن مرتان ، كما قال تعالى : ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٣١]. ﴿وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي ﷺ.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٨):

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ : روى أحمد ومسلم والنسائي عن جابر ﷺ قال : «أقبل أبو بكر ﷺ يستأذن على رسول الله ﷺ ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم أذن لهما ، فدخلا ، والنبي ﷺ جالس ، وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنّ النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد . امرأة عمر . سألتني النفقة آنفا ، فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه ، وقال : هن حولي يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، وأنزل الله الخيار ، فبدأ بعائشة ، فقال : إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه ، حتى تستأمري أبويك ، قالت : ما هو؟ فتلا عليها : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ﴾ الآية. قالت : أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله ﷺ ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ : إن الله تعالى لم يبعثني معنّفا ، ولكن بعثني معلّما ميسرا ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها».

المناسبة :

لما نصر الله نبيه ، وفرق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله ، وقلن : «يا رسول الله ، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل ، والإماء والخول (الخدم) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق».

وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن.

وأزواج النبي ﷺ إذ ذاك تسع : هن خمسة من قريش وهن عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وأربعة من غير قريش : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة ، وصفيّة بنت حييّ بن أخطب الخيبرية. فلما خيرهن رسول الله اخترن كلهن الله ورسوله ﷺ. هذا وجه تعلق الآيات بما قبلها. أما مناسبة هذه الآيات للسورة فهي أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين : التعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله تعالى ، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله فيما رواه البزار عن أبي رافع : «الصلاة وما ملكت أيمانكم». فلما أرشد الله سبحانه نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة ، وبدأ بالزوجات ، فإنهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن بالنفقة.

التفسير والبيان :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بتخيير نسائه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة ، والمعنى : يا أيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لأنفسكن إحدى حالين : إما المفارقة إن أحببتن وكان عظيم همكن التعمق في لذات الحياة الدنيا وزينتها ومتاعها ونعيمها ، وحينئذ أعطيكن متعة الطلاق المستحقة وهي مال يهدى للزوجة المطلقة تطييبا لخاطرها ، وأطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ولا بدعة ، وإما الصبر على ما عندي من ضيق الحال ، وهو المذكور في الآية التالية.

أما متعة الطلاق : فهي كسوة أو هدية أو مال بحسب حال الزوج يسارا وإعسارا ، كما قال تعالى : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ ، عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ، وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ،

﴿مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٦] وأما الطلاق الذي لا ضرر فيه ولا بدعة : فهو ما يكون في حال الطهر مع استقبال العدة أي الابتداء بها ، لا في الحيض ؛ لقوله تعالى : ﴿إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ﴾ [الطلاق ٦٥ / ١].

﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي وإن أردتن رضا الله ورسوله وثواب الآخرة وهو الجنة ، فإن الله أعدّ للمحسنة منكن ثوابا عظيما ، تستحقر زينة الدنيا دونه. وهذا دليل على أن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة كان محسنا صالحا. وقوله : ﴿تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فيه معنى الإيمان.

ولما خيرهن رسول الله ﷺ بين الدنيا والآخرة ، اخترن جميعا الآخرة ، فسرّ بذلك ، وشكرهن الله على حسن اختيارهن ، وكرّمهن ، فقال : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٢] ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٥٣].

وزوجات النبي ﷺ اثنتا عشرة ، وهن أمهات المؤمنين ، ولم يتزوج إلا بكرا واحدة هي السيدة عائشة ، وكان زواجه بالأخريات تأليفا للقلوب ، ومن أجل نشر الدعوة الإسلامية ، وبناء الدولة ، ووحدة الكلمة ، وهن [١] :

١ ـ خديجة بنت خويلد : أول زوجاته ، تزوجها بمكة ، وعاشت مع النبي ﷺ بعد النبوة سبع سنين ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ، وسنّه ٥٤ عاما ، وهي أول من آمن من النساء. وجميع أولاده منها غير إبراهيم.

٢ ـ سودة بنت زمعة بنت عبد شمس العامرية ، دخل بها بمكة ، وتوفيت بالمدينة.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤ / ١٦٤ وما بعدها.

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر الصديق ، الصديقة بنت الصديق ، العالمة الفقيهة راوية الحديث الكثير عن النبي ﷺ ، بنى بها بالمدينة وهي بنت تسع ، وبقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول الله ﷺ وهي بنت ثمان عشرة ، ولم يتزوج بكرا غيرها.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية ، تزوجها رسول الله ﷺ ، ثم طلّقها ، فقال له جبريل : «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ، فإنها صوّامة قوّامة» فراجعها.

٥ ـ أم سلمة : تزوجها رسول الله ﷺ من ابنها سلمة على الصحيح ، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية.

٦ ـ أم حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان ، تزوجها رسول الله ﷺ سنة سبع من الهجرة ودخل بها بعد الهجرة بسبع سنين وكان وكيله في زواجها عمرو بن أمية الضّمري ، وقد أصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربع مائة دينار ، لما مات زوجها.

٧ ـ زينب بنت جحش : تزوجها بأمر الله بعد طلاقها من زوجها أسامة بن زيد ، لإبطال التبني وآثاره. وكان اسمها برّة ، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

٨ ـ زينب بنت خزيمة بن الحارث : تزوجها النبي ﷺ ، ثم ماتت بعد ثمانية أشهر ، كانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين ؛ لإطعامها إياهم.

٩ ـ صفية بنت حييّ بن أخطب الهارونية : تزوجها النبي ﷺ بعد أن أعتقها ، وكانت من سبايا خيبر ، اشتراها الرسول ﷺ من دحية الكلبي بسبعة أرؤس.

١٠ ـ ريحانة بنت زيد : تزوجها الرسول ﷺ سنة ست ، وماتت إثر حجة

الوداع ، وكان زوجها قد قتل في الحرب ، فتزوجها إكراما له ولأولاده.

١١ ـ جويرية بنت الحارث بنت أبي ضرار المصطلقيّة الخزاعية ، من سبايا بني المصطلق ، تزوجها في شعبان سنة ست ، وكان اسمها برّة ، فسماها رسول الله ﷺ جويرية.

١٢ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية آخر امرأة تزوجها.

هؤلاء المشهورات من أزواج النبي ﷺ ، وهن اللاتي دخل بهن ، رضي الله عنهن.

وله نساء تزوجهن ولم يدخل بهن ، منهن الكلابية واسمها فاطمة أو عمرة وهي المستعيذة ، وأسماء بنت النعمان بن الجون ، وقتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس ، وعددهن عشر ، وكان له من السراري سرّيّتان : مارية القبطية وريحانة ، وأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن ومن وهبت له نفسها فعددهن تسع ، كأم هانئ بنت أبي طالب.

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وعظهن وهددهن بمضاعفة العذاب على المعصية فقال :

﴿**يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**﴾ أي يا نساء النبي وأمهات المؤمنين من يرتكب منكن معصية كبيرة ظاهرة القبح كالنشوز وعقوق الزوج وسوء الخلق ، يكون عقابها مضاعفا ، لشرف منزلتكن ، وفضل درجتكن ، وتقدمكن على سائر النساء ، فأنتن أهل بيت النبوة ، وكان تضعيف العذاب لهن يسيرا هينا على الله الذي لا يحابي أحدا لأجل أحد.

قال أبو حيان : ولا يتوهم أن الفاحشة : الزنى ؛ لعصمة رسول الله ﷺ من

ذلك ، ولأنه تعالى وصف الفاحشة بالتبيين ، والزنى مما يتستر به ، وينبغي حمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته. ولما كان مكانهن مهبط الوحي من الأوامر والنواهي ، لزمهن بسبب ذلك ، وكونهن تحت الرسول ﷺ أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

فقه الحياة أو الأحكام :

١ ـ الآيات حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته ، ولو من أقرب الناس إليه ، وفيها أدب عال لبيت النبوة الطاهر ، وتسأم لمستوى الأنبياء ، وترفع عن حطام الدنيا ، وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي ، وإعظام الله ورسوله ﷺ.

قال العلماء : هذه الآية : ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ ..**﴾ متصلة بما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ الذي كان قد تأذى ببعض الزوجات.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها. أمر النبي ﷺ أن يخيّر نساءه فاخترنه. وجملة ذلك أن الله سبحانه خيّر النبي ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا ، وعرض عليه مفاتح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبيا مسكينا ، فشاور جبريل ، فأشار عليه بالمسكنة فاختارها ؛ فلما اختارها ـ وهي أعلى المنزلتين ـ أمره الله عزوجل أن يخير زوجاته ، فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيها له.

٢ ـ القول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيّرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية ، أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته ، فقالت : قد خيّرنا رسول الله ﷺ ، فاخترناه ، فلم يعدّه طلاقا ، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق.

وقيل : إنما خيّرهن بين الدنيا فيفارقهنّ ، وبين الآخرة فيمسكهن ، لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ، ولم يخيرهن في الطلاق.

٣ ـ اختلف العلماء في المخيّرة إذا اختارت زوجها ، فقال جمهور العلماء : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر ؛ لقول عائشة فيما أخرجه الصحيحان : خيّرنا رسول الله ﷺ ، فاخترناه ، فلم يعده علينا طلاقا.

وروي عن علي أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية. وهذا غريب.

وفي رواية أخرى عن علي ، وهو قول الحنفية : أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة ؛ لأن قوله : اختاري ، كناية عن إيقاع الطلاق ، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة ، كقوله : أنت بائن.

وروي عن زيد بن ثابت : أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث.

وذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء ، والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ، وذلك أن التمليك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملّكتك ؛ أي قد ملّكتك ما جعل الله لي من الطلاق ، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا ، فلما جاز أن يملّكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القول قوله مع يمينه. أما المخيّرة إذا اختارت نفسها ، وهي مدخول بها ، فهو الطلاق كله ، ولا عبرة بإنكار الزوج ؛ لأن معنى التخيير : التسريح ، والتسريح : البتات ؛ قال الله تعالى : ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتانِ : فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ**﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٩] وقال تعالى في آية التخيير : ﴿**فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً**﴾ والتسريح بإحسان : هو الطلقة الثالثة ، ومعنى التخيير التسريح. وعلى هذا يكون طلاق المخيرة ثلاثا عند الإمام مالك.

وأكثر الفقهاء في تحديد زمن الخيار على أن لها الخيار : ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض ، فإن لم تختر ولم تقض شيئا حتى افترقا

من مجلسهما ، بطل ما كان من ذلك إليها ، ويرى آخرون أن ما ملكته يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها ، وهذا عند المالكية هو الصحيح لقوله ﷺ لعائشة فيما رواه البخاري والترمذي : «إني ذاكر لك أمرا ، فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» فهذا دليل على استمرار التخيير ، حيث جعل لعائشة التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجا من الأمر.

والظاهر أن من اختارت الله ورسوله ﷺ كان يحرم على النبي ﷺ طلاقها ، أي لا يباشره أصلا ، عملا بعلو منصبه ، وسمو خلقه.

٤ ـ جعل الله ثواب طاعة أزواج النبي ﷺ وعقاب معصيتهن أكثر مما لغيرهن ، بنص الآية هنا : ﴿يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ﴾ والآية التي بعدها : ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾ فأخبر الله تعالى أن من جاء من نساء النبي ﷺ بفاحشة ـ والله عاصم رسوله ﷺ من ذلك ، كما مرّ في حديث الإفك ـ يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع. وبينت الشريعة في مواضع كثيرة أنه كلما تضاعفت الحرمات ، فهتكت تضاعفت العقوبات ، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد ، والثيب على البكر.

ولما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي ، وفي منزل أوامر الله ونواهيه ، قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب.

وضعف الشيء مثله ، فمعنى الضعفين : معنى المثلين أو المرتين ، فلو فرض وقوع ما يوجب الحدّ منهن ـ وقد أعاذهن الله من ذلك ـ حدّت الواحدة حدّين لعظم قدرها ، كما يزاد حد الحرة على الأمة ، والعذاب بمعنى الحدّ ، قال الله تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور ٢٤ / ٢]. ويدل على هذا ﴿نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ﴾.

انتهى الجزء الحادي والعشرون ولله الحمد

فهرس

الجزء الحادي والعشرين

طريقة إرشاد أهل الكتاب ١
بعض مطالب المشركين التعجيزية الإتيان بمعجزات حسية واستعجال بالعذاب ١٤
الأمر بالهجرة عند تعذر إقامة الشعائر الدينية ٢٢
اعتراف المشركين بالإله الخالق الرازق المحيي.....٢٩
بيان حال الدنيا واضطراب أوضاع الكفار فيها.....٣٣
سورة الروم.....٤٢
تسميتها وموضوعها ومناسبتها لما قبلها ٤٢
مشتملات السورة ٤٣
الإخبار بالغيب في المستقبل ٤٥
الحث على التفكر في المخلوقات الدالة على وجود الله ووحدانيته.....٥٢
إثبات الإعادة والحشر وبيان ما يكون وقت الرجوع إلى الله.....٥٧
تنزيه الله تعالى وحمده في جميع الأحوال.....٦١
بعض أدلة الوحدانية والقدرة والحشر ٦٥
إثبات الوحدانية من واقع البشر ٧٧
الأمر باتباع الإسلام دين الفطرة والتوحيد ٨٠
سوء حال بعض الناس بالرجوع إلى الله أحيانا ثم الشرك والنكول.....٨٦
الترغيب بالنفقة وأنواع العطاء وضمان الرزق وإثبات الحشر والتوحيد ٩١

جزاء المفسدين والكافرين وجزاء المؤمنين..... ٩٦
الاستدلال بالرياح والأمطار على قدرة الله وتوحيده..... ١٠٢
تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من الإعراض عن دعوته..... ١١٠
أطوار حياة الإنسان ١١٣
أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا..... ١١٥
مهمة القرآن في بيان أدلة العقيدة وأمر النبي بالصبر على الأذى والدعوة ١٢٠
سورة لقمان..... ١٢٤
صلتها بما قبلها أو مناسبتها لما قبلها..... ١٢٤
مشتملات السورة ١٢٦
خصائص القرآن وأوصاف المؤمنين به..... ١٢٧
إعراض الكافرين عن القرآن وإقبال المؤمنين عليه..... ١٣٠
الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية الله وإبطال الشرك..... ١٣٧
قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه..... ١٤١
توبيخ المشركين على الشرك مع مشاهدة دلائل التوحيد ١٥٧
سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر..... ١٦١
إثبات وجود الله وسعة علمه وشمول قدرته على البعث وكل شيء..... ١٦٤
الأمر بتقوى الله وبيان مفاتح الغيب ١٧٥
سورة السجدة..... ١٨٢
تسميتها وفضلها ومناسبتها لما قبلها..... ١٨٢
موضوعها مشتملاتها..... ١٨٣
إثبات النبوة (الرسالة)..... ١٨٥
دلائل التوحيد والقدرة الإلهية..... ١٨٧
إثبات البعث وحال الكفار يوم القيامة..... ١٩٥

صفة المؤمنين في الدنيا وجزاؤهم عند ربهم في الآخرة ٢٠٢
جزاء المؤمنين وجزاء الفاسقين ٢٠٩
عقد الصلة بين الرسالتين ٢١٥
إنزال التوراة على موسى عليه السلام وموقف اليهود منها ٢١٥
تأكيد ثبوت التوحيد والقدرة والحشر ٢١٩
سورة الأحزاب ٢٢٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وموضوعها ٢٢٥
الأمر بتقوى الله واتباع الوحي والتوكل على الله ٢٢٧
تعدد القلب والظهار والتبني ٢٣١
قصة زيد بن حارثة في السيرة والسنة النبوية ٢٣٨
مكانة النبي ﷺ ومهمته وتشريع الميراث بقرابة الرحم ٢٤٣
غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة ٢٥٥
أضواء من السيرة على غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ٢٦٣
١ ـ وصف الغزوة ٢٦٦
٢ ـ موقف اليهود والمنافقين من المسلمين ٢٦٧
٣ ـ موقف المؤمنين ٢٧٤
٤ ـ نهاية المعركة أو الإجلاء ٢٧٧
٥ ـ حصار بني قريظة ٢٧٨
تخيير زوجات النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة ومقدار ثوابهن وعقابهن ٢٨٧